kitabweb-2013.forumsmaroc.com

د . حسن جلاب

(الحركة الصوفية بمراكش وأثرها في الأدب)

(2)

الآثار الأدبية لصوفية مراكش

مراكش ١٩٩٤

د . حسن جلاب

(الحركة الصوفية بمراكش وأثرها في الأدب)

(2)

الآثار الادبية لصوفية مراكش

مراكش 1994

اصـــل هـــذا الكـتـــاب

رسالة جامعية نال بها صاحبها دكتوراه الدولة في اللغة العربية و آدابها من كلية الآداب بالرباط يوم 27 يونيو 1987 بميزة حسن جدا، تحـــت عنـــوان (الحركة الصوفية بمراكش وأثرها في الأدب).

وكانت لجنة المناقشة مكونة من :

الدكتور محمد بنشريفـــة رئيســا

الدكتور عباس الجراري مشرفا و مقررا

الدكتور عبد السلام الهراس عضـــوا

الدكتور محمد بن شقـــرون عضـــوا

وتتكون الأطروحة من ثلاثة كتب هي :

1 - الحركة الصوفية بمراكش

2 - الآثار الأدبية لصوفية مراكش

3 - مظاهر تأثير صوفية مراكش في التصوف المغربي

حقـــوق الطبـع محفوظــة للمؤلــف

الطبعــة الاولــى - مـــراكش

رقم الايـداع القانـوني 426 / 1994

ردمــــــك 2 - 1 - 9600 - 9981

المطبعـــة والوراقـــة الوطنيـــة مـــراكش

- الآثـــــار الأدبيـــــة -

تمهيـــد

الفصـل الأول : الشعـــر

الفصل الثاني : الكتابة الصوفية ، مؤلفات ورسائل

الفصل الثالث : أدب الأذكار

خاتمـــــة

تمـهيـد

ساهم سبعة رجال مراكش في مجال الأدب الصوفي بأشعارهم ورسائلهم وأورادهم وأحزابهم وأذكارهم . وكان لأغلبها الصدى الكبير داخل المغرب وخارجه بما لقيته من إقبال الصوفية : قراءة وشرحا ، وتأويلا فكانوا بذلك معالم بارزة في هذا المجـــال .

وسنتناول هذه الآثار الادبية في ثلاثة فصول :

- الأول – الشعر ، نحلل فيه قصائد عياض في مدح النبي ، وأشعار السهيلي في التوسل ، ومجموع شعر الغزواني في الطريقة والتوسل .

- الثاني – نخصصه للكتابة الصوفية ، مؤلفات ورسائل ، وأهمها كتاب الشفا لعياض ، ورسائل الجزولي : عقيدته ، رسالته في التوحيد ، وما وصلنا من كتابه في الزهد ، وأجوبته ومراسلاته في الدنيا والدين . . . وكتاب النقطة للغزواني ، ومراسلاته مع بعض صوفية المشرق وعلمائه .

- الثالث – نخصصه لأدب الأذكار ، بعد مدخل تمهيدي للتعريف بأدب الأذكار وأهميته في التصوف، نتناول بالتحليل :

- حزب أبي العباس السبتي .

- أذكار الجزولي من خلال دلائل الخيرات ، والأحزاب . أذكارالغزواني وأدعيته .

وسنعتمد في أغلب هذا الباب على مسلمات النظرية الشعرية والمنهج الإحصائي كما بيننا ذلك في المقدمـــــــة .

الفَصـــــــــــلُ الأول

ـ الشِّعــــــر ـ

المبــحث الأول : عياض وتكريم النبوة

المبحث الثاني : هاجس الذنب عند السهيلي

المبحث الثالث : شعر المعاني عند الغزواني

خاتمــــــــــة

اشتهر بالشعر من سبعة رجال مراكش : عياض ، السهيلي والغزواني - وهم يختلفون من حيث موضوعات شعرهم ومعجمها ، ومستواها . . . وهذا طبيعي لاختلاف شروطهم وتكوينهم ، الا أنهم يلتقون جميعا في العاطفة المتأججة والنفس التواقة الى السمو والصفاء ، والإبتعاد عن الذنب والتماس العفو من الخالق ، والتوسل بالرسول الأمين الشفيع

وسنتعرف الى مجالات الاختلاف والإئتلاف بينهم بعد دراسة ما وصلنا من شعرهم الصوفي .

المبحث الأول - عياض وتكريم النبوة

كان أبو عبد الله محمد بن عياض يروم جمع شعر والده في ديوان (1) ، إلا أنه فيما يبدو لم يقم بذلك . لذا ظل هذا الشعر موزعا في ثنايا المجاميع وكتب التراجم والطبقات (2) .ولم يسلم كأغلب شعر الفترة المرابطية من آفتي الشك والخلط . فقد نسبت إليه ابيات ذكرت لغيره .وبقيت بعض قصائده غير معروفة الى حين (3)

وشعر عياض متنوع الأغراض . إلا أن أغلب قصائده وأطولها جاءت في مدح الرسول والتوسل به . فترجمت بذلك اهتماماته المذهبية والدينية (هو صاحب الشفا والمشارق، وترتيب

---

(1) التعريف بالقاضي عياض ص 101

(2) ورد شعر عياض في : التعريف لابنه أبي عبد الله 99 . وقلائد العقيان 232 ، والمطرب 87 -92، ووفيات الأعيان3/ 485،وأزهار الرياض 4/ 239 والنبوغ 3/ 87 - 99 وعياض الاديب لعبد السلام شقور 331 - 347 . وفي مجاميع سنذكر أرقامها فيما بعد.

(3) القاضي عياض الأديب ، لشقور 215 - 224 .

المدارك)، وهمومه الذاتية، وحبه العميق للرسول .

وسنركز في دراستنا التحليلية لشعر عياض على هذه القصائد المدحية التوسلية (4)

---

(4) سنعتمد اهمها وهي :

– الاولى : عدد أبياتها 17 ، مجموع خزانة ابن يوسف رقم 359 ، والخزانة العامة رقم 774 د و2445 د . ومطلعها :

قف بالركاب فهذا الربع والـــــدار لا حت علينا من الأحـــبـــاب أنــــوار

– والثانية : عدد ابياتها 39 . المصدر : مجموع خزانة ابن يوسف 359.

يـــا عيـن هذا السيـــد الأكبـــــر و هــذه الروضـــة و المنبـــــــــــر

– والثالثة : عدد الابيات 13 ، المصدر : م . خ . ع . ر .1654 د :

إليك مددت الكف استمطر الفضلا واستكشف البلوى واستعطف الطولا

– الرابعة : الابيات 49 ، المصدر : مجموع خزانة ابن يوسف 351 ، المطلع

هذا الذي وخذت شوقـا لـه الا بـــــل هذا الحبيب الذي مـا منه لي بــــدل

– الخامسة : الابيات 23 ، المصدر : مجموع خزانة ابن يوسف ، 359 ، المطلع:

بشراك يا قلب هذا سيد الامـــــم وهذه حضرة المختار في الحــــــرم

وسنكتفي في الدراسة بالإشارة الى رقم القصيدة دون تكرار المطلع : الأولى ، او الثانية ، أو الثالثة . . . .

1 - بنـــــــاء القصـيـدة :

يبدو أن شعر عياض قائم على مايمكن تسميته بظاهرة التمايز، فهو لايسير على وتيرة واحدة من حيث البناء، بل يمكن القول بوجود نموذجين :

- الاول مركب : ذو تشكيل رباعي مترابط ، مبني على :

أ) وحدة تمهيدية ، وقوف على الربع النبوي وفرح به ، أو دعوة الى البكاء عند بلوغه

ب) غرض مركزي له صبغة موضوعية ، مدح الرسول أو استعراض الشمائل المحمدية

ج) غرض مركزي له صبغة ذاتية ،توسل وطلب شفاعة .

ويشكلان في الغالب ثنائية ضدية بالتحول من الحديث عن العالم الخارجي الى الذات الفردية .

وهناك حالة تنعدم فيها هذه البنية التناوبية باختفاء الموضوعي لصالح الذاتي ، فتكون القصيدة عبارة عن توسل خالص . ونجد تفسير ذلك في الحالة النفسية للشاعر وهو ينتج النص .

د) وحدة ختامية ، تحية أو تصلية أو سلام على الممدوح .

- الثاني بسيط : تختفي فيه الوحدتان أو إحداهما على الأقل ، ويختفي احد الغرضين لفائدة الآخر، فيكون النص ذاتيا(توسليا) تغلب على لغته الوظيفة الإنفعالية ، أو موضوعيا (مدح ، سيرة) تكون السيادة فيه للوظيفة المرجعية الإفهامية ، ويتضح ذلك من خلال هذا الجدول :

	بناء مركب			بناء مبسط	
نصوص / تشكيلات	النص الأول	النص الثاني	النص الخامس	النص الثالث	النص الرابع
وحدة تمهيدية	وقوف بالربع النبوي (البيتان) 1و2	دعوة العين الى البكاء خشوعا لبلوغ المقام أبيات 1-3 عودة لمخاطبة العين 13-15	الفرح ببلوغ المقام ابيات 1 - 3		
غرض مركزي (موضوعي)	تدرج في وصف المقام : منى، خيف ... 3-9 شمائل الرسول وفضائله	وصف المقام والافتخار به 4 - 12 مدح الرسول 16 - 22			سيرة نبوية وشمائل محمدية 1 - 49
غرض مركزي (ذاتي)	توسل وطلب شفاعة واعتراف بالذنب 10-15	توسل وطلب شفاعة، ورغبة في التطهر من الذنب 23 - 36	توسل بالرسول وطلب شفاعته 4 - 21	توسل بالإله واللجوء اليه 1-11	
وحدة ختامية	صلاة عليه وعلى آله 16-17	صلاة وسلام 37- 39	صلاة وتسليم 22 - 23	صلاة وتسليم 12 - 13	النص غير تام

جدول رقم 1 - بناء القصيدة

وإذا فحصنا الجهاز الدلالي الذي يقوم عليه البناء المركب ، تبين لنا أن الخطاب الشعري له ثلاثة محاور :

* ما يتصل بالمقام / * ما يتصل بالرسول / * ما يتصل بالشاعر،

فالمحور الأول يمثل الرسالة / والمحور الثاني يمثل المرسل إليه / والمحور الثالث المرسِل وهي رسالة أرضية جاءت بعكس الرسالة السماوية التي نجد المرسل فيها هو محمد والمرسل إليه هو الشاعر (البشر عموما) . وبذلك يحدث التقاطع ،فيصير محمد مرسِلا ومرسَلا إليه : يبلغ رسالة ربه الى البشر، ويتقبل توسلهم إلى الرب فتتحول وظيفته من مبلغ في حياته الى شفيع بعد مماته.

المقام	الرسول محمد	الشاعر	الوظيفة	نوعية الرسالة
الرسالة------	--> المرسَل---	--> المرسل إليه----	------> مبلغ =	رسالةالسماء
الرسالة <----	-- المرسل إليه <---	--- المرسِل <----	------ شفيع =	رسالة الأرض

وإذا كانت رسالة السماء تعتمد حججا وبراهين لإقناع المتلقين - وقد أورد الشاعر الكثير منها - فإن رسالة الارض لاتخلو بدورها من حجج على مصداقيتها ومشروعيتها ، استمدت كثيرا من عناصرها البراهين الاولى السابقة الذكر .وسنفصل الحديث في ذلك عند تناول المعجم الشعري عند عياض .

ويبدو التمايز كذلك في حجم النصوص والتي تتراوح بين ثلاثة عشر وتسعة وأربعين بيتا ويتم التطويل في الغرض الموضوعي سواء كان النموذج مركبا أو بسيطا ، ويسلك الشاعر في ذلك منهجين :

أ) تشكيل مرجعي : يعتمد فيه على محفوظه من مجالات معرفية مختلفة ، ويعيد بناءها في صياغة شعرية أقرب الى النظم التقريري . والنص الرابع ناقص أصلا إذ يبدو من بنائه أنه يشتمل على باقي موضوعات السيرة كما جاءت عند كتابها ومنهم عياض نفسه(5) .

(5) مجموع خزانة ابن يوسف رقم 351 بلغ الشاعر طفولة الرسول وبقي له الحديث عن باقي مراحل حياته، البعثة . المعجزات الحروب . . .

الموضوعات	النص الأول	النص الثاني	النص الثالث	النص الرابع	النص الخامس
المولدومعجزاته				43-38	
الطفولة	.			49-44	
النسب الى عدنان				73-18	
شرفـــــه				16-9	
دلائل البعثة				8- 3	
الفضائل والشمائل	9 - 3	22 - 13		2-1	8-5، 17- 20
فخر بالمقام النبوي		12 - 4			16-14

الجدول رقم 2 – الموضوعات (التشكيل المرجعي) .

<u>ب) تشكيل لفظي :</u> يتمثل في التكرار الذي يؤدي الى التراكم الكمي وبالتالي الى إطالة نفس القصيدة ، ويأتي في تعداد فضائل الرسول أو في شطحات التوسل به وبمقامه . ولهذا التكرار دلالات صوتية تركيبية سنعود إليها

اللفظة المكررة	النص الاول	النص الثاني	النص الثالث	النص الرابع	النص الخامس
هذا ، الذي	13 مرة			50 مرة	4 مرات
يـــــا		16 مرة	4 مرات		17 مرة
الــــذي				31 مرة	
بشــــراك	مرتان				
آثـــــار	مرتان				

جدول رقم 3 – التشكيـــل اللفظـــي .

2 - المستـــوى الصوتي :

تنبه القدماء (6) الى الإرتباط الحاصل بين الالفاظ ومدلولاتها ، فالمصادر التى جاءت على وزن فَعلان تكون للحركة والإضطراب كالغليان والهيجان . . . وتكرار عين الفعل دليل على تكرار الفعل مثل قطّع، وكسر ... ونصوا على القيمة التعبيرية للصوت بحسب رتبته في الكلمة: فالصاد اقوى من السين في صعد وسعد ، وفي الوسيلة والوصيلة . . لهـذا خصصوها للمعنى الاقوى وتركوا السين للمعنى الأضعف . وعلى وجه العموم فإنهم جعلوا لكل صوت دلالة خاصة تميزه عن غيره واهتموا بموسيقى الحروف وانسجامها في المخارج وفصاحتها وبعدها عن التنافر ووضعوا لذلك قوانين وقواعد . وبهذا يلتقون مع اصحاب الدراسات الشعرية الحديثة الذين ينصون على قيمة الحروف الصوتية والبيانية ودورها في بلورة المضامين واعتمدوا في تحديد المكونات الصوتية للخطاب الادبي عموما ، والشعري خصوصا مقومات الوزن والقافية والتنغيم والمقابلة وجرس الحروف . . . وسنحاول التعرف إلى المكونات الصوتية لشعر عياض تبعا لنفس المنهج .

* الـــوزن والقـــافيـــــة .-

ربط القدماء والمحدثون بين موسيقى الشعر ومعناه ، فعند حازم ان عروض الشعر أقسام : طويل ومتوسط وقصير ، وكل قسم يصلح لغرض من الأغراض . فالاعاريض الضخمة الرصينة تصلح لمقاصد الجد كالفخر ونحوه كعروض الطويل والبسيط . ويصلح الكامل لجزالة النظم ، والرمل والمديد لإظهار الشجو والإكتئاب قال : (فالعروض الطويل نجد فيه ابدا بهاء وقوة ، وتجد للبسيط بساطة وطلاوة ، وتجد للكامل جزالة وحسن اطراد ، وللخفيف جزالة ورشاقة . . (7) والبحور التي استعملها عياض تسير في هذا الإتجاه ، فقد جاءت ثلاث قصائد في البسيط ، وقصيدة في الطويل ، وقصيدة في السريع . وغير خاف أن المدح النبوي من مقاصد الجد .

---

(6) منهم ابن جني في الخصائص 2 / 152 – 168 ط . دار الكتب المصرية 1952 – 1956 . تحقيق محمد علي النجار . و حازم القرطاجني في منهاج البلغاء .

(7) منهاج البلغاء 269

و يبدو أن الشعر العربي قد جاء على هذا المنوال : فقد تبين من خلال دراسة الدكتور جمال الدين بن الشيخ للشعرية العربية (8) أن أكثر البحور استعمالا في الشعر العربي هي :

- في الجاهلية : طويل / بسيط / كامل / متقارب .

- في القرن الاول : طويل / وافر / بسيط / كامل / متقارب .

- في القرن الثاني : طويل / بسيط / كامل / سريع / وافر .

- في القرن الثالث : طويل / كامل / خفيف / بسيط / وافر .

كما أن وجهة نظر ابراهيم أنيس جديرة بالإعتبار : ففي اعتقاده أن البحور الطويلة أكثر استيعابا للتجربة الهادئة المتاملة التي تجمع الفكر الى جانب العاطفة في حين أن البحور القصيرة والمجزوة أكثر استيعابا لحالات الإنفعال الشديد عند الفرح أو الحزن حيث ترتفع نبضات القلب فتزيد في الإنفعال . قال : (وفي الحق أن النظم حين يتم في ساعة الانفعال النفساني يميل عادة إلى تخير البحور القصيرة وإلى التقليل من الأبيات . . . أما المدح فليس من الموضوعات التى تنفعل لها النفوس وتضطرب لها القلوب ، وأجدر به أن يكون في قصائد طويلة ، وبحور كثيرة المقاطع كالطويل والبسيط والكامل . . . .)(9)

فهل كان عياض منفعلا في قصيدة السريع وحدها ؟ ان البناء الرباعي للقصيدة عنده، وتناوب الغرضين المركزين، وطغيان الموضوعي منهما، قرائن تبعد هذا الشعر عن الانفعال الشديد الذي عناه ابراهيم أنيس . بل هناك هــــدوء وتأمــل وبناء وجمع بين الفكر والعــاطفـة . فكانت الأعاريض الطويلة هي الأنسب للتعبير عن هذا كله . ويعطي الطويل امكانيات للحوار مع النفس والآخرين ، في حين يعتبر البسيط من أكثرالبحور حروفا وحركات ، يتسع فيه المجال لممارسة الرياضة اللغوية من تكرار و جناس وطباق . . . وهي ممارسة ولع بها عياض المعروف باطلاعه الواسع على البلاغة (هو صاحب بغية الرائد) .

---

(8) Poetique arabe. J - D Bencheikh. Ed . Anthropos Paris 1975 P. 203 -207.

(9) موسيقى الشعر 196 - 197 .

أما القافية ، فمن شروطها مناسبة المعنى والظرف العام ، فمن المتداول المأثور أن العين تستعمل لإفادة الهلع والتفجع ، والواو للتألم والإستغاثة والحاء للتلذذ والألم على السواء . . . وفي إحصاء للحروف المستعملة في خاتمة القوافي تبين أن ثمانا وسبعين في المائة من شعر أبي تمام جاءت قوافيه على حروف : الباء، الميم ، الراء ، الدال ، الياء النون ، وحوالي سبعين في المائة من شعر البحتري على حروف : الدال ، الياء ، الباء الراء ، النون ، الميم . . . (10) والقوافي المستعملة في شعر عياض هي الراء(نصان) ، اللام (نصان).والميم (نص واحد) وهي حروف مجهورة.

وبالإضافة إلى البحورالطويلة ،والقوافي المجهورة يستخدم الشاعر وسائل عديدة لتوفيرقدرمن الموسيقية والتنغيم لشعره منها :

* **التصريع** : الذي يردد المقطع الصوتي للقافية ويبشر بها ، ويؤدي دلاليا إلى عملية تماسك في الصياغة بين الشطرين حيث يشبه البيت المصرّع بباب له مصراعان .

* **المـــــد** : ويكثر الشاعر منه . فهو إلى جانب إيقاعه الصوتي له دلالات معنوية إذ يفيد التعبير عن الحزن (استطالة الآهات) بواسطة النداء والندبة والإستغاثة أو التعبير عن الفخر والتحمس . ويتم انتقاء الحروف المناسبة للغايتين . وقد جمع عياض بين الاهتمامين في هذه القصائد : حزن على ما اقترفه من ذنب ، وشعور بعبء ذلك ومحاولة التغلب عليه بالتوسل من جهة ، وفخر بالرسول بالتنويه به وإظهار فضائله من جهة أخرى .

ويتجلى المد في البيت بشطريه ، فغالبا ما يستهله بكلمة ممدودة هذا ، بادر ، يا . . . وقد سبق لنا أن بعضها كثير التردد (جدول التشكيل اللفظي) .بمعنى أنها مطردة وملحة . وتنتهي هذه الأبيات بمد كذلك تزيدها الضمة التي تختم بها قوافي ثلاث قصائد صلصلة في مثل : أنوار ، تختار ، أشاروا ، اخبار ، منبر ، يبهر ، متجر ، بذلوا ، سالوا ، جهلوا . . . وقافية قصيدة أخرى مفتوحة تؤدي الى نتيجة إيقاعية مشابهة (الطولا ، الهولا ، الاعلى ، الاصلا ، النقلا . . .) فصدى الصوت يبقى مستمرا بعد النطق بالحرف . وهذا شبيه بالنداء او الندبة أو الإستغاثة (وا، يا . . .)

---

(10) الدولة الموحدية (اثر العقيدة في الأدب) . ط . أولى ص 88

وللمقطع المنفتح المنتهي بحركة دلالة معنوية تتجلى في رغبة الشاعر في الخروج من سجن ما ، وسعيه الى الإنعتاق والحرية . وليس هناك أقسى من سجن الذنب ، والشعور بالخطا والرغبة في التخلص منه والتطهر من دنسه وأدرانه .

وما بين أول البيت وآخره تتردد كلمات ممدودة أخرى : آثار ، آثام ، ملاذي ، مرادي ، كئيبا ، ذليلا ، حقيرا ، غريبا . . . فلا يكاد يخلو أي بيت من عدد منها . واعتماد المقاطع الممدودة بهذه الكثافة ، وفر للنصوص إيقاعا موسيقيا غنيا : نفث الشاعر من خلاله همومه وأحزانه وأشواقه للمقام الشريف المقدس .

* **التكرار والجناس** : التكرار أهم خاصية فارقة بين الشعر والنثر ويمكن ملاحظته في الأصوات وفي الإيقاع العروضي وفي التركيب النحوي، وفي المعنى وهو ظاهرة لغوية لها دلالات عامة وخاصة :

– العامة، كأن يعمد الأديب الى تقوية الجانب الإنشائي في موضوعه عن طريق إثارة العواطف بأساليب التعجب ، الحنين . . او التعبير عن حالة نفسية : حزن ، فخر . . .

– الخاصة ، تتجلى في التوكيد والترنيم الموسيقى ، إذ أن موسيقى الشعر تتم بقدر الاصوات المكررة منه (11) .

وقد اهتم عياض بالتكرار والمجانسة في شعره لما توفره من إمكانيات تنغيمية ودلالية . وعنده أن المجانسة نوعان :

– حقيقية، لها ثلاث صور ،

* ما اشتقت لفظته من الاخرى (ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم)

* وما كانت لفظتاه بمنزلة المشتق (وأسلمن مع سليمان)

---

(11) من إشكالات الشعر العربي : التكرار . محمد غازي التدميري . الفصول الأربعة عدد 20 ص 196 – 215 .

* ما كانت لفظتاه على صيغة واحدة (الظلم ظلمات يوم القيامة)
- و غير حقيقية ، مثل (جبل ، جمل) وهو ما يسمى عموما بالجناس الناقص (12) .

واستعمل الشاعر مختلف الصور الجناسية تأكيدا لميله إلى أحداث تكثيف موسيقى داخل الأبيات . ومع ذلك تبدو بعض القيم الخلاقية في تركيب الحروف تلافيا لما يمكن أن يحدثه الترديد الصوتي المتجانس من رتابة . وهكذا فإن التكرار الجناسي متصل بأنسقة خاصة تخضع لا عتبارات دلالية من خلال السياق الذي بنيت فيه.ويمكن تصنيفها كالتالي (13)

أ) ما يتصل بنضج الدلالة واكتمالها :

ويتمثل في إتمام المعنى بالمجانسة كقول عياض :

ذخيرتي حبك يا مصطفى   فإنه أفضل ما يذخر

وقوله :

هذا الذي هتفت من قبل مولده   به الهواتف واشتاقت له المقل

وقوله :

هذا ابن هاشم الساقي الحجيج ندى   وهاشم الزاد للاضياف ان نزلوا

فقد كرر الكلمة في الشطر الثاني لإتمام معنى مثيلتها الواردة في الشطر الأول . أو في بيان النوع بالمجانسة ، كقوله :

هذي قباب قبا آثار وطئهم   وذا هو الجزع فابك ذا هو الغار

و قوله :

وقد سعيت إلى أبواب حجرتكم   سعيا على الرأس لا سعيا على القدم

---

(12) بغية الرائد 192 .

(13) التكرار النمطي في قصيدة المديح عند حافظ (دراسة أسلوبية) محمد عبد المطلب مجلة فصول ، مجلد 3 ، عدد 2 يناير / مارس 1983ص47 – 60

فقد حدد اسم المسجد ، وبين نوع المشي الذي سار به الى المقام . ويتمثل كذلك في الترتيب ، كقول عياض :

باسمك يا رب قرنت اسمه فإنه يذكر اذ تذكر

أو المبالغة ، كقوله :

صفاته العلياء كل الورى عن حصرها والقطر لا يحصر

ب) ما يتصل بقيم تعبيرية : تبدو عندما تحمل المجانسة ظاهرة أسلوبية كالتقابل المادي والمعنوي الوارد في قول عياض :

ما هام صب وهمى عارض و سار ركب او سرى عسكر

فبالإضافة الى المجانسة بين هام و همى ، و سار وسرى ،هنالك :

- تعادل بين الشطرين أوما يسميه عياض "حسن التفسير وغرابة التقسيم ".
- تقابل مادي بين سار و سرى،و معنوي بين هام و همى

ج) ما يتصل بتداعي الدلالة : ويتمثل في المجاورة بين التجنيس كقوله

أنت ملاذي يا مرادي وسيدي فسامح مسيئا قد جنى الجد والهزلا

أو في السببية ، كقوله :

هذا الذي كسرت كسرى مهابته حتى تبين في ايوانه الميل

و قوله :

محمد و صحيباه الذين بهم طبنا و غبنا عن الخسران والندم

أو الأجلية

أتى لأم القرى يرجو القرى كرما من سادة هم بحار الفضل و الكرم

و يستعمل الشاعر المحسنات بكثافة ، فبالإضافة إلى المجانسة أو التكرار نجده يستغل إمكانيات التقطيع الذي يفضي إلى إغناء موسيقى الشعر . و يقوم التقطيع على تكرار الإيقاع بتناسب جمل الشطر الأول مع جمل الشطر الثاني ، ويسميه عياض "المناسبة وحسن نظم الكلام واطراده "(14) كما يسميه آخرون " بالتعادل ". و من الأمثلة عليه قول عياض :

هذا المحصب / هذا الخيف خيف منى هذي منازلهم / هذي هي الدار

هذي قباب قبا / آثار وطئهم الجزع / فابك ذا هو الغار

و يتضمن هذا التكرار في الإيقاع معنى التدرج من البيت الثالث إلى التاسع (من النص الأول). وتحول من نَسَق رباعي في البيت الثالث إلى نسق ثلاثي في البيت الرابع ،فنسق مفرد في باقي الأبيات .و بالإضافة إلى تدعيم موسيقى الابيات ، لهذا التقطيع المتكرر دلالة نفسية :تشوق الشاعر إلى المقام النبوي وتعجله الوصول اليه . و عند توهم الوصول يأخذ في ترديد اسم الرسول بصيغ مختلفة : النبي ، الحبيب ، الرسول ، الشريف ، الشفيع ، و في الديار المقدسة يتم ترديد عبارات معروفة والقيام بحركات محددة .و يقع التقطيع في سياقات متنوعة، منها : الإستغاثة كقوله

فاشفع / فإني / بك / مستشفع / وانصر / فإني / بك / مستنصر /

وارحم / فإني / بك / مسترحم / و اجبر / فإني / بك / مستجبر /

في هذا المثال تناسق رباعي متساوي الأطراف يحمل دلالات نفسية تبدو في طلب الشفاعة والنصر والرحمة والعون . . . وجاءت حروف البيتين في غالبها مهموسة (الفاء ، السين، الشين ، الحاء ، الصاد ، التاء ، الكاف .....) إذ غالبا ما تتخذ هذه الدعوات أسلوب الهمس والمناجاة، و تتجنب الجهر. ومنها قوله ،

إليك مددت الكف / أستمطر الفضلا/ وأستكشف البلوى /وأستعطف الطولا/

تكرار شكلي في الإيقاع القصد منه ترسيخ المعنى في الذهن، وإفادة الإلحاح في طلب العون والفضل . وفي البيت لزوم ما لا يلزم كما ورد في بغية الرائد(15) .وهو تكرار السين و الطاء في الشطرين معا

(14) بغية الرائد 190 .

(15) بغية الرائد 198 .

و منها تساوي المعنى في قوله ،

وهذه /الروضـــة /الغـــراء طاهرة / هذه / القـبـة /الخضـراء كالعلـم /

و منها ما يفيد التناظر والتناسب ، كقوله :

بـدر دجـى / أصـحـابه / أنجـــم / بحـــر نـدى / أنمله / أبحـــر /

فالعبارتان الأخيرتان من كل شطر تتممان دلالة العبارتين السابقتين عليهما ، ويتم التناظر بين الشطرين في تناسب واضح ، مع ازدواجية في الجناس بدر – بحر / ندى – دجى / أنمل – أنجم / بحـر – أبحـر . وترديد نفس الحـروف عـدة مـرات البـاء (أربع مـرات) ، الدال (ثلاث مرات) ،الهمزة (اربع مرات) ، الجيم (ثلاث مرات). ومنها قوله :

وأي /فـهم/فـيـه /لا /ينجلـــي / وأي /كـسـر / فـيـه / لا / يجـبـر /

فترصيف الألفاظ يعطي إيقاعا موسيقيا متوازيا مع اختلاف الدلالة .

ويسير التكرار عند عياض في خطين رئيسيين يتمثل الأول في تعميق الدلالة رأسيا وذلك عندما يقع تغيير في الوظيفة داخل تركيب البيت ، ويتمثل الثاني في تعميق الدلالة أفقيا عندما لايقع هذا التغيير فينسحب المعنى من اللفظة الى الأخرى . وهذا الخط الأخير هو الأكثر استعمالا من طرف الشاعر ولكل خط دلالته الخاصة :

- **الخط الأول ، تعميق الدلالة رأسيا** ، كقوله في إفادة التعليل:

ان لم تعـاين ثراه العين يا أسفـــي أو لـــم تـــزره فـــان الشـــوق زوار

وكقوله في إفادة التخصيص :

قد عـجزت عن طبـه قـدرتـــــي رفـــــعت شكواي لمـن يقـــدر

- **الخط الثاني ، تعميق الدلالة أفقيا** ، كقوله في الدلالة على الزمن

هذا الحـبـيب الذي أسـرى لخـالقـه ليـلا وقـد ضـربت بالليل أسـتـار

وفي إفادة التحذير :

إن لم تـداركـني بلطف فـــيــــا خـسـري و يا خـيـبـة من يخـسـر

و الإستفهام :

فلي ذنوب أثقلت كـاهلـــــــي إن لـم تـكـن تغـفـر من يغـفـر؟

و في إتمام المعنى وإفادة التفسير :

والحال يغني عن الشكوى إليك وقـد عـرفت حالي و إن لـم أحـكـه بـفـم

و هذا التكرار بنمطيه يؤدي الى تعميق المعنى وتوضيحـه . وتقويـة العلاقة المعنوية التي تجمع بين الوحدات المعجمية ، فضلا عن تأثيره في موسيقى البيت و في الحالتين معا يسهم إسهاما واضحا في شعرية الاداء .

- **تجـانس الحـروف :**

لايقل تجانس الحروف أهمية عن تجانس الألفاظ في إغناء موسيقى القصيدة و عن طريق الأول يتم الثاني في أغلب الأحيان . ويمكن تمييز نوعين من تجانس الحروف :

-تجانس صوتي ، عندما يكون الحرف فونيما أصليا من بنية الكلمة

- تجانس صرفي ، عندما يكون وحدة صرفية ملحقة بها .وإذا وقع الجناس في أول الكلمة أو وسطها يسمى تجانسا استهلاليا ، أما عندما يقع في آخرها فيسمى تجانسا خلفيا (16) .

والملاحظ أن التركيز كان على بعض الحروف دون غيرها مثل الألف واللام والراء والياء والهاء والحاء والخاء . . . فهل هذا محض مصادفة أو له مايبرره .فمن الأمثلة على ذلك :

ثلاث بثـلاث في الورى عـــرفـــو بالعفو والفـــضل والوفـــا للذمم

- تجانس استهلالي صوتي في اللام / وتجانس استهلالي صرفي في " ال " / تجانس استهلالي صوتي / صرفي في " الفاء" . لذلك جاءت حروف البيت متجانسة متآلفة ، لتقارب مخارجها وترددها .

---

(16) علم اللغة و دراسة الأسلوب . الدكتورة فاطمة محجوب ، مجلة الثقافة المصرية السنة 3 ، عدد 36 ، مايو 1976 ص 9 – 21 .

وقـــــال كذلك :

هذا ابن غـــالب المغلوب حـــاســـده و الواهب الســالب الآسـاد مـا حـملوا

تجانس استهلالي صوتي في "اللام و السين "، و صرفي في " ال "

هــذا ابــن لــؤي كم لواء عـــــــلا أعــلا بما يقـتـضـيـه البـيض والأسل

تجانس استهلالي صوتي وصرفي، وخلفي صوتي في تكرار اللام

لجأت إلى باب الكريم لفاقتـــــــي فليس لنا مــــغن ســـواه ولامــــولى

تجانس استهلالي صوتي وصرفي في حرف " اللام " كذلك .

و قد لاحظنا أن اللام أكثر ترددا من غيرها من الحروف . و عند بعض الباحثين (17) أن في تكرار اللام دلالة على التراخي والاستسلام ، فقد وجدناها تتردد بشكل يلفت النظر في خطبة عَلِي الشهيرة في الجهاد (لا رأي لمن لا يطاع) لشعوره بخيبة الامل والعجز عن تحقيق الانتصار . هذا التراخي والاستسلام الذي يصبح شرطا أساسيا في شعر التوسل ، إذ من طبيعة المتوسل أن يبدي ذلك ويتضرع ويظهر ندمه على ما بدر منه رجاء شفاعة الرسول المتوسل به ، وغفران الخالق . وكانت الكلمات المستعملة مواكبة لهذا الغرض ودالة عليه: عفو، لجوء، فـاقة، مولى...

وركز تجانسات حرفية أخرى على الياء ، مثل :

يا سيدي يا رسـول الله خـذ بيـــــدي فالعبد ضيـف وضيـف اللـه لم يضـم

كئيبـا غريـبا بافتقـــار وضيعــــــــة دليلا حقيـرا أهمـل الفـرض و النفـل

يـــــارب يـــا اللـــه يـــا سيــــــدي ويـــــا عليـــم الغيـــب مستتــــــــر

ففي هذه الأبيات تجانسات استهلالية صوتية و صرفية .و يمكن أن يفسر هذا التكثيف في الاستعمال

أ) بتكرار "يا" لمناداة المتوسّل به ، والاستغاثة به .

---

(17) عفيف دمشقية: الابلاغية فرع من الألسنية ، الفكر العربي، عدد 9/8 خاص بالالسنية 210 - 203

ب) في إفادة التضاؤل لورودها في الغالب بعد تمديد الكسر مثل كئيبا ،غريبا ، ذليلا، حقيرا ...وهذا التضاؤل يناسب ما أشرنا اليه من تكرار اللام للتراخي والاستسلام .

وقال كذالك :

- يـا رحمـة الله ويـــا شافعـــا والناس في حشرهـــم حيـــــــر

- إن لـم تـداركنـي بـلطـف فيـــا خسري ويـــا خيبـة مـــن يخسـر

- هذا الذي هتفت من قبل مـولـده بـه الهـواتـف واشتاقـت لـه المقـل

ففي الأبيات تجانس استهلالي صوتي في تكرار " الحاء والخاء " . واستهلالي صوتي / وخلفي صرفي في استعمال " الهاء " . والحاء من الحروف التي تفيد الألم والتلذذ معا ، ففي ترديد الرحمة ارتياح وتردد ، وفي ذكر الحشر والحيرة ألم وتحسر . أما الخاء فتأتي للتعبير عن الرخاوة وإبراز العيوب النفسية وقد أفادت ذلك في عبارات خسري ، خيبة . وتفيد الهاء الاهتزاز والنشاز والرداءة، فصوت الهاتف الآتي من بعيد ،والذي يتردد صداه في الأركان يؤدي معاني الاهتزاز المشاراليه (17 م) .

وعموما فإن التجانس الحرفي قد حقق هدفين :

- صوتي، بما أتاحه من تآلف الحروف و تقارب مخارجها وتكرارها .

- دلالي ، بما أفاد تكرار نفس الحرف في البيت أو الأبيات من معان ودلالات تؤدي كلها الى إبراز الحالة النفسية التي كان عليها الشاعر من شعور بالذنب وتضاؤل واحتقار للنفس واستسلام . فكان ينشد الخلاص من كل ذلك في التوسل بالرسول وطلب شفاعته وكسب عفو الخالق الباري وغفرانه

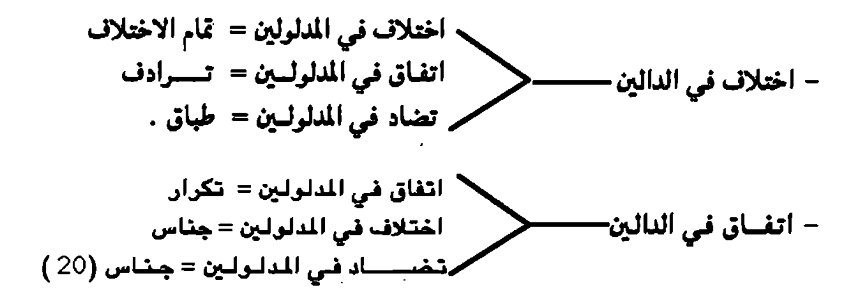
- التقـــــابـــل :

للتقابل دور بارز في الابداع الشعري لايقل أهمية عن دور المجانســة والتكـرار، وذلك بما

(17م) انظر في معاني بعض الحروف والألفاظ ودلالاتها : الخصائص 136/2 الى 149 ، وجرس الالفاظ لماهر مهدي هلال 296 – 301 .

يتيحه من تناقض في التركيب، وتوتر وأخذ ورد يشد اليه المتلقي و ينقله بين طرفيه ذهابا و جيئة ، فيؤدي في آخر الأمر الى نوع من التناسب . وتتمثل في التقابل أو الطباق أو المطابقة عناصر الإيقاع المعنوي ، لذا جعلها قدامة بن جعفر من نعوت المعاني (18) ، واطلق عليها عياض نفسه (التطبيق والتضاد والتكافؤ)(19). وهذه التسميات الأخيرة تؤكد وجود مفهوم التناسب بين المتقابلين .

وتتضح العلاقة بين الجناس و التكرار و الطباق في ضوء علاقة الدال بالمدلول من خلال الترسيمة التالية :



وللتقابل أثر في الدلالة إذ أن مجرد ذكر معنى من المعاني يدعو إلى تذكر نقيض هذا المعنى و استحضاره في الذهن ونوع عياض في مواقع التقابلات الواردة في شعره :

- فوزعها على الشطرين ، و هذا هو الشكل الغالب لديه ، ساير به نمط القصيدة العربية التي يكون فيها البيت المفرد كيانا قائمابذاته يحكم إغلاقه بواسطة القافية .

- وصنفها في حالات قليلة في آخر الشطرين، فأتاح بذلك للايقاع ان يتكثف ويتسق.ويمكن التمييزفي هذا الصدد بين نوعين من التقابل :

---

(18) نقد الشعر 141 .

(19) بغية الرائد 195 – 196

(20) انظر التسيمة بتفصيل في خصائص الأسلوب في الشوقيات ، محمد الهادي الطرابلسي ، منشورات الجامعية التونسية . 1981 ، ص 73 – 74

- الأول : تتيحه اللغة للشاعر ولا يكون له فيه إلا دور الموزع المنسق.

- الثاني : يكون له فيه دور الواضع المنظم إذ أنه يخلقه عن طريق إثبات مقابل للكلمة في السياق . ويمكن اعتبار الأول تقابلا معجميا والثاني تقابلا سياقيا . وفي الحالتين قد يكون بسيطا أو مركبا سلبيا أو موجبا . إلا أن الشاعر قل ما يعتمد المركب و السلبي . ونمثل لهذا كله بما يلي .

- **التقابلات المعجمية** : يمكن تصنيفها في عدة محاور دلالية الغاية منها إبراز تناقض ما لتعميق الدلالة المعبر عنها : تقصير ، ذنب ، إهمال . حزن . . . من جهة وتكثيف الإيقاع الصوتي بترديد الكلمة ونقيضها من جهة أخرى ، قال :

واعطف على العبد المسيء الذي أتى لإحسانك يستمطر

مقابلة معجمية بسيطة تدور حول محور الخير / الشر ، عبر فيها عن حالة الإساءة الصادرة عن الإنسان والإحسان المقابل لها والذي يلقاه المذنب التائب.وقال،

بجاه رسول الله فارحم تضرعي ونفس همومي كلها الفرع و الاصلا

فأتى بتقابل معجمي بسيط يدورحول محورالجزء/الكل ،ويفيد عمق مأساة الشاعروشعوره بجسامة الذنب وثقل الهم.وشبيه به قوله :

كئيبا غريبا بافتقار وضيعة ذليلا حقيرا أهمل الفرض والنفل

وفي هذا البيت تجانس استهلالي صوتي تجلى في تكرار الياء ، وقد بيننا أن الياء المكسورة الممدودة تفيد التضاؤل (20م) ، وجاء التقابل المعجمي لتأكيد ذلك وتعميقه ، وقال ،

يا أشرف الانبياء يا من شفاعته عمت على الخلق في الوجدان والعدم

في البيت تقابل معجمي بسيط مركز في الشطر الثاني يفيد العموم ،

ثم الصلاة على المختار من مضر خير البرية من عرب ومن عجم

(20م) في الدراسات النفسانية اللغوية تدل الكسرة على الصغر ، تحليل الخطاب الشعري ص 176. ط . بيروت 1985 .

تقابل معجمي مركز في الشطر الثاني ، ويفيد تقابل الأجناس للدلالة على فضل الرسول على كافة الأجناس ، ويبين فضل الرسول على الخلق كلهم في قوله ،

هذا الذي جـاءت التـوراة شـاهدة بأنه خـيـر من يحـفى وينتـعل
يا أكـرم الخلق من حـاف ومنتـعل يا أفـضل الناس في ذات وفي شـيم

مستعملا تقابلا معجميا يفيد العموم ، ونوع مركزه بين الشطرين الأول و الثاني . ومن أمثلة التقابل المعجمي المركب قوله ،

- دعوتك مضطرا فعجل إجابتـي بتفـريج كـرب طـالما وصـل الهـولا
- هذا ابن اياس ساقي القوم إن عطشوا والمشـبع الوفـد والمعطون قـد بخلوا

فقابل بين دعوة وإجابة ، وفرح ،كرب ، والسقي والعطش ، والعطاء والبخل . وفي ذلك تكثيف للإيقاع المعنوي في البيتين ، يدور الأول حول محور تقابل العواطف وفي سياق اليأس/ الأمل .يدورالثاني حول محورالخير/الشر، وفي سياق الكرم/ البخل .

-التقابلات السياقية، يجري الشاعر صورا تقابلية عن طريق خلق علاقات تجاورية من التركيب وقد تكون إيجابية كقوله :

- فكن شفيعـي لما قدمـت من زلـل ومـن خطـاي فإن الـرب غفـار
- كل مقام قد سمـا قـدره في هـذه الحضـرة مستصغـر
- بدر دجى أصحابـه أنجـم بحـر نـدى أنملـه أبحـر

وهي تقابلات بسيطة خلقها الشاعرمن سياق الكلام ، فقابل الغفران بالزلل معبرا عن محور الخير / الشر . وسمو القدر بصغره في محور العظمة / الحقارة . والنجم والبحر معبرا عن محور تقابل الجهات (الاعلى / الاسفل) .

وورد بعضها في صيغ مركبة ، كقوله :

هـذا ابن غـالب المغلوب حـاسـده والواهب السـالب الآسـاد مـاحملوا

فأفاد معنيين متقابلين : الانتصار / الهزيمة ، و العطاء / السلب في وصف أجداد الرسول و خصالهم ومزاياهم .

بتكثيفه للتقابلات وتنويعها يضفي عياض على شعره طابعا تنغيميا ، ويحدث علاقات خاصة بين الدال والمدلول من جهة ، وبين المدلولات بعضها ببعض من جهة أخرى ، من شأنها أن تخلق تحاورا إيجابيا .

وإذا كانت هذه التقابلات متميزة باتجاهها إلى الأخبار والغاية الافهامية التقريرية فإن بعضها لم يخل من إيحاء قصد أداء غاية تأثيرية خاصة عندما يتعلق الأمر بذكر فضائل الرسول .

- المستوى التركيبي :

لم يغفل القدماء دور العلائق النحوية في المعنى وفي جمالية النص وانما تحدثوا عن الجملة وأنواعها ، والتقديم والتأخير ، والتعريف والتنكير ، والفصل والوصل ، واثر ذلك كله في دلالات النص و فنية أدائه . واستمر هذا الإهتمام في النقد الحديث ، فتحدث جاكبسون عن الوظائف التي تؤديها البنية النحوية في الأثر الشعري فركزها في نقطتين :

- في المواقع النحوية المتعادلة أو المتقابلة التي تؤدي و ظيفة جمالية لأنها تنظم غير المنظم من الألفاظ المعجمية .

- وفي إسهام التركيب النحوي في المعنى وفي تكوين الصورة (21)

وبحثا عن هذه الظواهر في شعر عياض ، نلاحظ باديء الأمر تردد بعض الالفاظ بشكل مكثف ، وتكرار تركيب نحوي معين على نفس الوتيرة .

وقد حللنا فيما سبق الدلالة الإيقاعية والصوتية لذلك . ومن هذه الألفاظ تكرار " يـا " والمنادى ، واسم الاشارة " هذا " ومعه أحيانا " الذي "... فمن ناحية البناء يؤدي التكرار الى تطعيم

---

(21) - R JACKOBSON : HUIT QUESTIONS DE POETIQUE . P 220 PARIS POINT . 1977

- L . LOTMAN : LA STRUCTURE DU TEXTE ARTISTIQUE . P 233 - 243 PARIS GALLIMARD 1973 .

فقرة التركيب عند محمد مفتاح ، في سيمياء الشعر القديم 45 – 47 .

نفس النص وتطويله بالتالي ، ومن ناحية المعنى يلبي حاجة الشاعر الى ترديد ذنبه والتلفظ به من جهة، ومناداة الخالق، والتوسل بالرسول من جهة أخرى ، والرغبة في زيارة المقام النبوي وإيهام الشاعر نفسه بالوصول وتحقيق المراد بترديد " هذا " وتعداد الأماكن المقدسة والشعائر الدينية وخصال النبي ، والإنبهار أمامها .

ويؤدي عندئذ نفس ما يؤديه الذكر والورد من غرض تطهيري ونفسي . إلا أنه من الناحية التركيبية يصيب الخطاب الشعري بنوع من الرتابة والسردية فتصير الجمل متشابهة تنزع الى التقرير والتعبير المباشر والإخبار أكثر مما تعبر عن تجربة خاصة بواسطة الإيحاء والتضمين و الصور الشعرية .

ولعل ضرر هذه الظاهرة قد أصاب " النص الرابع " أكثر من غيره ، حيث لم يخل أي بيت من أبياته من اسم الإشارة " هذا " ، و تضمنت أبيات كثيرة إسم الموصول " الذي "، وصيغة النداء زيادة على ذلك . فلم تخرج الأبيات المستهلة بالإشارة عن هذا التركيب :

الشطر الأول	الشطر الثاني
اسم الإشارة +مركب اسمي +مركب فعلي	مركب اسمي +مركب فعلي
اسم الإشارة +مركب فعلي +مركب اسمي	مركب اسمي + مركب إسمي

وفي حالات قليلة ، نجد ما يلي :

إسم الإشارة + مركبات إسمية مركبات إسمية . . .

ولابد أن يرد فيها إسم الفاعل أو إسم المفعول للقيام بعمل الفعل ، لذلك وجدنا في النص الرابع وحده : أسماء الفاعلين (أربعة وعشرين) ، وأسماء المفعولين(سبعة) . وهذا البناء نجده خاصة في الغرض الدلالي المركزي الموضوعي، الذي يتناول فيه الشاعر السيرة النبوية ويسوق معارف أكثر مما يعبر عن تجربة . وزاد في تعميق هذا الإتجاه السردي التقريري :

أ) عدم الموازنة بين المركبات الإسمية والفعلية وتغليب الأخيرة على الأولى مع الإعتماد على صيغة الماضي في الغالب . فالأبيات ذات الجمل الفعلية في النص الرابع مثلا (خمسة وأربعون) مقابل (أربعة أبيات) ذات جمل اسمية وأفعالها ماضية ، وحتى الأفعال المضارعة القليلة الواردة

في النص تكون معطوفة على الأولى فتصبح لها دلالة الماضي . وقد يتم ذلك بأسلوب آخر غير العطف .

2) اعتماد ضمائر الغياب مفردة وجمعا ، فغابت شخصية الشاعر ووظيفة الشعر التأثيرية وصرنا أمام نظم يحكي السيرة النبوية بأسلوب سردي ، غايته حفظ معلومات عن سيرة الرسول ونسبه ومولده وأجداده وفضله أكثر من أي شيء آخر وتم التخفيف من حدة ذلك بوسائل ، أهمها :

أ) إصطياد الجناس بأنواعه،والتقابل : واعتماد التصدير،والتقطيع وغيرذلك مما سبقت الإشارة إليه في دراسة المستوى الصوتي .

ب) تنويع الأزمنة : سلك في ذلك عدة أساليب :

- باستعمال الأمرفي الوحدتين التمهيدية والختامية على الخصوص ،

- قف بالركاب فهذا الربع والدار . . . .

. . . . فانزل فقد نلت ماتهوى وتختار

وهذا التكثيف في استعمال الأفعال في الشطر الأخير من باب تنويع صيغ الماضي .

- . . . . وذا هو الجزع فابك ذا هو الغار

- فاعطف على العبد المسيء الذي . . . .

- بادر وسلم على أنوار روضته قبل الممات فلا تشغلك أعذار

هذه الأوامر والطلبات تجعله يكسر سياق الزمن الماضي الطاغي على النصوص .

وقد يلجأ الى تكثيف هذا الإستعمال بترصيف الأفعال الواحد الى جانب الآخر :

فطب وغب عن هموم كنت تعرفها وسل تنل كل ما ترجوه من كرم

وفيهما تعادل نحوي في إيراد : فعلين + مركب فعلي ، في كل شطر . وتعادل لفظي في ختم فعلي الشطر الأول بالباء ، وفعلي الشطر الثاني باللام .

وقال كذالك :

فاشفع لعبدك واجبر قلبه فلكم أودى به الكسر مما نال في جرم

فجمع في بيت واحد ما فَصَّله في بيتين من نص آخر :

فاشفـــع فـــإني بـك مـــستشفـــــع . . . .

. . . . و اجبـر فـــإني بـــك مـــستجبـــــر

- إلغاء الزمان ، إما باستعمال أسماء الفاعلين التي تدل على الحدث منفصلا عن الزمان الماضي ، الشاهد ، الغالب ، الحاسد ، الوافي ، والتي ينزع فيها الشاعر الى الإطلاق ، لتدل على كل زمان .أو باعتماد التركيب الشرطي الظرفي الذي يؤدي نفس المعنى إذ يختص بلا زمنيته فالفصل في هذا التركيب لامرجع له على خط الزمن ، ولعل هذا هو السبب الذي جعل الشعراء يلجؤون الى التراكيب الشرطية للتعبير عن الحكمة التي تتجاوز زمانها لتصلح لكافة الأزمان .ومن التراكيب الشرطية عند عياض :

- إن لـــم تـــداركنـــي بلطـف فيـــا خسـري ويـاخيـبـة مـن يخسـر

- فــإن قــبلت فــإني فــرح بكـــم في زورتـــي و اغترابـــي وافر القسـم

ويبقي الشاعر نجاته من الخسران والخيبة ، وفرحه بالزيارة معلقة على تدارك الخالق وعفوه وقبوله لتوبته وندمه وبذلك يتجاوزالزمان، ويكسر سطوة الماضي السائد في النصوص .

- تنويع الضمائر : غلب الشاعر استعمال ضمائر الغياب في نصوصه ، وعند أصحاب نظرية الضمائر ، إن هذا النوع يكثر استعماله عندما يسرد الشاعر حكما أو مقدمات ونتائج ليستفيد منها المتلقي فيتعظ . ولعل الإتجاه الوعظي في هذه النصوص كلها بارز .

وقليلا ما كان يميل الى تنويع الضمائر مابين المتكلم والمخاطب ، كقوله ،

قف بالركـاب فـهـذا الـربع و الـــدار لاحـت علينـا مـن الأحبـاب أنـــــوار

بشـراك بشـراك قد لاحت قبابهـــم فـانزل فـقـد نلت مـا تهـوى وتختـار. . .

وذلك في مقدمة القصيدة، ثم لا يلبث أن يعود إلى ضمير الغياب ومن ذلك أيضا قوله :

فــاســتـبـشــري يا مــقلتي باللقــا فـــمن رأى الاحـــبـــاب يشــتـبــشــر

ذخيرتـــي حبك يـا مصطفـــــى فإنـــه أفضـل مـــا يـــذخـر . . .
قد عجزت عن طبـه قـدرتـــــي .رفعـــت شكـواي لمـن يـــــقـدر
فلـــي ذنـوب أثقلـت كاهلـــــي إن لـم تكـــن تـغفر مـن يـــغفـر ؟

ويلجأ أحيانا إلى تنويع الضمائر في آخر القصيدة بعد سلسلة من ضمائر الغياب ، كما في قوله في النص الأول .

فكن شـفـيـعي لما قـدمت من زلـــل ومن خطاي فـــإن الرب غـــفـــار

ويكاد يخرج النص الثالث عن القاعدة في كل شيء .

- فقد غلّب فيه ضمائر المخاطب و المتكلم على غير عادته في باقي القصائد

- وتوسل فيه بالاله ، في حين كان يوجه الخطاب للرسول في النصوص الأخرى ويطلب شفاعته .

- وفي النص انفعال واضح وتأثر باد لاعلاقة له بالأسلوب السردي الذي يطبع قصائده الأخرى،فهل يرجع ذلك إلى الحالة النفسية التى كان عليها الشاعر،أو إلى ظرف خاص أنتج فيه النص؟ قال في أولها :

إليك مددت الكف أستمطـر الفضـلا وأستكشف البلوى وأستعطـف الطـولا
دعوتـــك مضطـرا فعجل إجابتـــــي بتـفـريـــج كـرب طالمـا وصـل الهــولا

وسار فيها إلى الأخير على نفس النهج من حيث الأسلوب، واستعمال الضمائر ويبدو أن للنص فعلا مناسبة خاصة ، وهي الأزمة التي مر بها الشاعر في بداية حكم الموحدين والموقف الذي أخذه منهم .

وفي المجد التالد والطارف (22) أن عياضا كان عازما على الرحلة بقصد الحج فصدته الدعوة الموحدية وشغلته عن ذلك . فموقفه العدائي لمذهب هذه الدولة المواجه للـــمذهب المالكي الـذي

(22) المجد التالد و الطارف 401 ، م . خ .ع . رقم 588 ك .

يعد عياض أحد أعلامه الكبار من جهة، والإحالة بينه وبين تحقيق رغبة طالما أمل تحقيقها ، وهي زيارة المقام المقدس من جهة ثانية جعلته ينظم هذه القصيدة بتأثر وانفعال زائدين ، ويحمل فيها على الموحدين بشكل واضح في مثل قوله :

إله ، لك الشكوى بقوم تسربلوا رداء من البلوى أذاعوا به الويلا

بل ويدعو عليهم بقوله :

فأنزل عليهم من علاك صواعقا تصير مدى الأعمار أخبارها تتلى

د) التعادل النحوي : أهم ما يميزه هو تنظيم غير المنظم من الألفاظ المعجمية مؤديا بذلك وظيفة جمالية تكسر الصيغة السردية لأسلوب النص.وقد سبق أن تحدثنا عن التقطيع والمناسبة والمجانسة وغير ذلك من الأساليب المستعملة لنفس الغرض. ومن أمثلته :

وأي / فهم / فيه / لا / ينجلي / وأي / كسر / فيه /لا / يجبر /

فهذا التعادل يوحي بوجود تعادل معنوي ، وراعى الشاعر التطابق التام فالإنجلاء يكون للفهم ، والجبر للكسر . ونوع بين جانبي المادة و الروح (الأفهام و الأجسام) عندما سعى إلى إصلاحها . و شبيه به قوله

فاشفع / فإني / بك / مستشفع وانصر / فإني / بك / مستنصر

وارحم / فإني / بك / مسترحم واجبر / فإني / بك / مستجبر

فعل أمر مركب + مركب إسمي فعل أمر + مركب إسمي

ويبدو أن التعادل يبرز أكثر عندما يتبين أنه يحيل إلى نصوص قرآنية ويقيس عليها كقوله تعالى (استغفروا ربكم) وقوله (أمّن يجيب دعوة المضطر إذا دعاه) (23) .فيقيس عليها مبرزا أنه يستشفع ويستنصر ويسترحم ويستجبر ، ويطلب التنفيذ ما دام مضطرا لذلك بفعل اثقال الذنوب ، اعتمادا على الآية السابقة الذكر، فيستعمل أفعال الأمر:اشفع ، ارحم ، انصر . . .

---

(23) أيات الإستغفار كثيرة منها : سورة هود آية 3، و سورة نوح آية 10 ، وسورة المزمل آية 20، و النمل آية 62 .

هـ) الحوار : يساعد الحوار على تنويع الأسلوب بما يتضمنه من سؤال وجواب وأخذ ورد يخفف من وطأة السرد والتقرير .

والحوار عند عياض له طبيعة خاصة ، يتقمص فيه دور السائل والمجيب ، فيحدث تجاوبا بينه وبين المخاطب ، مبرزا حال كل واحد منهما :

فانت قلت استغفـــروا ربكـــــم وإننـــي جئتـــك مستغفـــر (كـــذا)

أنا فقيـر الـى عفـو ومغفـــــرة وأنـت أهـــل الرضـى يـــا سيـد الأمم

فقد أتيـتك أرجو مـنك مكرمــــة وأنـــت أدرى بمـــا في القلـب من ألـــم

وعن طريقه يبدي الشاعر عجزه وتوسله، وطلب الرضى والمغفرة، وبالتالي غايته من الشعر. والخطاب في البيت الأول موجه إلى الخالق ، ويسوق الشاعر فيه حجة في طلب المغفرة :

- الخالق ، قال استغفروا ربكم .

- الشاعر ، امتثل ، و جاء مستغفرا .

- النتيجة ، الإيجاب ----> الغفران . ما دام الخالق قد اشترط فيه الإستغفار . أما البيتان الاخيران فموجهان إلى الرسول ويبرزان حالة الطرفين :

الشاعـــــر	الرســـــول
- فقير إلى العفــــو	- أهـــل للـــرضـــى
- فقير إلى المغفــــرة	- سيـــد الأمـــــم
- يرجـو المكرمــــة	- أدرى بـــــالحـــال

فهذا التقابل يوحي بتضاؤل الشاعر وتوسله ، وبقابلية المتوسل به الاستجابة

ويمكن الإشارة في الختام الى استعماله لوسائل أخرى لنفس الغاية كأسلوب النداء ، وأسلوب التمني ، والإكثار من الروابط وخاصة الواو ، والفاء عندما يتجه إلى التوسل

يتضمن المستوى التركيبي في التحليل ، دراسة :

- التركيب النحوي (فرغنا من الحديث عنه) .

- التركيب البلاغي ، تتم فيه دراسة الأسلوب من حيث التعبير المباشر، أو بواسطة الصور الشعرية من مجاز وتشبيه واستعارة . . . ودلالة ذلك وتأثيره في المعنى .

فقد دأب الأسلوبيون على تفضيل الاستعمال المجازي على الحقيقي ، لما فيه من تحطيم للحواجز بين الموجودات واعتماد الإيحاء ، فتكثيف الإيحاء وتقليص التصريع من الفوارق بين الخطابين الشعري والعادي ، أو بين مايسمى بالاستعمال الفني والنفعي للظا هرة اللغوية لقد سبق أن أشرنا إلى الأسلوب السردي التقريري الذي يطبع شعر عياض لذلك فمن البديهي القول بأنه كان يغلب طاقة الاخبار على طاقة التضمين ، فالصور الشعرية لديه قليلة (لا تتعدى الثمانية) على وجه العموم،مما جاء منها في النص الأول ، قوله :

هذا الشريف الذي سادت به مضر هذاالذي تربه كالمسك معطار

يا أهل طيبة لي في ربعكم قمر بر عطوف لفعل الخير أمار

فشبه في البيت الأول تربة مدينة الرسول بالمسك المعطار . وهو تشبيه لا جاذبية فيه ، ولا تأثير له لكثرة تداوله ، بل إن الفجوة بين الشطرين تزيده رتابة وقلقا ، فقد أنهى الفكرة في الشطر الأول ، وبدأ أخرى في الثاني فجعل الشطر لا البيت أساس الوحدة .وساهم في هذه الرتابة تكرار اللفظتين " هذا " و" الذي".

أما البيت الثاني فيشبه في شطره الأول الرسول بالقمر، إلا أنه لم يستغل الشطر الثاني لإتمام الصورة وبلورتها. فإذا كانت عبارة " بر عطوف " مقبولة إذ أنها توحي بعطف القمر وحذبه على الساهرين المتحابين خاصة ، و أنه استعمل كلمات تساير هذا الفهم مثل " أهل " و " الربع " ، إلا أن جملة " لفعل الخير أمار " لا تسير في خط التشبيه و الإيحاء ، و إنما يعود بها الى الأخبار والتصريح بصفة من صفات الرسول / الإنسان ، لا الرسول / القمر . فيحدث القلق و عدم الإنسجام الذي أحدثه في البيت الأول . وشبيه بهذا قوله :

وهذه الروضة الغراء طاهرة وهذه القبة الخضراء كالعلم

ففيه تشبيه للقبة النبوية بالعَلَم في لونها الأخضر . وفي البيت مايسميه عياض

في بغية الرائد (24) بالإيغال . وهو أن يتم كلام الشاعر قبل البيت ، (أو الناثر قبل السجع ، أو قبل الفصل والقطع) فيأتي بكلمة لتمام القافية : وقد تم الكلام في قوله " هذه الروضة الغراء "هذه القبة الخضراء ". فأضاف العبارتين مع ذلك ،

كلام تـــام	إيغــــال
وهذه الروضة الغراء	طاهـــــــرة
و هذه القبة الخضراء	كالعـــــــلم

وقال عياض كذلك :

أتى لأم القـرى يرجـو القِرى كـرمـا   من سـادة هم بحـار الفـضل و الكرم

فبالرغم من أن تشبيه الكريم بالبحر صورة مألوفة و متداولة ، فإن المجهود المبذول في الصياغة حسنها وأضفى عليها مسحة جمالية . فهنالك الجناس بين أم القرى والقِرى والتصدير بترديد " الكرم "في الشطرين . فـأم القُرى (بالضم) هي أم القِرى (بالكسـر) أي منبع الكرم والجـود . وطبيعي أن يجد فيها السائل ما يبتغيه . ولعل المسكوت عنه والغائب وراء كلمات : أم القرى ، والقرى ،والسادة ،والكرم ، يلخص تاريخ أمة بكاملها بتقاليدها، وعاداتها ، ويمكن إثارتها على الشكل التالي :

- أم القـــرى – مكة
- أتى القـــرى – وفادات التجار ، وزوار الكعبة .
- ســـــادة – سادات قريش و أهل مكة .
- بحار الفضل والكرم – من اشتهروا به من إكرام الضيف ، وإغاثة الملهوف والجار وهي عادات نماها الإسلام ، وهذبها ، وأزال منها كل مظاهر الرياء والفخر بأن جعلها خالصة لوجه الله .

إن هذه الإيحاءات حسنت التشبيه وجعلته خلاقا لباقي التشبيهات الباردة موحيا مؤثرا، يثير فينا ما سبقت الإشارة اليه .

(24) بغية الرائد 200 .

ومن الصورالشعرية القليلة الواردة في شعره كذلك ، قوله

- و دت نجوم الأفـــق لو أنهــــــــا كـانـــت قنــاديـــل بـــه تزهــــر

- ما كان أهنى مهجتي لو غــــــدت مــــوطـوءة فـــــيــــــه لمن يخطر

ورد البيتان في سياق الحديث عن المقام النبوي . ولإظهار رفعته وعظمته نعت كل مقام - ولو سما قدره - مستصغرا حقيرا بالنظر إليه، والمقارنة معه ، لذلك لم يجد أعلى ولا أحسن من نجوم السماء لإبراز هذه العظمة ، فجعلها (أي النجوم) تتمنى ، أن تكون " مجرد " قناديل مشتعلة فيه

ولهذه الصورة وظيفتان أساسيتان :

- معنوية، تتجلى في التعبير عن عظمة المقام ورفعته.

- نفسية ، تفسر اختيـار الشاعر للنجوم لتكوين الصـورة . فقد جرت العـادة أن تستـعمل للدلالة على الشيء المستحيل الذي لايمكن للإنسـان أن يصل إليـه ، ولا أن يدركـه ، وعلى الشيء اللامع الذي يخطف الأبصار ويجذب اللب ، فشبهوا بها الملوك والعظماء والأحباء الى النفس . . .

وتعتمد عكس الصورة زيـادة في إبــراز عظمة المقـــام الـذي لاتلحقـه النجوم بارتفاعها ونورها عندما جعلها تتمنى أن تكون مجرد قناديل تضيء " جوانبه ، ولو المصدرية هنا تفيد التمني ، ويكون التمني للشيء المستحيل الحدوث ، يؤكد ذلك استعمال فعل " ودت " ، ويحيل إلى آيات من القرآن الكريم تفيد كلها الإستحالة . (يود أحدهم لو يعمر ألف سنة (25) ، (ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم) (26) .

ويشير الشاعر إلى تضاؤل النجوم أفقيـا ورأسيا : بالنزول إلى مستوى قبة المقام ، والتنازل عن ضوئها الثاقب لتصبح مجرد قناديل داخلها ، وتعويض ذلك كله كامن في وجودها في مكان هو أحسن الأمكنة ، ومقام أحسن المقامات .

---

(25) سورة البقرة أية 96

(26) سورة البقرة آية 109 .

وفي البيت الثاني تحول الشاعر من الحديث عن السماء والنجوم ، إلى الأرض . فإذا كانت النجوم تتمنى أن تكون قناديل بالمقام ، فإن الشاعر يتمنى لو صارت نفسه موطئا لمن يخطر في هذا المقام . والصورة الأولى أبلغ و أكثر تأثيرا من الثانية :

- فعناصرها غير منسجمة إذ يخضع المهجة (أو الروح) وهي شيء معنوي ، لفعل مادي وهو الوطء والمشي .

- والصورة في حد ذاتها لا تبرز أهمية المقام وإنما الذي أعطاها هذه الصفة هو ارتباطها بالصورة السابقة ، إذ أن تحقيق أمنية الشاعر لا يفيد هذه العظمة خاصة و أنه يبدي تضاؤله منذ مطلع النص ، ويدعو نفسه الى البكاء عند رؤية المقام .

إلا أن الوظيفة النفسية للصورة هي المقصودة أساسا ، وهي أن شعور عياض بالذنب ، والتماسه للغفران والعفو ، وتشوقه إلى المقام الشريف جعله لايجد مجالا إلى تصفية فؤاده وتطهير نفسه إلا بإفنائها وإذلالها بأن تصبح محل وطء الزائرين وموضع اقدامهم . وهل هناك مكان أنسب للمذنب العاصي في هذا المقام العظيم المقدس من موضع الاقدام ؟

ومن الكنايات القليلة الواردة في شعر عياض :

- صلى عليك الـه العرش ماسجعت ورق، ومـا نفحـت في الروض أزهـار

- الـذي مـن بنـي سعـد رضاعتـه فأصبـح اليمـن فيهـم ليـس يـرتحل

لقد تحدث عياض في باب الكناية و الإشارة عن التتبع والارداف ، وهو للتعبير عن الشيء ببعض توابعه (27)

النص	الاشارة
- مـــاسجعـــت ورق	الدوام والاستمرار
- مانفحت في الروض أزهار	الدوام والاستمرار
- اصـبح اليمـن لايـرتحل	الدوام والاستمرار

(27) بغية الرائـد 204 .

وهكذا يسير التركيبان النحوي والبلاغي في خطين متوازيين : السير وفق تركيب نحوي متشابه يتم الإعتماد فيه على ألفاظ محددة : هذا ، الذي ، يا ، . . . . بترديدها في أغلب الأبيات وتغليب المركبات الفعلية أو أسماء الفاعلين والمفعولين وضمائر الغياب مما أضفى على النصوص طابعا تقريريا . وبالرغم من أنه حاول تكسير ذلك والتخفيف من رتابته باستعمال بعض الأساليب كالتعادل النحوي و تنويع الضمائر والحوار . . . فإنها لم تؤد إلى النتيجة المرجوة خاصة أنه كان يعبر تعبيرا حقيقيا مباشرا في الغالب، وأن الجانب الإيحائي التضميني كان ضعيفا .

٧ ا - المستوى المعجمي :

إن المستوى المعجمي هو الأساس الذي ينبني عليه أي نص ، فلكل علم معجمه ومصطلحاته وكلماته الوظيفية . إلا أن اللفظة الشعرية تختلف عن المعجم العلمي بكونها لا تعبر عن الدلالة ببرودة وتجرد وإنما لا بد أن تتصف بالحيوية والتعبير والتبليغ لأحداث التأثير والإحساس المنشودين في الشعر .لهذا وجدنا المعجم الشعري يتداخل ويستعين بكل ما من شأنه أن يوجد هذا التأثير ، إما عن طريق اختيار الفاظ محددة ، أو الإحالة إلى نصوص وخطابات أخرى ، يكون المخاطب على علم بها فتؤثر فيه بإيحاد وشائج وعلاقات بين الخطاب المراد تبليغه والخطاب المحال عليه . وهو ما يسمى عند القدماء بالإقتباس والتضمين، وعند المحدثين بتداخل النصوص أو التناص.

وقد حصروا أنواع التناص أو التداخل في أربع نقط ، هي :

- تداخل ألفاظ آتية من أزمنة مختلفة .

- تداخل مرده إلى الإدراك المتناقض للمعطيات المعجمية ذات القيمة الإجتماعية الثقافية .

- تداخل حاصل في الفئة مميز للأسلوب المستعمل .وقد يستغل هذا التداخل لإعطاء الرسالة الشعرية أبعادا عاطفية (حزن ، فرح . . .) أو قيمة خلقية أو تداعيات يحبذ وجودها المقام النصي والسياق العام أو يرفضها.(28)

(28) في سيمياء الشعر القديم 43 - 44 .

وإذا نحن رجعنا إلى المعجم المكون لشعر عياض الفيناه مقسما إلى ثلاثة أصناف : يتصل الأول بالمقام النبوي والديار المقدسة / ويتصل الثاني بالرسول / ويتضمن الثالث التوسل بالرسول أو التعبير عما هو كائن ، والتشوف إلى ما يؤمل أن يكون .

1 - مـــعجـــم الأمــــاكن المقدسة :

ركز الشاعر حول مكة باعتبارها محل شعائر الحج ، ومسقط رأس الرسول والمكان الذي نشأ وشب وبعث فيه . والمدينة باعتبارها دار الهجرة ومقر الروضة والمنبر ، ومحل دفنه صلى الله عليه وسلم . ووردت الإشارة إلى أماكن أخرى عرضا لها ارتباط إما بالشعائر مثل منى، أو بحياة الرسول كالغار وقباء...

الكلمة / النص	1	2	3	4	5	مجموع
استار		1				1
ام القرى					1	1
الحجر		1				1
الحرم					1	1
الكعبة		1				1
المشعر		1				1
المقام		1				1
الدار	2					2
الروضة	1	1			1	3
القبة					1	1
المنبر		1			1	2
البقيع					1	1
الخيف	2					2
الغار	1					1
قباء	1					1
منى	1					1
المجموع	8	7			6	21

جدول رقم 4 – معجم الاماكن المقدسة

الكلمة / النص	1	2	3	4	5	مجموع
إبل	1			1		2
ضيف/اضياف				1	2	3
ركب / ركاب	1	1		1	1	4
ربع	2				1	3
زيارة	1				1	2
ساقي				3		3
شوق	1			1		2
عطشوا				1		1
قرى					1	1
مشبع				1		1
نزيل / انزل	1			1	1	3
وفود				1		1
المجموع	7	1		11	7	26

جدول رقم 5 – معجم السفر

ويتبين من الجدول الرابع أن المعجم وارد في القصائد التي يغلب عليها الغرض الدلالي الموضوعي (المدح و السيرة) . ويواكب هذا المعجم الخاص بالإماكن المقدسة معجم السفر والرحلة (الجدول الخامس)وآخر يحمل دلالات دينية (السادس) :أما الأول ، فبالرغم من أن عياضا لم يُكتَب له أن يزور هذه البقاع فإنه تحدث في شعره عن الرحلة إليها ، وعن بعض مقومات السفر ومصطلحاته كالإبل والضيف . . . والزيارة والركب والسقي . . . وهو تنفيس عن الرغبة في الزيارة والتشوق

إليها وأما الثاني فله دلالات دينية مختلفة ، اسلام ، صلاة ، بعثة ، إسراء . . . والمعجمان معاواردان في قصائد المدح دون قصائد التوسل .

الكلمة / النص	1	2	3	4	5	مجموع
إسراء	1					1
إسلام			1			1
حشر		1				1
رسل	1					1
سدرة المنتهى		1				1
سلم			1			1
صل/ صلاة	1	1	1		1	4
طاعة			1			1
فرض			1			1
الكوثر		1				1
مبعث				2	1	2
نفل			1			1
المجموع	3	4	6	2		16

جدول رقم 6 – معجم ديني مواكب

2 - معجم خاص بالرسول :

يتفرع إلى فرعين : يتعلق الأول بنسبه وأصوله والثاني بأسمائه وأوصافه . (الجدولان السابع والعاشر) . ومع ورود أسماء آدم وإبراهيم وإسماعيل فإن الشاعر لم يتجاوز في ذكر نسب الرسول جده عدنان بناء على حديث مروى عنه يقول : انه كان إذا انتسب لم يجاوز في نسبه معد بن عدنان ثم يمسك ويقول كذب النسابون . فكان ينهى عن تجاوز عدنان (29) .

(29) الحديث مروى عن هشام بن محمد العجلاني عن موسى بن يعقوب الزمعي عن عمته عن أمها كريمة بنت المقداد بن الأسود البهراني ، طبقات ابن سعد 1 / 28 .

فعياض المهتم بالسيرة النبوية ، ومؤلف الشفا عمل بنصيحته فلم يتجاوز عدنان . وقادر الحديث عن النسب إلى المولد والبعثة . ومع أن القصيدة التي خصصها لذلك وردت مبتورة في أصولها ، فإنهالم تخل من معجم خاص بالبعثة (الجدول الثامن) ذكر فيه إشارات الإنجيل والتوراة إليها ، واعتراف بعض أحبار اليهود بذلك ،وكذا بعض العرافين مثل شق وسطيح... كما قاده معجم النسب إلى الإتيان بمعجم حربي (الجدول التاسع) إذ أنه كان يذكر شجاعة اجداد الرسول وشرفهم وكفاحهم من أجل الحق ومواجهتهم للشرك والظلم .

وهذه الجداول تبين بوضوح أن الشاعر خصص القصيدة الرابعة لتسجيل السيرة النبوية لا للتوسل كما هو الشأن في القصائد الأخرى ، إلا أن وصولها ناقصة حال دون تعرفنا إلى باقي الموضوعات التي أثارها من السيرة .

الكلمة / النص	1	2	3	4	5	
آدم				1		1
إبراهيم				1		1
إسماعيل				1		1
عدنان				1		1
معد				1		1
نزار				1		1
مضر	1			1	1	3
إياس				1		1
خزيمة				1		1
كناية				1		1
النضر				1		1
مالك				1		1
فهـــر				1		1
غالب				1		1
لوي				1		1
كعب				1		1

جدول رقم 7 – نسب الرسول(تابع)

الكلمة / النص	1	2	3	4	5	
مرة				1		1
كلاب				1		1
قصي				1		1
عبد مناف				1		1
هشام				1		1
عبدالمطلب				1		1
عبد الله				1		1
آمنة				1		1
المجموع	1			24	1	26

جدول رقم 7 – نسب الرسول(تتمة)

الكلمة / النص	1	2	3	4	5	
أحبار				1		1
انجيل				1		1
توراة				1		1
الرهبان				1		1
شق				1		1
سطيح				1		1
قريش				1		1
المجموع				7		7

جدول رقم 8 - معجم البعثة

النص / الكلمة	1	2	3	4	5	
الاسـل				1		1
الباس				2		2
البيض				1		1
حامي الديار				1		1
الحرب				1		1
الدروع				1		1
السالب				1		1
الغالب				1		1
الفارس				1		1
اللواء				1		1
المطعون				1		1
المقدام				1		1
المغلوب				1		
المجمـوع				14		14

جدول رقم 9 - معجم حربي

أما بالنسبة للفرع الثاني من المعجم الخاص بالرسول فقد خصصه الشاعر لأسماء الرسول وبعض صفاته كالكرم والرحمة والسماحة و الخير . . . وردت الأسماء في موضوعات المدح والسيرة ، والصفات في موضوع التوسل ، خاصة . وذلك ليمهد بها لطلب العفو والمغفرة وشفاعة الرسول .

3 - **معجم التوسل** : والغاية من مدح النبي وذكر صفاته ، والصلاة عليه هي طلب شفاعته وعطفه ومساعدته للتغلب على الآثام والأوزار ومحوها .

النص / الكلمة	1	2	3	4	5	مجموع
ابو القاسم						1
احمد		1			1	2
محمد			1		2	3
اشرف الانبياء					1	1
افضل الناس					1	1
الاكبر		1				1
اكرم الخلق					1	1
الحبيب	1			1		2
الحجازي	1					1
خير البرية					1	1

جدول رقم 10 - اسماء الرسول وصفاته (تابع)

النص / الكلمة	1	2	3	4	5	مجموع
رحمة الله		1				1
رسول	1		1		1	3
السيد		1	1		1	3
سيد الامم					2	2
الشافع	1	2				3
الشريف	2					2
قطب						1
الوجود				1		1
الكريم				1		1
الماحي				1		1
المجتبي		1				1
المختار					2	2
المصطفى		2			2	4
الهادي					1	1
المجموع	6	9	4	4	16	39

جدول رقم 10 - اسماء الرسول وصفاته (تتمة)

النص / الكلمة	1	2	3	4	5	مجموع
ذنب / مذنب	3	1				4
عبد		1			3	4
هم	1	1	1		1	4
خسر /خسران		2			1	3
ذل / ذليل		1	2			3
شكوى			1		1	2
ساءة /مسيء			2			2
اوزار	2					2
بلوى / مبتلي		1	1			2
جاني / جناية			2			2
غناء	1	1				2
فقر			1		1	2
هول / اهوال		1	1			2
آثام	1					1
افلاس			1			1
اغتراب					1	1
الم					1	1
اهمال		1				1
بؤس					1	1
حقير			1			1
حيرة		1				1
خيبة		1				1
داء عقيم		1				1
ذو جرم					1	1
زلل	1					1
صواعق			1			1
عجز		1				1
غربة /غريب			1			1
الفاقة			1			1
كئيب			1			1
كرب			1			1
نار	1					1
ندم					1	1
نقم					1	1
ويل			1			1
المجموع	10	15	20	-	13	58

جدول رقم 11 -معجم ماهو كائن

لذلك يتضمن هذا المعجم موضوعين :

- التعبير عما هو كائن ، أي الإعتراف بالذنب والشعور بالخيبة والخوف من العقاب (الجدول الحادي عشر) .- الإعراب عما يرجى أن يكون ، أي طلب الرحمة والغفران والكرم والفضل وذلك في أسلوب أبدى فيه الشاعر تضاؤلا وندما وتشوقا صادقا إلى شفاعة الرسول (الجدول الثاني عشر) .

وفي النص الثالث كان الخطاب موجها مباشرة إلى الخالق لما سقناه من خصوصيات تميز، عن باقي النصوص . ويأتي المعجمان في الغالب متوازيين متقابلين يبدي الخطأ ويلتمس العذر والعفو، الشيء الذي أضفى على النص تقابلات وتعادلات كان لها أثر في جماليته .

ويمكننا الجدولان (الحادي والثاني عشر) من إبداء جملة من الملاحظات : أهمها تردد بعض المفردات أكثر من غيرها في معجم التوسل . فعند النقاد أن تكرار كلمات محددة في نص ما يؤلف دالا معجميا له مدلول هو نواة النص . فاهتمام الشاعر بموضوع ما لابد وان يدفعه إلى الدوران في حومة المفردات التي تعبر عنه فتكون لها أهمية متميزة بالمقابلة مع باقي المفردات (30)

(30) الموضوعية البنيوية . د . عبد الكريم حسن، الفكر العربي المعاصر عدد 18-19 ص 195-204 سنة 1982

الكلمة / النص	1	2	3	4	5	
شفاعة	2	4			3	9
غفران	1	6			2	9
فضل	1	1	1		4	7
كرم جود		1	1		5	7
رحمة		3	2			5
امان امن					3	3
رضى		1	1		1	3
زيارة	2				1	3
عفو			1		2	3
احسان		2				2
اجبر جبر		1			1	2
انوار		2				2
عطف		1	1			2
نعم		1			1	2
جلاء الفهم		1				1
خير			1			1
فرج					1	1
لطف		1				1
وفاء					1	1
المجموع	6	25	8	-	25	64

جدول رقم 12 - مايرجى ان يكون (التوسل)

الموضوع \ النص	1	2	3	4	5	مجموع
ماهو كائن	10	15	20	-	13	58
المتوقع	6	25	8	-	26	65
المجموع	16	40	28	-	39	123

جدول رقم 13 - مكونات معجم التوسل

الحدث المسبب	الواقع	الجزاء المتوقع	اسلوب النجاة
ذنب	هم	خسران	شفاعة
عبودية	عناء شكوى	أهوال	غفوان
إساءة	فقر	خيبة	فضل
جناية	بؤس	صواعق	مكرمة
آثام	حيرة	نــــار	أمان
إهمال	عجز	ويـــل	إحسان
زلل	ندم		رضى
			عطف

جدول رقم 14 -تصنيف معجم التوسل

فعلى مستوى النصوص نرى أن ميل عياض إلى التوسل ظاهر في أغلبها ، و لكن بنســب متفاوتـة (الجدول الثالث عشر) : فبينما يأتي النصان " الثاني و الخامس في الصدارة ولا يخلو " الثالث " من اهتمام بالموضوع ، نجد النص الرابع خاليا من معجم التوسل بفرعيه . فهل نرد ذلك الى رغبة الشاعر في تخصيصه للسيرة النبوية خاصة ؟

وقد سبق أن لا حظنا أن معجم النسب النبوي : أسماء الرسول و صفاته كان طاغيا عليه ، أو إلى وصول النص مبتورا ، وبالتالي إمكانية مزج الشاعر بين الموضوعين المدحي والتوسلي ، كما هو واقع في نصوص أخرى ؟

ويتضح من الإحصاء كذلك أن معجم ما يرجى أن يكون قد فاق معجم ما هو كائن ، أي أن الشاعر اتجه إلى التوسل وطلب العفو والشفاعة أكثر من اتجاهه نحو إبداء عيوبه وذنوبه وتقصيره. فكان توسله توسل متفائل مؤمن بعفو ربه وشفاعة نبيه .

ولعله – وهو الفقيه المحدث – اعتمد الآيات والأحاديث التي تحث الإنسان على الإستغفار والتوبة وتدعوه إليهما ، مؤكدة أن التوبة النصوح تصادف الإستجابة كقوله تعالى (أدعوني أستجب لكم) (31) . وكقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي : يا بن آدم لو دعوتني و رجوتني غفرت لك (32) وقوله (التائب من الذنب كمن لاذنب له) (33)

ويبدو من ألفاظ معجم التوسل أن ما كان يشغل الشاعر ويتردد على لسانه :

– شعور بالذنب و عبودية الحواس التي تؤدي بالإنسان إلى الهم و الذل والخسران فيرفع عقيرته بالشكوى مما صدر عنه من إساءة و وزر و جناية .

– وتأتي باقي مفردات المعجم لتؤكد هذا الشعور وتدعمه ويمكن التمييز بين ثلاث مراحل مكونةلدلالات هذا المعجم : الحدث المسبب والذي يؤدي إلى واقع معين ، ويترتب عنه جزاء متوقع يؤمل الشاعر رده بطلب الشفاعة والعفو والمغفرة . ... . (الجدول الرابع عشر) .

---

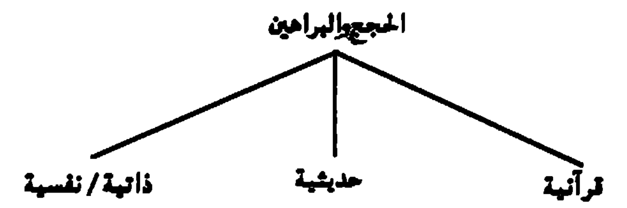
(31) سورة غافر ، آية 60 .

(32) سنن الترمذي ، قيامة 49 ، و مسند ابن حنبل 3 / 198

(33) مسند ابن ماجة ، زهد 30 .

ويسعى الشاعر إلى رد المتوقع ، والتخلص من الجزاء لا بالعمل ، ولكن بالتوسل اعتمادا على الاحاديث التي تجعل الرسول عاجزا عن دخول الجنة الى ان تشمله رحمة الخالق . فقد جاء في الصحيح أنه قال (لن يدخل أحد الجنة بعمله قالوا ولا أنت يا رسول الله ؟ قال و لا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل)(33م) فكانت الألفاظ المترددة في معجم ما يرجى أن يكون هي : الشفاعة ، الغفران ، الفضل ، الكرم ، الرحمة . . . وتعبر ببلاغة ووضوح عما ورد في أحاديث النجاة والتخلص من الجزاء .

ولاتتم الشفاعة و العفو والرحمة إلا بإبداء دلائل التوبة النصوح وبراهينها ، لذلك فإن الشاعر يسوق بعضها ويعتمد ه في طلب النجاة و تأميلها . و يمكن إجمالها فيما يلي :



ويقودنا توضيح هذه البراهين الى الحديث عن عملية التناص أو الإحالات وهي معبرة متنوعة ، أغنت النصوص وعمقت دلالاتها بما توحي به من علاقات ووشائج بين الموضوعات المحالة والمحال عليها .

1 - الحجج القرآنية :

اعتمد عياض الفقيه القرآن الكريم باعتباره أقوى وسائل الإثبات والإستشهاد محيلا على بعض الآيات التي تتحدث عن الإستغفار والغفران . ولا تخلو كل قصائده من ذلك :

- فكن شفيعي لما قدمت من زلل ومن خطاي فإن الرب غفار
- فلي ذنوب اثقلت كاهلي إن لم تكن تغفر من يغفر ؟
- فأنت قلت استغفروا ربكم وإنني جئت مستغفر (كذا)
- أنا فقير إلى عفو ومغفرة وأنت أهل الرضى يا سيد الأمم

(33م) صحيح البخاري ، رقاق 18 .

وهي إشارات الى آيات كثيرة تتضمن نفس المعاني ، كقوله تعالى :- فاستغفروا لذنوبهم و من يغفر الذنوب إلا الله (34) .

- لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا (35) .

- ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفرالله يجد الله غفورا رحيما (36) .

- وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم (37) .

- وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون (38) .

ونوع الشاعر صيغ الإستغفار وطرقه :

أ) فهو يتوسل حينا ، ويستغفر لأخطائه ويلتمس ذلك من خالقه .

ب) ويوقن حينا آخر بأن الغفران من اختصاصه عز وجل

ج) ويقيم عقدا بينه وبين الخالق ، ينفذ الجانب الخاص به طمعا في أن ينال الغفران وتسري عليه آثاره . فقد دعا الخالق الإنسان إلى الإستغفار، وها هو الشاعر يقوم بذلك .

ومن الحجج المعتمدة كذالك قول الشاعر :

- يـــامستجيبـــا دعـــوة المبتلـــى ودعـــــوة المضطــــر إذ يجْــــــأر
- دعــوتك مــضطرا فــعـجل إجـابتي بتـــفـــريج كـــرب طالما وصل الهـــولا

محيلا على قوله تعالى :

(34) سورة أل عمران ، أية 135

(35) الزمر أية 53 .

(36) النساء ، أية 110

(37) الرعد ، أية 6 .

(38) الأنفال ، أية 33 .

- أمن يجيب المضطر إذا دعاه (39) .

- وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان (40)

- وقال ربكم أدعوني أستجب لكم (41) .

وفي شعر عياض إحالات أخرى أشار فيها إلى بعض فضائل الرسول صلى الله عليه وسلم منها قوله :

- فمن خصه الله تعالى اسمه بقوله " فاصدع بما تومر

- يا من له جاه عظيم ومن له لواء الحمد والكوثر

وقد ضمن فيها قوله تعالى :

- فاصدع بما تومر واعرض عن المشركين (42) .

- إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر(43) .

2) البراهين الحديثية : في شعرعياض إحالات حديثية استعملها الشاعرلتبرير توسله بالرسول ،وطلبه للعفو والمغفرة فهنالك أحاديث تحث على الإستغفار وتجعله أساس محو الذنوب .وقد قصدها في أبياته التي ألح فيها على استغفاره وتوبته، نذكر منه على سبيل المثال الحديثين القدسيين

- الأول : من أحاديث صحيح مسلم مروي عن أبي ذر الغفاري عن النبي صلى الله عليه وسلم . أنه قال (. . . يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار ، و أنا أغفر الذنوب جميعا ، فاستغفروني أغفر لكم).

- والثاني ، من أحاديث الترمذي مروي عن أنس رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى عليه و سلم يقول : قال الله تعالى : . . . يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم

---

(39) النمل آية 62 .
(40) البقرة آية 186 .
(41) غافر آية 60
(42) الحجر آية 94 .
(43) الكوثر اية 1 .

استغفرتني غفرت لك . . .)(44) . وفي قول عياض :

ذخـيــرتي حـبك يا مـصطفـــى فــــإنه أفــــضل مــــا يذخـــــر

تضمين لأحاديث نبوية في حب الرسول والإعتماد عليه لدخول الجنة منها قوله (ص) من أحبني وأحب هذين وأباهما وأمهما كان معي في درجتي يوم القيامة (45) (الإشارة إلى السبطين ووالديهما) . وفي قول عياض :

يا عين هذا السـيـــد الأكـبـــر وهـذه الـروضــــــة والمنبـــــــر

إشارة إلى قوله(ص) (مابين قبري ومنبري روض من رياض الجنة) (45م)

ويعتبر حب الرسول والتعلق به ومدحه والإشادة بأصله ونسبه حافزا لإدراك التواب والغفران ، لذا يتشوق إلى المقام الشريف الذي اعتبره (ص) من رياض الجنة .

وفي القصائد إشارات تاريخية إلى النسب والميلاد وطفولة الرسول وبعثته وكراماته وغير ذلك مما يكثر تداوله في كتب السيرة .

3 - **البراهين الذاتية النفسية** : يتضاءل الشاعرو يظهر عجزه وضعفه ويعترف بذنبه لإثارة مشاعرالمخاطب والفوز بعطفه و شفقته، ويستعمل الشاعر كافة الوسائل لتحقيق ذلك :

-مثل المقابلتين حال الضعيف المبتلى والمخاطب القادرعلى الفعل

- بين الضيف الضعيف المحتاج ، والمضيف الكريم . ويتوسل للخالق بالرسول ، وللرسول بكبار أصحابه . ويبرز هذا المنحى التقابلي التوسلي من خلال شعره كالتالي :

---

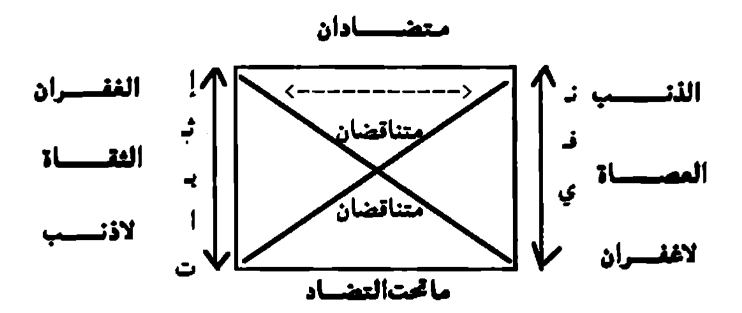
(44) من الاربعين النووية . ط . القاهرة 1979

(45) سنن الترمذي ، مناقب 30 ، و مسند ابن حنبل 1/77 .

(45م) مسند ابن حنبل 3/64 .

حال الشاعر	حال الخالق والرسول
عجزت عن كشف داء مقيم	أنت أقدر على ذلك
أنا بك مستشفع	أنت الشفيع
أنا بك مسترحم	أنت الرحيم
اعطف على العبد المسيء	أنت المحسن
لي ذنوب أثقلت كاهلي	أنت الغافر
أناجيك لترحمني	يا سامع النجوى
كئيب غريب حقير	لجأ إلى باب الكريم
أنا فقير إلى مغفرة	انت أهل الرضى

بمثل هذه المقابلات يهدف الشاعر إلى إثارة المشاعر و إظهار الضعف تعبيرا عن توبته توبة نصوحا ، واستحقاقه بالتالي المغفرة و العفو، ويمكن إجمال ذلك في المربع السيميائي التالي :



فلا مجال للإفلات من زمرة العصاة المذنبين إلا بحصول الغفران الذي يلتمسه الشاعر ليكون من الثقاة المحسنين . في آخر حديثنا عن التركيب المعجمي ، نلاحظ أن المعجم الوارد في شعر عياض مرتبط إما بالمقام المقدس ، أو بالرسول ، أو بالتوسل به . ويواكبه معجم ديني عام ، ويغيب معجم التصوف . فقد وردت كلمات شوق ، إحسان ، حال . . . إلا أنه تبين من السياق أن الشاعر لم يكن يقصد بها ما يقصده بها الصوفية .

يمكن رد ذلك إلى أن عياضا تطغى عليه الإهتمامات الفقهية بالرغم من ميله إلى الزهد وأخذه عن كبار صوفية عصره الطريقة ، فقد كان رأس المالكية في عصره . ولا يمكن إغفال موقف المرابطين من التصوف والذي يتجلى في قضية إحراق كتاب الأحياء، ومحنة ابن العريف وابن برجان.. فقد كان العصر عصر تصوف ، مع العلم بوجود الصوفية في الأندلس والمغرب آنذاك (46) . ويبدو أن العاملين معا كان لهما أثر فيخلو شعر عياض من المصطلحات الصوفية إلا أنه لايخلو من موضوعات وجوانب يهتم بها الصوفية عموما ، وخاصة منها مايتصل بالتوسل ومحاولة علاج علل النفس ، والبحث عن الطمأنينة الروحية . فإذا كان بعض الصوفية ينهجون في ذلك أسلوب الذكر للتدرج من مقام الإسلام/ إلى مقام الإيمان / فمقام الإحسان (النهاية) (47) فإن آخرين يحاولون بلوغ ذلك بواسطة التوسل وإظهار التوبة النصوح .

خلاصـــــة :

1 - إشتهر عياض بالفقه والسيرة بالدرجة الأولى ، ولم يكن إختصاصه الشعر وإنما كانت له مشاركة فيه ، بالرغم من أنه أبدى في " بغية الرائد " إهتماما خاصا بالبلاغة . لهذا لا يجب أن ننتظر أن يكون شعره على قدر كبير من الإبداع والجودة .

2 - وخلف مقطوعات قصيرة في موضوعات مختلفة أهمها قصائده في المدح النبوي ، وبهذا يكـــون - إلى جانب بعض أدباء الأندلس كابن أبي الخصال - (48) من أوائل الذين مدحوا الرسول في الغرب الإسلامي .

3 - البناء الرباعي للقصيدة يبرز سير عياض على نهج شعر المدح النبوي عند كعب وحسان وإن كان لم يلتزم بنفس الموضوعات التي تطرقا إليها .

---

(46) التشوف 72 - 101 -147.وردت أسماء لبعض صوفية العصر المرابطي

(47) بغية السالك في أشرف المسالك ،محمد بن محمد الأنصاري الساحلي . م . خ . ع . ر د 2224

(48). توفي سنة 542 هـ له قصيدة في المدح النبوي : معراج المناقب ومنهاج الحسب الثاقب .

4 - إن اتجاهه إلى التعبير المباشر ، وخلو شعره من الإيحاءات والتضمين وتوظيف الصور الشعرية ، جعله يسقط في نوع من السردية والتقريرية ويتحول من المدح إلى سرد السيرة النبوية بتفاصيلها من مولد وطفولة وشمائل ... وقد جاءت وسائل لتغطية هذا النقص منها :

- إغناء الجانب الصوتي الموسيقي في النصوص باستغلال إمكانيات المد والتصدير والتكرار والمجانسة اللفظية والحرفية والمقابلات المعجمية والسياقية . ..

- تنويع في المجال التركيبي ، بتشابك الأزمنة أحيانا ، واعتماد المصادر وأسماء الفاعلين والمفعولين أحيانا ، وتنويع الضمائر ، وإقامة تعادلات نحوية بين شطري البيت أو بين مجموعة من الأبيات . هذه الوسائل أعطت نتائج عكسية على المستوى العام ، فقد بدت النصوص مفتعلة وغير منسجمة وخالية من الصور المبتكرة ، والتشبيه المصيب ، والإستعارة الجميلة فكان أقرب إلى نظم منه إلى شعر .

5 - ويؤكد طبيعته النظمية هاته ، وغايته التعليمية غنى المعجم الديني سواء في ذلك ما يتعلق بالإشارات والمفاهيم الدينية ، أو ما يتعلق بالمقام النبوي وأسماء الرسول وصفاته وفضائله . ففيها كلها نقل لمعجم السيرة كما جاء في كتبها و منها الشفا لعياض ، وحتى معجم التوسل الذي أبرز الشاعر فيه ماكان يشعر به من ذنب وتقصير ، وما كان يؤمله بمدحه النبوي من عفو وغفران ، كان خاليا من المصطلحات التي تثار في مثل هذه المواقف

6 - وأخيرا يجب النظر إلى هذا كله في ضوء وظيفة المدح النبوي عند عياض ، وطبيعة الفترة التي كان ينتمي إليها شعره

- فقد كانت غاية عياض من مدحه النبوي - كما كانت غايته من الشفا - :

* الرفع من مقام النبوة ورد الإعتبار إليها في ظرف انتهكت فيه حرمتها من طرف دعاة خارجين عن الدين كبرغواطة وغمارة وغيرهما. . . وأصحاب المذاهب والغلاة كالفاطميين ومهدي الموحدين . . . وذلك بتخليد السيرة وإظهار خدمة صاحبها للدين والدعوة الى اتباعه ، لهذا كان النظم وسيلة من وسائل نشر هذه المبادئ إذ كان كغيره يتلى في المساجد والمجامع في المناسبات الدينية .

* التعبير عن هموم وأحزان تدافعت في صدر الشاعر ، وأقضت مضجعه ، ومصدرها ما تعرض له المذهب المالكي وفقهاؤه من تنكيل ومضايقة على يد الموحدين جعلت الشاعر يقوم ضدهم وينشل في ذلك فلا يجد من سبيل إلى التنفيس عن همومه ومشاعره وأحزانه إلا بمدح خير المرسلين والتوسل به رجاء الخلاص من هذا كله خاصة و أن في نفسه شوقا دفينا إلى زيارة المقام الطاهر لم تفلح رسائل الشوق المبعوثة إليه في إطفائه .

ولعل هذا كان وراء الإختلاف الحاصل بين مستوى شعره الوجداني و الديني ؟

- و الفترة المرابطية التي ينتسب إليها عياض لم تكن فترة ازدهار شعري بالمغرب بل أن الشعراء المغاربة كانوا يعدون على أصابع اليد ، ولم تصلنا نصوصهم كاملة لذا يمكن القول مع بعض الباحثين (49) أنه العصر الذي وضعت فيه اللبنات الأولى للأدب العربي بالمغرب ، مع ما يواكب البدايات من تعثر وعدم وضوح الرؤى والإتجاه ، ومع الميل إلى القليد : تقليد الأدبين المشرقي والأندلسي لم يبلغ فيه المغاربة مستوى الشعر المقلد .

فلا عجب أن نجد ما أبدعه عياض أقرب إلى النظم الذي يوضع لتصنيف وإجمال المعلومات منه إلى الشعر الذي يقصد به إثارة المشاعر والتذوق الجمالي للغة .

---

(49) من الخلاصات التي انتهى إليها عبد السلام شقور في كتابه عن عياض الأديب ، ط .دار الفكر المغربي ، طنجة 1983 .

المبحث الثاني - هاجس الذنب عند السهيلي

إشتهر السهيلي باهتماماته النحوية اللغوية (50) ،وكتاباته في السيرة والتفسير ، فهو تلميذ ابن الطراوة العالم النحوي الأندلسي المشهور وهو مؤلف الروض الأنف ، والتعريف والإعلام، وشارح سور من الذكر الحكيم . وبالرغم من أن شعره قليل لايتعدى أبياتا في موضوعات مختلفة كالتوسل والغزل ومراسلة بعض الأصدقاء ، فإن عينيته :

يا من يرى ما في الضمير ويسمع أنت المعد لكل ما يتوقع

قد داع صيتها وعارضها الشعراء وخمسوها وسدسوها ... فصارت من النصوص المأثورة لدى الذاكرين والمنشدين .

إن أهم ما خلفه السهيلي من شعر لايعدو ثلاث قصائد :

1 - **العينية الكبرى** ، مطلعها :

لك الحمد يا ذا المجد و الجود و العلا تباركت تعطي ما تشاء وتمنع (51)

2 - **العينية الصغرى**،السابقة الذكر، وهي مطبوعة متداولة .

3 - **البائية** ، ومطلعها :

صرفت إلى رب الأنام مطالبي ووجهت وجهي نحوه و مآربي (52)

وستكون هذه القصائد التوسلية محور دراستنا للشعر الصوفي عند السهيلي .

---

(50) نوقشت رسالة الاستاذة نضال محمد هاشم في موضوع : السهيلي وآراؤه في النحو واللغةالمقدمة لجامعة البصرة ، كلية الآداب ، بتاريخ 11 / 1984/4 .

(51) واردة في المخطوط رقم 1209 د ، ص 32 - 33 المحفوظ في خ . ع . ر . . ومجموع به قصائد في التوسل و الإستغاثة مرتبة على حروف المعجم

(52) أوردها محمد الأمين الصحراوي في لإرتجال ، و نقلها عن صاحب الإعلام 8 / 72 - 73 .

بنـــاء القصيـــدة :

عندما نمعن النظر في هذه القصائد التوسلية نلاحظ أنها تتميز بظاهرة الترابط : عموديا على مستوى الغرض المركزي ، أفقيا على مستوى تطور الموضوع

1 - فكل نص يكون وحدة في حد ذاته و يتضمن محورا خاصا تعمل الوحدات الجزئية على بلورته وتوضيحه . وغالبا ما يشتمل على تمهيد واختتام . وبهذا فبناء النص هو :

أ) وحدة تمهيدية : الإستعداد للموضوع والتمهيد له بالتوجه إلى الخالق وإظهار عظمته

ب) غرض مركزي : وهو صلب الموضوع الذي هو التوسل ، وهو مركب على شكل محور

ج) وحدة ختامية : تخصص لطلب شفاعة الرسول أوالصلاة عليه . وتكون الوحدتان التمهيدية و الختامية قصيرتين لذا يركز الشاعر جهده على إبراز مضمون المحور الذي يعالجه في الغرض المركزي .و سيتضح هذا البناء من خلال الجدول التالي :

الموضـــوع	العينية الكبرى	العينية الصغرى	البائيـــة
وحـــدة تمهيديـــة	البيت 1 عظمة الخالق صاحب المجد والعلا الذي يعطي ويمنع كما يشاء	البيتـان 1 / 2 عظمة الخالق المعد للأهوال والشدائد	أبيـــات 1 - 3 عظمة الخالق الذي لايساويه أحد
غـــرض مركـــزي	من 2 إلى 22 التوسل محور الذنب/العفو	من 3 الى 9 التوسل محور الفقر/الفضل	من 4 الى 16 التوسل محور الاستجابة
وحـــدة ختامـــية	من 23 / 27 شفاعة وتصلية على الرسول	من 10 الى 12 شفاعة وتصلية على الرسول	من 17 الى 20 شفاعة وتصلية على الرسول

جدول رقم 1 - بناء القصيدة

2 – ويبدو الترابط بين النصوص أفقيا في اشتمال كل نص على محور محدد، وفي طبيعة العلاقة التطورية بين المحاور، والتي تجسد أحوال الشاعر النفسية والمقامات التي مر بها :

– فمحورالذنب / العفو يعبرعن مقام التوبة ، وهو نبذ المخالفة والتمسك بالطاعة . وفيه شعوربالذنب والتقصير والتماس العفو

– ومحور الفقر / الفضل يمكن أن يعبر عن مقام الفقر كما حدده بعض الصوفية (53) ففيه اعتراف بفقر الشاعر المادي والمعنوي وافتقاره إلى فضل الخالق وجوده وكرمه .

– محور الإستجابة ، ويقابله مقام الرضا حيث يرضى الشاعر بحاله ويطمئن إلى استجابة خالقه وعطفه وعفوه .وعبر هذه المحاور يبدو الترابط والتطور المشار إليهما فمن شعور بالذنب ، وطلب العفو إلى افتقار للخالق ، إلى شعور بالإستجابة . ويتم ذلك كله بواسطة التوسل والدعاء .

3 – بنية التوارد : تَفْتَقِد لدى السهيلي ما وجدناه عند عياض مثلا من تنظيم وتنسيق في مجال المبنى والمعنى ، وترتيب الأفكار والفقرات ، فما يميز شعر السهيلي هو اعتماد ظاهرة توارد المعاني .

فهو لايرتبها وإنما يطلق النفس على سجيتها لتقول ما تشاء ، وتشكو ما تريد في تلقائية وعفوية قد تؤدي إلى التكرار . ومن خلال هذه المعاني العفوية يتبلور المحور ويبرز كما عكسته نفس الشاعر ، لاتغلفه أية زخرفة أو صنعة أو تحوير . ولعل هذا ما جعل توسل السهيلي ذاتيا محضا ، ولا يشتمل على الغرض المركزي الموضوعي الذي وجدناه عند عياض والذي تطغى فيه الوظيفة المرجعية على الانفعالية . وهكذا فإن الوظيفة الانفعالية هي السائدة في توسل السهيلي ذي البنية التواردية الذاتية .

---

(53) اختلف منظور التصوف في تحديد المقامات و الأحوال ، و يجعلها السهروردي مثلا : المقامات(التوبة ، الورع ، الزهد ، الصبر ، الفقر ، الشكر ، الخوف ، الرجاء ، التوكل، الرضى ...) والأحوال :(المحبة ، الشوق ، الأنس ، القرب ، الحياء ، الاتصال ، القبض ، البسط ، الفناء ، البقاء) . ويجعلها غيره أكثر من ذلك .

العينيــة الكبــرى :

- المطلع : أعطت الدراسات القديمة والحديثة للمطلع (أو الإبتداء) أهمية كبرى وجعلته المقصد العام للخطاب ، يتم اختيار لفظه ومعناه ، ومراعاة مخارج حروفه وتركيبه ليجذب بذلك النفوس ويستهوي الخواطر .

وقد استهل الشاعر هذه القصيدة بحمد الله والثناء عليه سيرا على عادة المسلمين في ذكر الله وحمده في مطلع كل خطاب ، فكل كلام لم يبدأ فيه بذلك أبتر كما هو معروف ، وكذلك سعيا وراء تحقيق الغاية من التوسل ، أي تمام العفو والفوز به .

واختار لتجربته هاته بحر الطويل . والعلاقة بين موسيقى الشعر ومعناه أمر مقرر منذ القديم . وقد سبقت الإشارة إلى ذلك (في تحليل شعر عياض) ، فقد جعل حازم الأعاريض الضخمة الرصينة صالحة لمقاصد الجد كالفخر والمدح (54) وليس هناك أكثر جدية من الموضوع الذي يتناوله السهيلي في هذه القصيدة .

والملاحظ أن شعر السهيلي كله لايخرج عن البحور الطويلة : الطويل والكامل . وفي اعتقادي أن اختيارهما راجع إلى أنهما من أكثر البحور حركات وحروفا ومقاطع يعطيان أكثر من غيرهما إمكانيات الحوار مع النفس والآخرين ؛ والسهيلي في قصائد التوسل يحاور نفسه وربه،عارضا أخطاءه وذنوبه معترفا، وملتمسا الصفح و العفو .

لهذا فإن مسحة من الحزن و الكآبة تغلف هذا التوسل . وعند بعض النقاد المحدثين (55) أن الإنسان في حالة اليأس والجزع يتخير عادة وزنا طويلا كثير المقاطع يصب فيه من أشجانه ما ينفس عنه حزنه وجزعه .وسلك في الطويل أحسن صوره (56) ، فلم تتجاوز زحافاته " القبض " في فعولن ومفاعيلن ، فتكون الصورة التي جاءت عليها القصيدة كالتالي : (تسهيلا لإحصاء التفعيلات وشكلها ، نرقمها :

---

(54) منهاج البلغاء 259 .

(55) موسيقى الشعر 196

(1) فعولـــــــن
(2) مـفـاعـيلــن
(3) فـعـــــول
(4) مــفــاعلن

	الشطـــرالاول				الشطـــرالثاني			
التفعيلـــة	1	2	3	4	1	2	3	4
نسبة التردد	٪100	٪100	٪70	٪100	٪60	٪100	٪90	٪100
التفعيلية	-	-	3	-	3	-	1	-
النسبة المتبقية	-	-	٪30	-	٪40	-	٪10	-

نلاحظ توازنا بين الشطرين في استعماله " مفاعيلن " دائما ومزاوجته بين " فعولن وفعول " مع تغليب الأولى . ويوضح ذلك رغبة الشاعر في الإستفادة من كل المقاطع والحركات . وهذه الحالة نجدها متكررة في القصيدتين الباقيتين .ويراعى في اختيار القافية مناسبة المعنى كذلك ، فبعضها يأتي لإفادة الفرح أو الحزن أو للدلالة على الهمس . . . وقوافي قصائد السهيلي هي العين (قصيدتان) والباء (قصيدة واحدة) ، ويتميز هذان الحرفان بما يلي :

1) تستعمل العين لإفادة الهلع والتفجع لذلك جاءت أغلب قصائد الرثاء فيها .

2) العين والقاف من أطلق الحروف وأضخمها جرسا لاتدخلان في بناء إلا حسنتاه (57)

3) أن العين والباء من أكثر الحروف ورودا في القوافي ، إضافة إلى الراء واللام والميم والنون والدال والسين (58) .

---

(56) نفسه 69 - 73 .

(57) كتاب العين 52

(58) موسيقى الشعر 275 .

وتناسب العين والباء مسحة من الحزن التي تغلف القصائد - كما أسلفنا - ولم يتوسل الشاعر بحرف العين وحده لإفادة التفجع ، وإنما وظف أساليب أخرى سيكشف التحليل عنها - وروي القافية مطلق (أي متحرك) ، والحركة التي قبله قصيرة (أي متحركة كذلك) وصورتها عموما من صنف المتدارك أي التي تتوالى فيها حركتان (حركتا النون والعين في تمنع مثلا)... وكل قوافي القصيدة مستقلة أي غير مفتقرة إلى ما بعدها، وما بعدها غير مفتقر إليها وهي أحسن صور القافية

وهذا النص خالف باقي النصوص في خلوه من التصريع في المطلع ، مع ما يتميز به (أي التصريع) من طلاوة وموقع من النفس للاستدلال به على قافية القصيدة قبل الإنتهاء إليها . وتم تعويض هذا النقص بتكثيف الجناس في المطلع فهناك جناس ناقص بين الحمد والمجد ، والجود والمجد، ويوحي التقارب اللفظي بتقارب معنوي لدلالة الألفاظ على عظمة الخالق وهو مقصد الشاعر، وجناسان حرفيان ، هما :

لك الحمد يا ذا المجد والجود و العلا تبـــاركت تعطي مـــا تشـــاء وتمنع

- تجانس صوتي خلفي في حرف الدال / وتجانس استهلالي صرفي في حرف التاء . وهما يقويان العلاقة المعنوية التي تجمع بين الوحدات اللفظية ، فالأول يفيد تعدد الصفات والثاني يدل على تنوع المهام والعطاءات .

وفي الشطر الأخير تقابل سياقي بين تعطي وتمنع ، يؤكد معاني الشطر الأول الدالة على العلو والمجد والعظمة،فصاحب هذه الصفات يناسبه محور الحركة / السكون الذي يفيده التقابل .

ويستمر التناسب بين الشطرين بواسطة التعادل النحوي الوارد فيهما :

الشطر الأول	الشطر الثاني
جمل اسمية	جمل فعلية
الصفات	← التحركات

فعندما عبر الشاعر عن صفات الخالق استعمل الأسماء، وعندما عبر عما يفيد الحركة استعمل الأفعال

ولها دلالة إستمرارية لاتصافه الدائم سبحانه بها . ونلاحظ أن كل صفة في الشطر الأول يعادلها فعل مناسب لها في الشطر الثاني

الشطـــرالأول	الشطـــرالثـــاني
الحمـــد ————	← تباركـت
المجـــد ————	← تشـــاء
الجـــود ————	← تعطـــي
العـــلا ————	← تمـنـــع

وفي هذا التعادل تعبير عن تعظيم الخالق واكباره . وجاءت عملية الحركات لتدعيم ذلك وتعزيزه ، فعند أصحاب نظرية الحركات (59) أن غلبة الفتحة مثلا تفيد الفخامة والكبر ، وهذا ما لا حظناه على هذا المطلع الـــذي جاءت أزيد من نصف حركاته مفتوحة (الفتح 18/ ء الضم 6/ السكـون 3) . وغالبا ما يصير الزعم يقينا عندما تتضافر جميع عناصر البنية الشعرية ومقصد الشاعر. ومقصده (هنا تعظيم الخالق) يتعدى هذا المطلع إلى مطالع كل قصائده التوسلية كما سنرى .

وبما أن المخاطب هو المحور الأساسي المقصود بالكلام (يتوسل إليه) فقد نوع الشاعر طرق مخاطبته من كاف الخطاب، إلى تاء المضارع ، إلى تاء الضمير . كما أن الشاعر استهل النص بلام الجر ، هذه اللام التي تكون لها في الذكر دلالات . فعند الذاكرين أنها تستعمل في منازل التوبة والإستقامة والتقوى والإخلاص والصدق،أي في حالة " الفرق "،وهي شعور العبد بنفسه في مراعاة سعيه (60)، وهي نفس الحالة التي يعبر عنها هذا النص (الذنب / العفو) والذي سيصبح - مع غيره من نصوص السهيلي - من أدب المرددات والأذكار .

---

(59) من أصحاب هذه النظرية فوناجي / وموليـنو ، أنظر وجهة نظر د . محمد مفتاح في الموضوع : في سيمياء الشعر القديم 68 - 71 - 74 ، وفي الخطاب الشعري ص 175 .

(60) التيار الصوفي و المجتمع ، د . محمد مفتاح ص 231 - 232 .

ويبدو في المطلع كذلك المنحى المعجمي الذي سيكون عليه النص ويتمثل في الإستمداد من القرآن الكريم يصل أحيانا حد الإحالة اللفظية الإجترارية وهذا راجع إلى تشبع الشاعر بألفاظ القرآن لأنه ألف في غريبه ومبهمه (61) .

فالشطر الثاني مستمد من آيات قرآنية كثيرة لها نفس المدلول (الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر) (62) . والغاية منه الإستدلال ، وتأكيد انتماء منحاه التوسلي للسنة والشرع

- التوسل : لقد سبق أن أشرنا إلى " بنية التوارد " في توسل السهيلي أي أنه لم يكن يعتمد فيه المقاطع والحركات وإنما يطلق العنان لنفسه وخاطره يعرب عما شاء ويتوسل كما شاء . لذلك نجد أنفسنا مدفوعين لمواكبة الأبيات قصد فهم تجربة الشاعر وتحليلها :

إلهي وخـلاقي وحـرزي وموئلـــي   إليـك لـدى الإعسـار و اليـسر أفــزع

إلهي لئن جلت و جـمت خطيئتـــي   فـعفـوك عـن ذنبـي أجـل وأوســـع

إلهي لئن أعطيت نفسي سؤلهـــا   فـهـــا أنـا فـي بـحر الندامـة أرتـــع

يستهل التوسل بإبراز جانبي الموضوع ، والتناقض الصارخ بينهما لتبرير مشروعية هذا التوســـل :

- إله قوي عظيم .

- وشاعر خطاء ضعيف ومحتاج .

وهو ما يمكن تسميته " ببنية التضاد "، وتقوم القصيدة كلها بتوضيح كل جانب وإغنائه، فالإله عز وجل يتصف بالخلق ، واستعمل صيغة المبالغة لإعادته للخلق يوم البعث . وهو مظهر من مظاهر القوة والعظمة . وقول الشاعر عنه (حزري ، موئلي ، إليك أفزع) دليل آخر على عظمة الخـالق وضعف المخلوق : فالحرز الموضع الحصين ، والموئل الملجـأ ، وفزع إلى الشيء لجأ إليه

---

(61) كتابه : التعريف و الإعلام فيما أبهم في القرآن من الأسماء و الأعلام.

(62) سورة العنكبوت ، آية 62 . و هناك آيات عديدة في نفس المعنى .

للاستغاثة به من الفزع . وجاء التقابل المعجمي (عسر/ يسر) ليفيد التعميم ويبرهن أن الحاجة إلى الخالق دائمة و مستمرة في حالة قوة المخلوق أو ضعفه . وإلى جانب الألفاظ استعمل الشاعر أسلوبا محددا في القصيدة لإبراز هذه الحاجة منه :

- النداء ، فصيغة إلهي الواردة في مطلع أغلب الأبيات (في اثنين وعشرين من أصل سبعة وعشرين) ينادي الخالق على وجه الإستغاثة وطلب النجدة والعون ، وإن لم يستعمل أسلوب الإستغاثة . وهذا التكرار يفيد الذهول والترنح والتوسل .

- وأحيانا مايتبع المنادي بأسلوب الشرط فيحدد في فعله الخطأ أو الذنب ويلتمس في جوابه العفو والعذر ، مع اقترانه بالفاء لتتصدر جواب الشرط . وتردد الصيغتين بين الشطر الأول (إن والشرط) والشطر الثاني (الفاء والجواب) خلال سبعة أبيات يحدث نوعا من الأخذ والرد ، والتقابل بين حالتي قوة الخالق وضعف المخلوق . ويدعم هذا التقابل المعنوي تقابل لفظي في المزاوجة بين ضمائر المتكلم والمخاطب : إلهي ، حرزي ، موئلي ، نفسي ، إليك ، عفوك . . . وآخر في استعمال الأفعال والأسماء بين الأشطر ، وهو شيء جدير بالملاحظة . ففي هذه الأبيات الثلاثة مثلا نجد :

الشطر الأول	الشطر الثاني
جمل اسمية	جملة فعلية
جمل فعلية	جمل اسمية
جملة فعلية	جمل اسمية وفعلية

فبين الجمل الاسمية والفعلية تتحدد الحركة والسكون ، واليأس والأمل، ويسعى الشاعر لجعل الأمل أكبر من اليأس ، والعفو أكبر من الذنب ، ولم يكن له بد من إيراد اللفظ الذي يفيد الاحتواء ، وذلك في التصدير الوارد في البيت الثالث : جلت (أي الخطيئة) ، وأجل (أي العفو) . وبذلك يختار الشاعر الأمل في جعل العفو أوسع من الذنب .

إلا أنه لا ينجح دائما في إقناع نفسه بسعة الأمل ، فيعترف بالذنب والتقصير ، ويبدي الندم والخيبة . وقد تجلى ذلك في الصورة الشعرية الواردة في البيت الرابع (فها أنا في بحر الندامة أرتع). فهي صورة تشخيصية عادية ، إلا أن استعارة البحر للتعبير عن المبالغة في الكرم والجود أو الشجاعة والإقدام (بحر الدماء) أو للندم أمر مقرر معروف عند الشعراء ، إلا أن ما يميز هذه الصورة عن غيرها هو اقترانها بفعل " أرتع " فمعنى الرتع في اللغة لتنعم . ففي القاموس رتع الشخص في المكان أقام و تنعم ، وكان مخصبا لا يعدم شيئا يريده . وهذا المعنى مناقض للندامة وهو سر جمال الصورة وعدم رتابتها . فالكلمة تبلى بالاستعمال والأسلوب البلاغي هو الذي يحددها ويكون أبلغ عندما يهتدي الشاعر إلى الجمع بين أعناق المتنافرات في ربقة كما هو الشأن هنا .

وللصورة بهذا الشكل دلالة عميقة : هي التعبير عن حالة الرضى ، فتنعمه بالندامة دليل على قبولها ، وعلى الاعتراف بالذنب . وفي كل حالة من هذه الحالات يميز بين مواقف المريدين والسالكين والواصلين ، أو مواقف العوام والمريدين العارفين . وما عبرت عنه الصورة هو موقف الواصلين أو العارفين، وفيه يتم التلذذ بالبلوى، والاستبشار باختيار المولى وهو أحسن المواقف (63) .

إلهـي تـرى حالـي وفقري وفاقتـي وأنــت مناجــاة الحقيقــة تسمــع

إلهـي فـلا تقطـع رجائي ولاتـزغ فـؤادي فلي في بحـر جـــودك مطمـع

إلهـي لئـن خيـبـتني وطردتنـي فـمـن ذا الـذي أرجو سـواك فـيدفـع

استقرار تقابل القوة / الضعف بين الإله والشاعر ، يتجلى في عرض الشاعر لحالة فقره وفاقته . . . والسهيلي وإن كان فقيرا بالفعل ، فإن المقصود هنا الفقر المعنوي الفقر إلى العفو ، والرجاء ، وهو ما بينه في البيت الثاني .

وبقدر ما يعظم الشاعر الخالق يستصغر نفسه . فهو القاهر فوق عباده ، لذا قال :

لئـــن خيبتنـــي -------------> لا أمل لي في العفو .

وفي الأبيات مصطلحات صوفية : حال، حقيقة، رجـــاء . . . إلا أن المعجم لايخلـو على

(63) محاسن المجالس 82 .

العموم من صيغ تشاؤمية : فقر، فاقة ، خيبة ، قطع ، طرد . . . وتخفيفا لذلك يناجي الشاعر ربه لا تقطع رجائي ، لا تزغ فؤادي. . . . محيلا على آيات الذكر الحكيم (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا) (64) .

وفي الأبيات حوار و تواصل بين الشاعر و خالقه ، فمحاور الخطاب منحصرة :

- في المتكلم (الشاعر) : يستعمل ياء المتكلم .

- في المخاطب (الله) : يستعمل الضمير أنت ، تاء المخاطب ، تاء المضارع . . . .
وكثافة هذا الحوار توضح تردد الضمائر المذكورة

ومن الناحية التركيبية في البيت الأول تأخير للفعل وتقديم للمفعول وذلك لجلب الانتباه اليه واظهار بلاغة حجة الشاعر ، فالذي يسمع المناجاة تسهل عليه رؤية الحال . وهناك صورة شعرية موازية للصورة السابقة (في بحر الندامة أرتع) وهذه الصورة هي (لي في بحر جودك مطمع) . وبحر الجود " يقابل " بحر الندامة ، اذ لا يتم تجاوز الثاني والتغلب عليه الا بالأول . ولانحتاج الى توضيح الجانب البلاغي للصورة ما دمنا قد حللنا مثيلتها . وتمثل الصورة طرفي نقيض يكون الاعتدال وعدم اتباع الهوى هو التوسط بينهما :

الطرف الأقصى	التوسط	الطرف الأقصى
الرتع في بحر الندامة	الإعتدال وعدم اتباع هوى النفس	الطمع في بحر الجود

وصوتيا يحاول الشاعر اغناء موسيقى الأبيات :
- بجناس حرفي استهلالي صرفي في تاءات ترى ، فاقتي ، تسمع وخلفي صرفي في تاءي ، أنت الحقيقة .

---

(64) سورة آل عمران آية 8 .

- وبجناس استهلالي صرفي وصوتي في فاءات : فلا ، فلي ، في فؤادي . وتقابل سياقي بين ترى وتسمع .

- وترصيف بين :

تـــرى ------------> والدال عليهـــا هو الحال

تسمـــع ------------> والدال عليها هو المناجاة .

- إضافة إلى هذا كرر المنادى " إلهي " الذي أصبح بمثابة لازمة تتردد أفقيا في أغلب الأبيات للدلالة على حرارة التوسل ، وشدة التواصل بين المناجي والمناجَى ، لذا ألغى الأداة لأنها لاتستعمل إلا للبعد ، و هو يرى أن الإلـه قريب منه ، بل في نفسه يخاطبه كما يخاطبها :

إلهـي أنِسنـــي بـتلقينِ حجتــــــــي إذا كان لي في القبر مثوى ومضجــَع

إلهـي أذقني طعم عفـوك يــــوم لا بنون ولامـال هنـــاك فـينفـــــــع

إلهـي لئن لم ترعَني كنت ضائــعــا ولو كنت تَرعـاني فلســـت أضيــــع

يتحول الشاعر من ثنائية القوة / الضعف التي حددت طبيعة المتكلم والمخاطب إلى سلسلة من التوسلات المتتالية التي يلتمس من ورائها العفو والمغفرة . وحتى تكون مقنعة يدعمها الشاعر بإحالات قرآنية أو فقهية : ففي البيت الأول مثلا إشارة واضحة إلى تراث فقهي واسع أبدى فيه الفقهاء وأعادوا عما يحدث للإنسان عندما يوضع في قبره ويرقد رقدته الأخيرة من سؤال وجواب .... ويحكي نفس التراث عن ثبات السعيد وهدوئه وإجابته الهادئة المقنعة ، وعن اضطراب الشقي ونسيانه وعجزه عن الجواب ، لذا نجد الشاعر يستعمل فعل " أنس " في قوله " أنسني " ومعناه المرافقة . وهي مرافقة معنوية سيكون لها تأثير في تلقينه حجته وإجابته على السؤال . والحجة ما يوضح به حسن العمل . ولايتم هذا التلقين إلا بالعفو الذي سيكون له طعم خاص يوم لاينفع إلا هو ، أو العمل الصالح (الحجة) .

وقد أحال في البيت على آيات قرآنية عديدة تؤدي هذا المعنى ، كقوله تعالى : (يوم لاينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بوجه سليم) (65) .

(65) سورة الشعراء ، آية 88 .

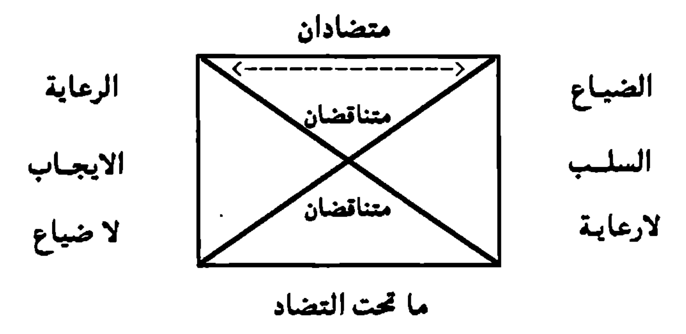
ويستعمل فعلي أمر (أنسني ، أذقني) لإفادة الإلتماس المؤدي لمعنى التوسل ، في حين يكثف من استعمال الأفعال في البيت الثالث الذي يعرض فيه نتيجة الإلتماس ، العفو أو العقاب ، وبالتالي الرعاية أو الضياع . ويؤكد هذه النتيجة وأثرها على مستقبله ليس فقط بهذه الكثافة الفعلية (ستة أفعال) ، وإنما بتكرار فعلي (ضاع ، ورعى) محدثا بذلك :

- تقابلا سياقيا .
- رد العجز على الصدر .
- مجانسة حرفية في تكرار حرف العين (أربع مرات) .كما أنه كرر الإستعمال الشرطي في الشطرين . في حين جرت العادة في أغلب الأبيات أن يورد فعل الشرط في الشطر الأول ، وجوابه في الثاني . وفي ذلك تقرير لأهمية النتيجة وخطورتها في حالة السلب وحالة الإيجاب . وهذا ما يحدث تعادلا بين الشطرين كذلك :

- الشطر الأول : لم ترعنـــــي ----------> كنت ضائعا .
- الشطر الثاني : كنت ترعاني ----------> لا أضيع .فالرعايـــة وسط بين طرفين : الضياع وعدمه .

الطرف الأقصى	الوســـــط	الطرف الأقصى
الضياع	الرعاية	عدم الضياع

وهذا ما يمكن التعبير عنه بواسطة المربع السمياني التالي :

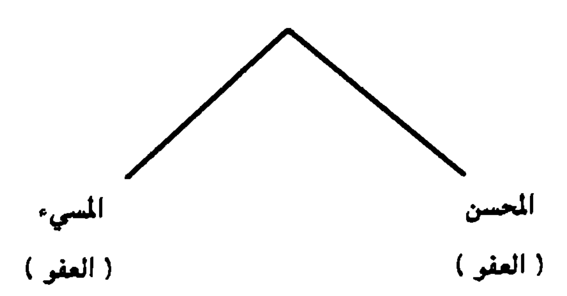


وحسب هذه الأبيات والأبيات السابقة ، فإن دلالات الإيجاب والسلب تكون كالتالي

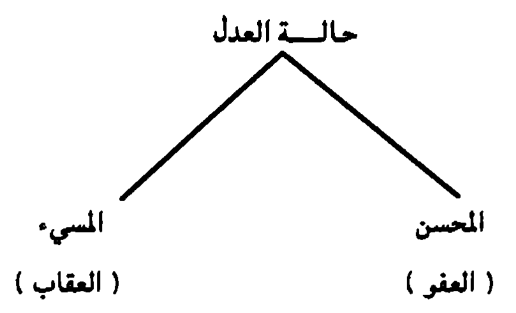
دلالات الإيجـــاب	دلالات السلـــب
عفوك عن الذنب	محاسبة عن الذنب
سماع المناجــاة	عدم الإهتمام بالنجوى
تكميـل الرجـاء	قطع الرجاء والخيبـة
تلقـــين الحجــة	عــدم تـلقين الحجــة

إلهي إذا لم تُعفُ عن غَيـرِ مُحســـــنِ فمـــن لمســـيء بالهـــوَى يتمتــــــّع
إلهي لَئِن فَرطتُ في طلـب التقـــــــَى فـهـا أنـا في اثـر العَفو أقْفـُو وأتـبْـع
إلهي لئن أخطأت جهــلا فلطالمـــــــا رجوتــُك حتــّى قيـلَ مـا هــو يُجـزِع

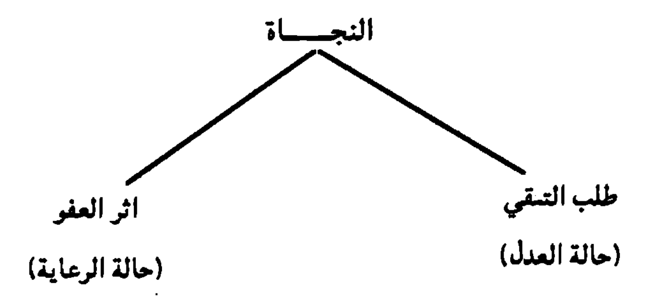
ويحاول الشاعر توضيح حالة الرعاية المشار إليها فيما قبل ، والتي جعلها فاصلا بين الضياع وعدمه ، وهي التي تؤدي إلى اتجاه واحد كيفما كان العمل : أي إتجاه العفو .



وهو أمر غير مقبول عند أصحاب بعض المذاهب التي تنص على حالة أخرى ، وهي حالة العدل : ولها اتجاهان من صنف العمل :



فهذه الحالة هي التي تؤدي إلى يأس المذنب ، والتي اعتبرها الشاعر مسببة في الضياع وأوضح الحالتين في البيت باستعمال الشرط كعادته ، والتقابل المعجمي بين محسن ومسيء . واوضح في البيت الأول أنه من الذين لا يأملون في حالة العدل ، لأنه فرط في طلب التقى ، لذا فهو يقفو أثر العفو (حالة الرعاية) وبذلك يمكن وضع معادلة مركبة من المعادلتين السابقتين :



وبما أن طريق التقوى غير وارد مادام الشاعر لم يتبعه ، فإن طريق العفو هو المعبر عنه بهذا الشعر عموما ، أي التوسل والتوبة والرجاء والإعـــتراف بالذنب كما جاء في البيت . وورد هذا كله مغلفا بمسحة حزن تبدو على التائب الصادق الذي يتشوف إلى العفو، عكسها التجانس الإستهلالي الصرفي الذي تكررت فيه الفاء (ست مرات) في البيت الثاني

إلهي ذنوبي أبدت لي الطود و اعتلت   فصفحك عن ذنبي أجل وأرفع

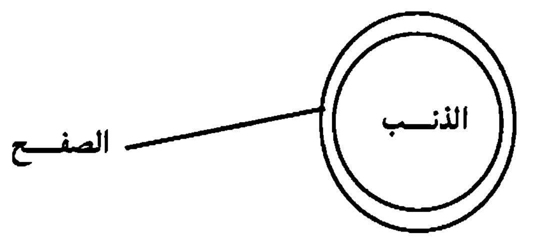
إلهي أقلني عثرتي و امح حوبتي   فإني مقر خائف متضرع

إلهي أنلني منك روحا و رحمة   فلست سوى أبواب فضلك أقرع

إلهي لئن أفضحتني و أهنتني   فما حيلتي يا ربي أم كيف أصنع

ويسترسل في نداءاته التوسلية التي يقابل فيها بين الواقع والمتوقع ، أو الخطأ الموجب

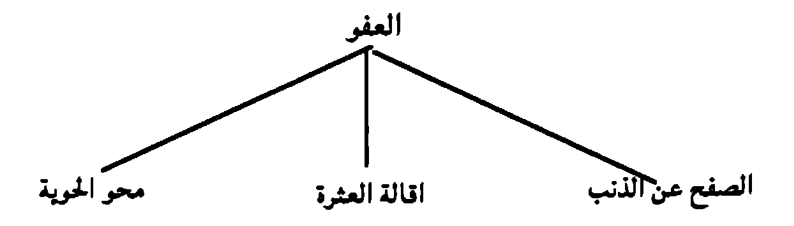
للذنب ، والأمل في الصفح والعفو. فقد تكاثرت وتراكمت حتى صارت كالطودعلوا وارتفاعا. وهي صورة شعرية مع بساطتها ووضوحها عميقة الدلالة على نفسية الشاعر .فقد كرر " الذنب "في الشطرين اعترافا و إقرارا به ، إلا أن التقابل بين الشطرين يوضح الموقع الذي كان فيه الشاعر، وهو التأرجح بين مقامي الخوف والرجاء، مع تغليب جانبي الرجاء كعادته لذلك يجعل العلاقة بين الصفح والذنب علاقة تضمين :



وبذلك يغطي الصفح الذنب، وهو مقام الرجاء المؤدي إلى حالة الرعاية كما عبر عنها في الأبيات السابقة .وهو هنا يعتمد آيات قرآنية وأحاديث نبوية ويحيل إليها ويجعلها أساس تخريجه ،ونكتفي بالإشارة إلى نموذج واحد منها :

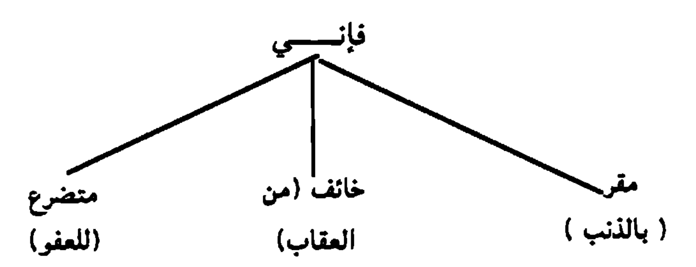
- الآية (و من يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما) (65) .

- والحديث أكثر إيحاء ، فقد أخرج ابن ماجة عن أبي هريرة أن الرسول (ص) قال :(لو أخطأتم حتى تبلغوا عنان السمـاء ، ثم تبتم لتاب الله عليكم (66م) . ويتمم مفهوم العفو في البيت الثاني فيصبح :

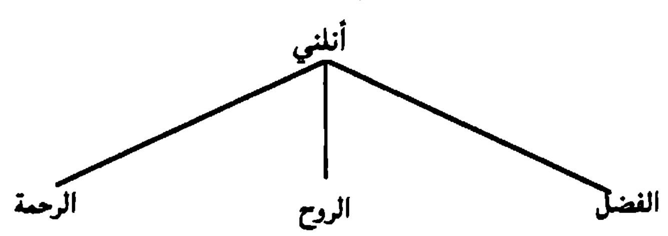


(66) سورة النساء ، آية 110 .
(66م) مسند ابن حنبل 5 / 167 .

ويقابل هذا الإلتماس الثلاثي ، اعتراف ثلاثي مواكب في الشطر الثاني من نفس البيت



وفي هذا تفصيل لثنائية الذنب / العفو التي تتكرر في القصيدة ، وتكوّن محورها الأساسي . لذا لا يجد بدا من قرع باب الإله و التماس عونه للتغلب على الخوف و إنجاح التضرع . ويكون طلب العفو ذا شُعَب كالاقرار بالذنب :



ففي قوله ورحمة تذكير بقوله تعالى (فروح وريحان وجنة نعيم)(67) . وإلى نعيم الجنة كان الشاعر ينظر عندما وضع البيت وقصد الإحالة . وعند التمعن في معنى البيتين نجد شعب الإقرار بالذنب تتوافق وشعب التماس العفو :

فالإقرار بالذنب --------------> يتم تجاوزه بالفضل الإلهي

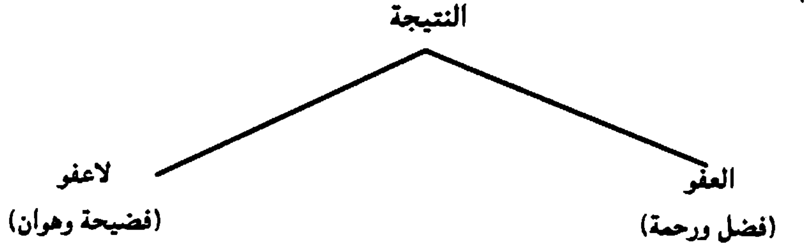
والخـــــــوف --------------> يتم تجاوزه ببعث روح الأمل والرجاء في النفس

والتضـــــرع --------------> بالرحمة الربانية الشاملة

---

(67) سورة الواقعة ، آية 89 .

ويختم هذ البناء بالإقرار بالوحدانية ، وتنزيه الخالق : فلا حل، ولاعفو، ولا أمل بدونه، ولا ملجأ إلا إليه . ويسوق النتيجة ، فإما عفو (وهو الفضل والرحمة) أو عدمه (وهو الفضيحة والهوان) :



ولانحتاج إلى تكرار ما قلناه من اعتماد الشاعر أسلوب الحوار بالاكثار من ضمائر المتكلم والمخاطب،وتكثيف المركبات الفعلية عند إفادة التحول والحركة) والأسمية عند إفادة الثبوت والسكون،وتعليق الشطر الأول بالثاني بواسطة الشرط وجوابه، وأداواته (إن والفاء) للتعبير عن معاني التوتر والأخذ والرد والتقابل الموجود عادة بين الشطرين، ثم بين البيتين ، وبين المقاطع (68) .

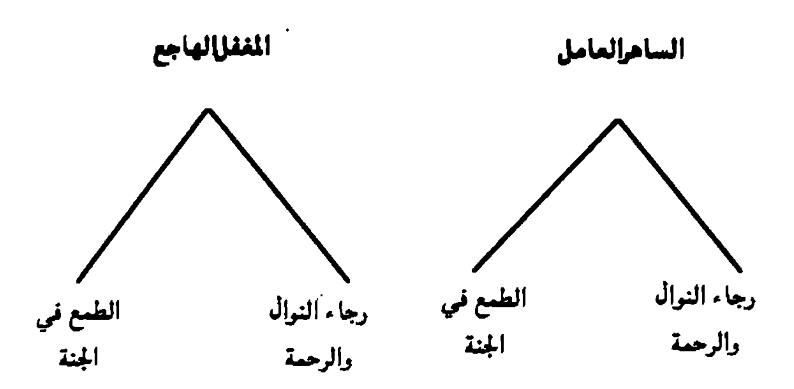
إلهي خيف الحب في الليل ساهر ... ينادي ويدعو والمغفل يهجع
وكلهم يرجو نوالك راجيا ... لرحمتك العظمى وفي الخلد يطمع
إلهي تمنيني رجاي سلامة ... وقبح خطياتي علي يشنع
إلهي وإن تعفو فعفوك منقذ ... وإلا فبالذنب المذمر أصرع

وكعادة السهيلي في الولع بالمقابلة بين الأشياء والمواقف يبدأ هذه الأبيات بالمقابلة بين موقفين :

- موقف العامل المتنبه : يدعو ، ينادي .
- موقف المغفل المغرور : يهجع . . .

ومع اختلاف الموقفين يسوق نتيجة متشابهة ، فكلاهما يرجو النوال ويطمع في الجنة .

(68) أي حالة الخائف . كذا وردت في المخطوطة المعتمدة .



وفي هذا إحالة إلى أحاديث نبوية تثبت أن دخول الجنة لاعلاقة له بعمل الإنسان (والسهيلي خبير بالأحاديث والسيرة ، فهو مدرس وشارح السيرة النبوية) فقد جاء في الصحيح عن النبي (ص) أنه قال : (لن يدخل الجنة أحد بعمله، قالوا ولا أنت يارسول الله؟ قال ولا أنا .إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل)(68م) وهناك أحاديث أخرى في نفس الموضوع . وكان لها تأثير في مبالغة شعراء التصوف والمدح النبوي في التوسل وإظهار أنفسهم بمظهر الغافل اللاهي المخطيء علما منهم بألا مفر من العقاب ولا طمع في الجنة إلا بالعفو والشفاعة ولعل هذا الإلحاح على طلب العفو كان وراء الأسلوب التقريري البسيط للأبيات عموما :

- ويبدو في مثل قوله (يرجو نوالك راجيا لرحمتك) .

- وفي تكرارالرجاء(ثلاث مرات) في أربعة أبيات ،العفو(مرتين) إضافة إلى مرادفات لها نفس المدلول : نوال ، دعاء ، رحمة خلد، سلامة ،إنقاذ ... بمعنى أن جانب الأمل يطغى على جانب اليأس :

- الأمـل ---------> رجاء النوال والسلامة والعفو .
- اليأس ---------> الإهمال وقبح الأخطاء .

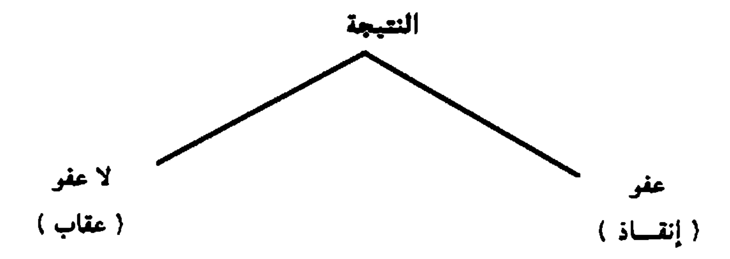
فهنالك طرفان يجب التوسط بينهما :

(68م) صحيح البخاري ، الرقاق 18 .

الطرق الاقصى	الوســط	الطرق الاقصى
السهر (للعبادة) العمل	لا تمــرح لا تخطئ	المـــرح الخطــا

- وفي الجناس الحرفي الدائر حول حرف " الياء " ففي البيت الأول جناس إستهلالي صرفي وصوتي في ياءات (خيف، ليل، ينادي، يدعو، يهجع) وفي البيت الثالث جناس إستهلالي صرفي في ياءات (تمنيني ، خطيـاتي، يشنع) وخلفي صـرفي فـي ياءات (إلـهي، تمنيني، رجـاي علي) . وهذا الإلحاح على الياء يفسر إلحاحا آخر على النداء والتوسل . فالياء هي أداته ، وإذا أضفناها إلى تكرار المنادى " إلهي "تبينت كثافة توسل الشاعر وإقباله على مناداة خالقه .

ويمكن اعتبار البيت خاتمة لكل المقاطع السابقة ، إذ أن الأبيات اللاحقة ستركز على شخص الرسول . وفيها يخلص إلى نتيجة ثنائيات العفو / الذنب ، اليأس / الأمل / العمل / المرح .



- ففي حالة العفو يستعمل الشاعر كلمة (إنقاذ) تأكيد للحديث ، إذ أن الإنسان مع عمله لا ينجو إلا بالشفاعة والعفو ، فقد تم إنقاذه إذن .

- وفي حالة لاعفو ، يتم إثبات الذنب والمحاسبة عليه : وهو ما عبر عنه بالذنب المذمر الذي يصرع ويهلك . وهذا الهلاك هو الذي يحاول الشاعر النجاة منه بالتوسل وطلب الشفاعة .

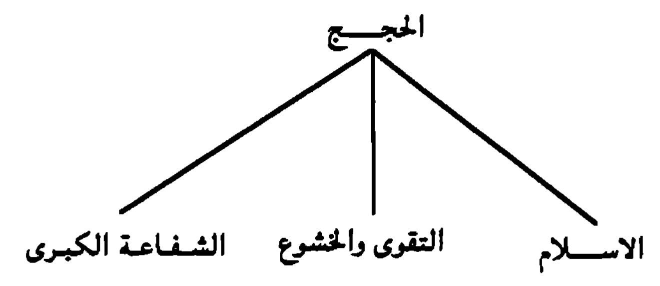
- الشفاعة : خصص لها الوحدة الختامية من النص :

إلهـي بحـق الهاشمــــي و آلـــــه وحرمـــة إبراهيـــم مـــن لك يـــخشـع

إلهـــي فاشهدني على ديـن أحمـــد نبيــــا تقيـــا قـانتـا لـك أخشـــع

فـــلا تحرمنـــي يـا إلهي وسيــــدي شفاعتـــه الكبــــرى فــذاك مشفـــع

ينتقل من الإستغاثة بالإله وطلب عفوه وكرمه وفضله إلى التماس شفاعة الرسول الكريم. في خشوع وقنوط تجلى في تكرار الكلمة (خشع) ، والشفاعة وفي غلبة الحروف المهموسة التي لاتكاد تسمع عند النطق بها : ففي البيت الأول مثلا يكرر الهاء (أربع مرات) ، والحاء (مرتين) ، والشين (مرتين).. وإذا كان قد التمس العفو الإلهي إعتمادا على مضامين آيات وأحاديث ، وعلى دفوع خاصة وشخصية فإنه في هذا المقطع الأخير يسوق حججا أخرى يعتمدها لطلب الشفاعة، وهي :



وكل حجة تؤدي إلى الأخرى و تسندها لتعبر كلها عن مضمون حديث وارد في صحيح البخاري مروي عن أبي هريرة أنه قال: "قلت يا رسول الله أي الناس أسعد بشفاعتك يوم القيامة؟ فقال < أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصا من قلبه > . (69) .

فاعتمادا على الحديث يقر الشاعر بانتمائه إلى القائلين بلا إله إلا الله. ونجده يشهد على ذلك شاهدين صادقين مصدقين هما محمد وإبراهيم الخليل . وجرت العادة في التراث الشرعي ألا تصح الشهادة إلا بوجود عدلين شاهدين . ويؤكد البيت الثاني ما سبقت الإشارة إليه من أن إقرار الشاعر بذنوبه وأخطائه هو من باب الإستغاثة والتوسل وقهر النفس ، إذ أنه كان من العاملين المتقين إلا أنه كان مؤمنا بأن العمل والتقوى والخشوع كلها أمور لاتنجى من العقاب إلا أن يحظى الإنسان بالشفاعة المحمدية .

---

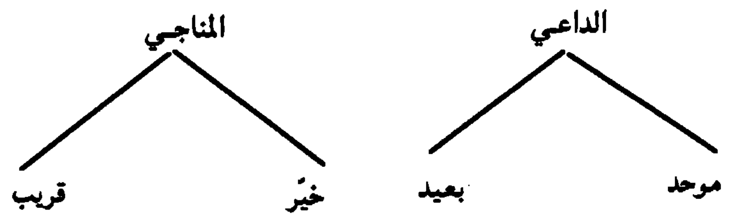
(69) صحيح البخاري ، الرقاق 51 ، و العلم 33

ويحيل عند حديثه عن الشفاعة على حديث مروي في صحيح مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال (لكل نبي دعوة مستجابة ، فتعجل كل نبي دعوته ، وإني اختبأت دعوتي شفاعة يوم القيامة ، فهي نائلة إن شاء الله تعالى من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئا) (م69) . فلا نجاة إذن إلا بالشفاعة الكبرى .

وصلّى عليهِ ما دعاك مُوحِّد ونَاجاك أخيارٌ ببابكَ ركّع

إلهي بحقّ المصطفى وابن عمّه وحرمة أخيار وهم لك تُبَّع

وككل خطاب ديني يكون البدء بالحمد ، و الختم بالتصلية والسلام على النبي وآله . وفيها صيغة الدوام والإستمرار (ما دعا ، وناجى . . .)وتميز بين مقامين : مقام الداعي / ومقام المناجي :



ويوسع دائرة الشهود : إبراهيم + المصطفى + إبن عمه + الأخيار .وهذا البيت الأخير تابع في منحاه للبيتين السابقين لذا لم يرد فيه أي فعل .

وإذا تصفحنا معجم النص لا حظنا أن محوره : ثنائية الذنب / العفو قد وردت في سياقات متنوعة : الرعاية / الضياع . القوة / الضعف . اليأس/ الرجاء . . . لذلك ساد في النص معجم مزدوج يتناول جانبي الثنائية مع إحالة مكثفة إلى نصوص قرآنية و حديثية و فقهية دعم بها الشاعر دفوعاته وآراءه .وأهمل ما دون ذلك ، فلا نجد اهتماما بالمستوى الصوتي كما عند عياض مثلا ، بل أن الجناسات اللفظية والحرفية قليلة ، وجاءت لتعميق الجانب الدلالي أكثر من خدمة الجانب الصوتي

(م69) كتاب الايمان 334- 335 ، 341 - 345 .

أما من الناحية التركيبية فأهم ما يميز النص تكرار النداء التوسلي الذي يخدم الدلالة كذلك . والتركيب الشرطي الذي يختص بلا زمنيته ، والذي ينزع فيه الشاعر إلى الإطلاق . . فما ساقه يصلح لزمانه ولكل الأزمان، ويناسب شخصه وكل الأشخاص(إستمرار قراءة أشعار التوسل) .

إن ما يقرب توسل عياض من توسل السهيلي هو ذلك الأسلوب التقريري الحواري البسيط الذي تهمش فيه الصورة الشعرية المجازية ليطغى التعبير المباشر والسردي .

وفيما يلي معجم التوسل المشار إليه أعلاه)

ماهو كائن	التردد	مايؤمل ان يكون	التردد
خطا ، ذنب	7	عفو، صفح	7
خشوع	2	رجاء	6
دعاء	2	رحمة	2
ضياع	2	رعاية	2
إساءة	1	شفاعة	2
إعسار	1	فضل	1
أفزع	1	احسان	1
إهانة	1	انقاذ	1
تضرع	1	تقوى	1
تفريط	1	تلقين الحجة	1
جزع	1	جود	1
جهل	1	حب	1
حرمان	1	حرز	1
حوبة	1	حمد	1
خوف	1	خلد	1
خيبة	1	روح	1

ماهو كائن	التردد	مايؤمل ان يكون	التردد
صرع	1	سلامة	1
طرد	1	موئل	1
عثرة	1	يسحر	1
فاقة	1		
فضيحة	1		
فقر	1		
قبح	1		
قطع الرجاء	1		
لوعة	1		
ندامة	1		
هتاف باسمه	1		
المجموع	36	المجموع	33

جدول رقم 2 – معجم التوسل

العينيـــة الصغـــرى :

القصـيدة – كباقي شعر السهيلي – من البحور الطويلة . سلك فيهـا أحســن صور الكامـل (70) . فلم يتعد زحافها الاضمار في تاء (متفاعلن) التي أصبحت (مستفعلن) في بعض الأحيان .

ونرقم هذه التفعيلات تسهيلا لإحصائها:(1)متفاعلن/(2) مستفعلن/ (3) متفاعل . وهذه الحالة الأخيرة (حالة القطع) غير وارد في الأبيات كما سنرى .

	الشطر الأول			الشطر الثاني		
التفعيلية	2	2	1	2	1	1
نسبة التردد	%80	%60	%90	%70	%70	%60
التفعيلية	1	1	2	1	2	2
بقية النسبة	%20	%40	%10	%30	%30	%40

هنالك توازن في استـعمـال التفـعيلة فهـو في الغـالب يبدأ الشطرين مـعا بمستـفعلن ، ويختمها بمتفاعلن ، وبينهـما تتردد التفعيلتان . ولهذا التـوازن أهميـة صوتية خاصـة ، إذا علمنا أن النص كتب ليردد في حلقات الذكر: فتنطق جماعة بشطره الأول ، وتقذف الأخرى بشطره الثاني .

أما القافيـة العينية فقد سبقت الإشارة إلى مناسبتها لموضوعات التفجع والحزن . وتوسل السهيلي حزين بما فيـه من اعتـراف بالذنب وإقرار بالخطأ وطلب للرحمة والشفاعـة . ورويها مطلق وصورتها من صنف المتدارك أي التي تتوالى فيها حركتان ما قبلهما ساكن .

- المطلـــــع :

يا مــن يـرى ما فـي الضمير ويــسمـع   أنت المعـــد لكل مــــا يتــــوقع

يستهل الشاعر هذه القصيدة بالنداء ، وسيكرره على مساحة عدة أبيات كما هو الشأن في العينية الكبرى . وهو نداء توسلي يناجي به الخالق ، ويبرز عظمته و جلاله في إدراك ما في الضمائر

(70) موسيقى الشعر 74 – 81 .

من أسرار . واستعمل التقابل السياقي يرى ويسمع للتعبير عن ذلك ولإفادة التأكيد والإستقصاء . هذه العظمة التي جعلت الشاعر يقدمه لكل ما يستجد ويتوقع .

وفي المطلع اهتمام بالجانب الصوتي :

- تصريح أو تبشير بالقافية ، وهو ترديد موسيقى يؤدي دلاليا إلى تماسك في الصياغة بين الشطرين ، حيث يشبه البيت المصرع بباب له مصراعان .

- وتجانس حرفي مزدوج : فهنالك تجانس استهلالي صوتي وصرفي في حرف الياء(يا، يرى، يسمع، يتوقع)، وتجانس استهلالي صوتي وصرفي في حرف الميم (من، ما، الضمير، يسمع، المعد، ما) . والقصد من تكرار الياء - إلى جانب العامل الصوتي - التوسل والمناجاة : فالياء هي أداة التوسل .

يا من يرجى للشدائد كلها ... يا من إليه المشتكى والمفزع

يا من خزائن رزقه في قول كن ... امنن فإن الخير عندك أجمع

ما لي سوى فقري إليك وسيلة ... فبالافتقار إليك فقري أدفع

استمرار العناية بالجانب الصوتي في النص : تكرار " يا " للنداء ، والتجانس الحرفي الواقع على حرف الياء في البيت الأخير (ما لي إليك ، وسيلة ، فقري) مع تردد نفس الحرف (أربع مرات) في البيت الأول (وثلاث مرات) في البيت الثاني . ويحدث الترديد الموسيقي أيضا في التجانس الخلفي الصوتي والصرفي لحرف النون (خمس مرات) في البيت الثاني (ومرتان) في البيت الأول . والتجانس الاستهلالي الصوتي والصرفي لحرف الفاء (خمس مرات) في البيت الثالث .

ولا يخفى أثر ترديد حروف معينة على الجانب الموسيقي للنص ، إضافة إلى دلالاته المعنوية : فالنون هي جزء من لفظة " كن " الواردة في البيت الثاني والتي يفسرها الصوفية تفسيرا خاصا كما سنرى .

ومحور هذه القصيدة هو ثنائية الفقر/الفضل أو الفقر / الغنى في إطار السياق التقابلي الذي دأب السهيلي على نهجه . لذا وجدنا المعجم محققا لذالك : فالشدائد، والمشتكى، والمفزع ، والفقر (كررها مرتين) والافتقار ، تتصل بالشق الأول من المحور . والخزائن والرزق ، والخير ، والمن

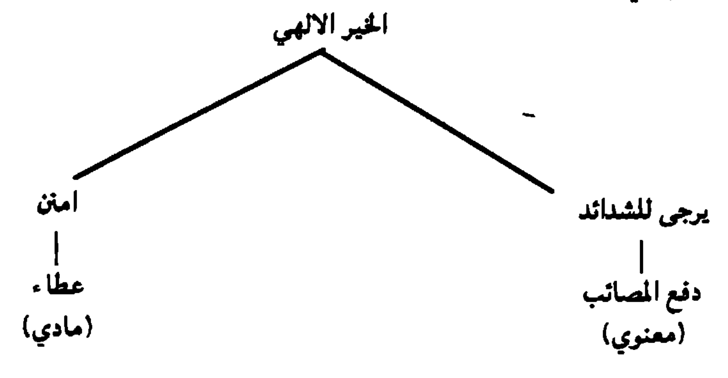
... تتصل بالشق الثاني منه .

ولايجب أن يفهم الفقر بمفهومه المادي الصرف :

- فالصوفية لا يهمهم غنى اليد بقدر ما يهمهم غنى النفس والروح . فمن مقامات الوصول عندهم الزهد وهو صرف رغبة القلب إلى الله، وتعلـــق الهمة به، والإشتغال به عن كل شيء (70م) . وعندهم أن التصوف مبني على ثلاث خصال : التمسك بالفقر والإفتقار ، والتخلق بالبذل والإيثار ، وترك التعرض للإختبار .

- وسيأتي في البيت ليحدد مقابل الفقر في معجمه وهو الفضل ومعناه الإحسان أو البدء به بدون علة . والإحسان مادي ومعنوي .

- ويتحدد هذا القصد كذلك بكلمات "يرجى للشدائد / والإفتقار) . فهو في توسله يلتمس الخير الإلهي ، ودلالته :

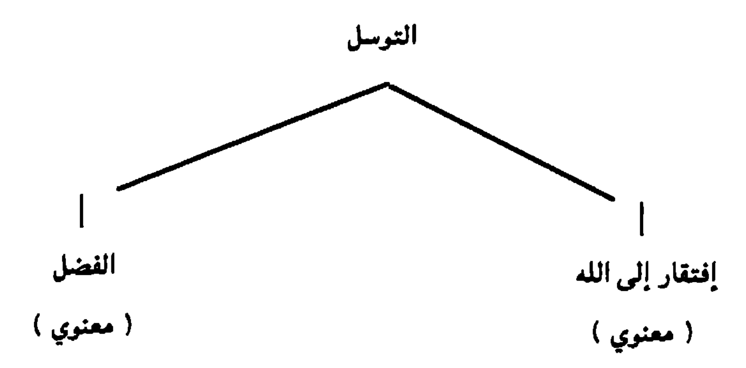


و" فقري " الأولى بمعنى شكايتي لأن فقير (بفتح فكسر) بمعنى اشتكى، فتكون الشكوى إليه من وسائل دفع الفقر والتماس الفضل .أما الإفتقار فواضح أن مدلوله معنوي ، أي الحاجة إلى الشيء و هو في السياق الإله الذي يحتاج إليه كل إنسان . فالشكوى أو الإفتقار حد رابط بين شيئين

الفقر ------> الشكوى والإفتقار <------ الفضل

(70م) محاسن المجالس 79 .

والتوسل هنا كذلك معنوي :



وفي استعمال كلمة " كن " إثبات لعظمة الخالق وقدرته واتساع فضله ، وفي نفس الوقت إحالة قرآنية يدعم بها حديثه عن الخير الإلهي ، فقد وردت عدة مرات في الكتاب المبين (إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون) (71) . وقد أولى الصوفية للكلمة عناية خاصة ، فهي عندهم رمز على الإرادة الإلهية التي تخصص القدرة كما يقول المتكلمون . و" كن " الإلهية لا يشترط فيها أن تكون على نحو إنساني ، وإنما هي مجاز يعبر عن الخالقية المتوجهة على تأسيس الأشياء في كينونتها . . .

وعبارة ابن عربي في هذا السياق أن الحروف إنما تظهر أعيانها إذا انقطع الهواء في طريق خروجه ، فلما تالفت أعيان الحروف ظهرت الحياة الحسية في المعاني . وكذلك لما أراد الله وجود الأعيان قال لها " كن " ، فكان الكلام الإلهي أول شيء أدركته الأعيان (72) .

ومن الناحية التركيبية هنالك تقابل بين الشطرين من حيث استعمال الجمل الفعلية والإسمية :

(71) غافر، أية 68 ، و نفس الآية في سورة النحل 40 ، وسورة مريم أية 35 و الأنعام 73 .
(72) الرمز الشعري عند الصوفية 408 – 409 .

الشطرالأول	الشطرالثاني
1 - جملة فعلية	جملة اسمية
3 - جملة اسمية	جملة فعلية

في حين يقوم البيت الثاني على تعادل نحوي في استعمال أفعال الأمر في الشطرين :

2 - جملة اسمية + فعل أمر	فعل أمر + جملة اسمية

ويزاوج بين ضمائر المتكلم و الغائب ، فالأولى تثبت حضور الشاعر وتفاعله مع الموضوع والأخيرة تستعمل عندما يسرد الشاعر حكما أو مقدمات ويبني عليها نتائج ليستفيد منها المتلقي فيتعظ . فأصل الأبيات مقصدها الوعظ والإعتبار إضافة إلى التوسل . وسنعود إلى هذا الموضوع في الأخير .

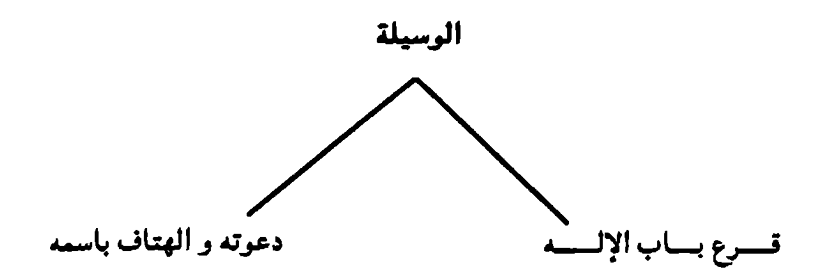
ما لـي سوى قرعي لبابـك حيلـة   فلئـن رددت فـأي بـاب أقـرع
و من الـذي أدعـو واهـتف باسمـه   إن كـان فـضلك عـن فـقيـرك يمنـع
حـاش لجـودك أن يقنـط عـاصيـا   الفضـل أجـزل والمـواهـب أوسـع

يتابع الشاعر حديثه عن ثنائية الفقر / الفضل ، ويؤكد المفهوم المعنوي للفقر المشار إليه في الفقرة السابقة بمقابلة الكلمة بالفضل (البيت الثاني) ويورد ما يفيد كلا منهما :

- الفقـر--------> ودلالاته : قرع الباب، دعاء، هتاف بالإسم،منع، قنوط

- الفضل --------> ودلالاته : جود ، أجزل، مواهب ،اوسع ، فضل

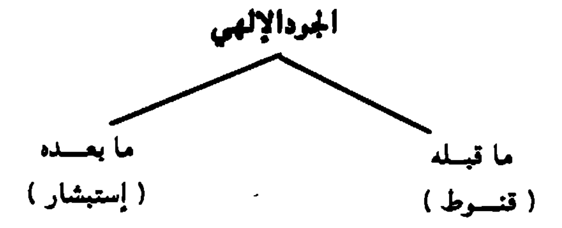
ويعظم الشاعر الخالق عن طريق تأكيد الحاجة إلى فضله، واستحالـة تحقيق ذلك بدون عونه . فالوسيلة (أو الحيلة) لاتخرج عن أحد الأمرين :



والغاية منها : الفوز بالفضل الإلهي .

وقد أمرنا الخالق أن نبتغي إليه الوسيلة في قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة) (73) . وفي قوله تعالى (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ...) (74)

فقد ارتبط الدعاء بالوسيلة ، قرع الباب - كناية على الدعاء - والهتاف والدعاء شيء واحد . بمعنى أن السهيلي يسنن التوسل ويربطه لا بالشطحات الصوفية وإنما بالنص الديني . ولأهمية الفضل والجود الإلهي وخطورته يقارن الشاعر في البيت الأخير بين حالتي ما قبله وما بعده .



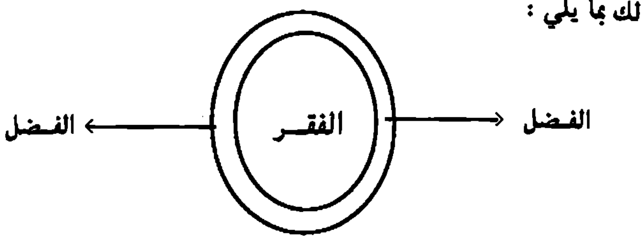
أو بعبارة أخرى : يأس / أمل ، فيعود من جديد إلى هذه الثنائية التي تتردد بكل تلقائية في كل القصائد . وذكره للعاصي في نفس البيت يجعلنا نثير العكس أي العابد ، أو ما عبر عنه في العينية الكبرى بالساهر (للعبادة) ، والمغفل الإلهي . وفي الحالتين يفهم من حديثه حاجتهما معا إلى الفضل .

---

(73) سورة المائدة ، آية 35

(74) سورة الإسراء ، آية 57 .

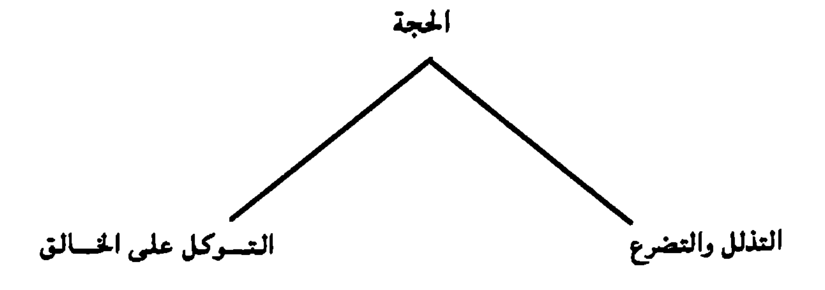
وفي العلاقة بين الفقر والفضل يـكرر الشاعـر ما نبـهإليه في علاقة الذنب بالصفح في العينية الكبرى ، وهي علاقة التضمين ، ومظهر من مظاهر الكرم والعفو اللإلهيين . فكل عناصر الفقر مضمنة داخل دائرة الفضل . والمواهب (جمع موهبة وهي العطاء) أوسع من الطلبات . ويمكن توضيح ذلك بما يلي :



وتستمر القصيدة على نفس النمط التركيبي من حيث المقابلة بين الجمل الفعلية والإسمية ما بين الشطرين . إلا أن محورا ثالثا يضاف إلى محاور الخطاب الموجودة وهو المخاطب : فبعدما كان يعمم ويضع مقدمات ليبني عليها نتائج القصد منها الوعظ ، نجده الآن يغير المحور بعد دخوله في حوار مباشر مع مخاطبه فيردد كاف الخطاب عدة مرات .

بالـــذل قــد وافيــت بـــابك عالمــا	أن الـــتذلل عنـــد بابـــك ينفـــع
وجعلـــت معتمـــدي عليـــك توكـلا	وبسطـــت كـفـــي سائلا أتضـــرع

وسيرا على نهج التوارد عنده ، يعود الشاعر إلى الوقوف عند باب الرب الكريم (والواقف المخلص لا يخيب) فـجاء المعـجم معـبرا عن ذلك من تكرار لفظة " بابك " والتـجانس بين الذل والتذلل. واستعمال ما يفيد الدعاء والطلب : التوكل، بسطت كفي، سائلا، التضرع . . . وإذا كانت الحجج المعتمدة لقضاء الحاجة في العينية متعددة فإنها في المقطع الأخير ذات طبيعتين :



والتوكل مقام من مقامات الصوفية: وهو كلتك أمرك إلى مولاك، والتجاؤك إلى علمه ورأفته ليدبر أمرك ، ويكفيك همك (75) . وفي الإلتجاء إليه تذلل وتضرع ، وبهذا تكون الحجة ذات دلالة متقاربة وذاتية . ومقام التوكل هو المناسب لثنائية الفقر / الفضل ، كما كان مقام التوبة مناسبا لثنائية العفو / الذنب في النص السابق . وبه ختم قسم التوسل من النص .

- **الشفـــــاعة :**

بحـــق مــن أحببتــه و بعثــــه وأجبــت دعــوة مـن بــه يتشفــع
اجعــل لنـا من كـل ضيـق مخرجا والطــف بنـا يــا من إليــه المرجع
ثــم الصــلاة عـلى النبـي وآلـــه خيـر الأنــام و مــن بـــه نـتشفــع

في البناء العام لقصيدة السهيلي التوسلية أوضحنا أنها تختم دائما بمقطع في ذكر الرسول، فكما لا تتم الشهادة إلا بذكر الله ونبيه محمد ، لايستجاب التوسل والدعاء إلا بهما . ويكون هذا المقطع فرصة لتحقيق هدفين:

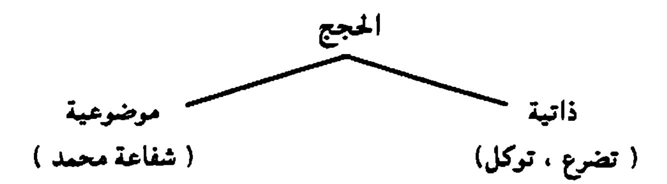
- إثارة الشفاعة المحمدية و هي دعوة النبي المستجابة يوم القيامة . وغالبا ما تكون للغة في هذا المقطع وظيفة مرجعية إذ أنها تحيل إلى تراث قرآني أو حديثي ففيه إشارة إلى البعثة المحمدية وإلى ما جاء في الاثر عن صحيح مسلم أن لكل نبي دعوة مستجابة ، وأن الأنبياء قد تعجلوا دعوتهم في حين اختبأ الرسول دعوته للشفاعة في قومه يوم القيامة .

ويشير السهيلي إلى هذا الحديث في الشطر الثاني من البيت الأول . ولأهمية الشفاعة ذكرها مرتين وفي قافيتين .

- تقديم حجة موضوعية على طلب العفو أو الفضل إضافة إلى الحجج التي ساقها في مقطع التوسل من القصيدة وتكون مكملة ومدعمة لتلك الحجج ، فتصبح لها صبغة مزدوجة :

---

(75) محاسن المجالس ، 80 .



وفي المقطع جناس بين أحببت وأجبت ، يوحي بقرابة معنوية في السياق الذي وردت فيه الكلمتان ، وتقابل سياقي بين ضيق و مخرج ، ولطف و ضيق ، يدور حول محور اليسر / العسر الذي يعالجه النص عموما .وككل كلام يرجى له القبول واليمن يختم الشاعر القصيدة بالصلاة على النبي وآله وصحبه وهي عبارة اتخذت طابعا شكليا متشابها في كل النصوص .

وإذا أردنا التعرف إلى المعجم السائد في النص ، لاحظنا أنه لايخرج عن إطار المحور الذي يعالجه النص : الفقر / الفضل ، أو عبارة أخرى ما هو كائن (الفقر إلى الله) ، وما يؤمل أن يكون (فضله) (الجدول الثالث) .

وطبيعي أن يكون جانب الفقر هو الغالب ، لأن الشاعر يعترف بالذنب ويحمل النفس ما لم تتحمل إمعانا في التوسل وطلب الشفاعة وأغلب الألفاظ معبرة عن حالة الفقر والإفتقار إلى الله : أفزع ،أتوكل ، أدعو ، أشكو ، أهتف ، هتاف ، ضيق . . . في حين أن ألفاظ النهر الثاني (من الجدول) تدور حول مفهوم الفضل : جود ، خير ، رزق ، لطف ، حسن مخرج ... وبذالك يؤكد المعجم محور النص ويغنيه .

والمحور تلخيص لقوله تعالى (أنتم الفقراء إلى الله ، والله هو الغني الحميد) (76) وبذلك فتوسل السهيلي توسل مشروع نصي يعتمد القرآن والسنة.

يكرس الشاعر ظاهرة عدم الإهتمام بالجانب الصوتي مع أن القصيدة ستصبح من قصائد الأمداح التي تتلى في المجامع، فلا القافية العين المجهورة ولاالتصريع ، ولا الجناسات القليلة كانت كافية لجعلها في المستوى التنغيمي المطلوب .ومن الناحية التركيبية أسلوب النص سردي تقريري – مفتقر للصور الشعرية – وينهمك الشاعر أثناء ه في حوار ثنائي و مناجاة مسترسلة مع خالقه ، فلا يهتم إلا بالدلالة المحققة للمقصود والمؤدية للهدف .لذا كان أحسن ما في النص غناه المعجمي .

---

(76) سورة فاطر ، آية 15 .

ويبدو أن الذين عارضوه أو خمسوه أعجبوا بمستواه الدلالي لا غير .

ماهو كائن	التوارد	مايؤمل ان يكون	التردد
فقر	3	فضل	2
تضرع	2	شفاعة	2
دعاء	2	امتن	1
ذل	2	جود	1
عصيان	2	خير	1
افتقار	1	رجاء	1
افزع	1	رزق	1
توكل	1	لطف	1
شدائد	1	مخرج	1
شكوى	1		
ضيق	1		
قرع الباب	1		
هتاف	1		
المجموع	19	المجموع	11

جدول رقم 3 -= معجم التوسل

حركة التناص : يعتبر كل نص عبارة عن شبكة تلتقي فيها عدة نصوص ضمنها الشاعر إنتاجه بغض النظر عن الزمن الذي تنتسب إليه ، وعن غرضها وموضوعها . لذا تقول كريستيفا (كل نص هو امتصاص أو تحويل لوفرة من النصوص)(77) وغالبا ما تكون عملية التناص تلقائية كأن يتشابه الموقفان المحال والمحال عليه ، أو أن يرغب الشاعر في إيجاد علاقات بينهما والتنبيه إليهما .

-٥ . Ducrot, T . Todorov: Dictionnaire encyclopedique des scineces du langage. Seuil (77) Paris 1974 p . 446

ويختلف التعامل مع النصوص باختلاف النصوص ، فبينما يكتفي البعض باجترار النصوص المحال عليها و التعامل معها بوعي سكوني . أو امتصاص النص كمرحلة أعلى من قراءة النص الغائب فلا يجمد هذا النص وإنما يكون التعامل معه وفق المتطلبات التاريخية المستجدة وأعلى مراحل التعامل معه هو الحوار بحيث إن الشاعر لا يكتفي بتأمل النص وإنما يغيره (78).

وإذا تأملنا الحركة النصية التي كانت العينية الصغرى محورها نجدها كلها من قبيل التناص الإجتراري ذلك أن النصوص التي تعاملت معها وقفت مشدوهة أمامها وقدستها ، ولم تتعامل معها بوعي سكوني فقط ، وإنما أقصى مرادها أن يكون نص السهيلي إلى جانب نصوصها .

وإذا علمنا الغاية من قيام الشعراء بمعارضة وتخميس وتسديس العينية بطل العجب : فقد أثر عن جماعة من العلماء كابن دحية والسيوطي وابن جماعة ومحي الدين النووي قولهم (ما قصد أحد هذه الأبيات، ودعا الله تعالى عقبها بشيء إلا استجيب له) (79) . وبذلك فعملية التناص هاته هي نوع من القراءة ، مع أمل إدراك مكانتها .

وسنكتفي هنا بالإشارة إلى النصوص التي دارت في فلك العينية ، على أننا سنفصل القول في أسلوب التعامل معها في مجال آخر :

- فأحمد بن عبد العزيز السجلماسي عارضها بقصيدة مطلعها :

يا ربنـا بالسبعــة الغــر الأولــــى لـهم مـن الفـــضل المقــــام الأرفـع

وختمها بتضمين أول شطر فيها آخر بيت في قصيدته ،

يســر لنــــا مــاأضــمرتــه قلوبنـــــا يا مـن يرى مــا في الضـمـيـر ويسـمع

- وخمسها إبراهيم السنوسي بقصيدة ، مطلعها:

مــولاي باســمك ثم حـــمـدك أضـــرع ويمـن لـديـك لـه المقـــــــام الارفـع

- وأشارحاجي خليفة إلى تخميس ابن حجة الحموي لها بقصيدته

قـــالـوا عـــداك و أنـت حي تســـمـع . . . . (80)

(78) ظاهرة الشعر المعاصر بالمغرب ، محمد بنيس . دار العودة 253

(79) إظهار الكمال 345 ، والإعلام 8/ 64 .

(80) كشف الظنون 2 / 1341 .

- وقيل في تسديسها نص مطلعه :

إن كنت حقا من ذنوبك تجـــــزع   فـافـزع إلى البـاري بقلب يخشـع (81)

- وقد أشارت المصادر إلى أسماء أخرى تعاملت مع القصيدة العينية بنفس المنظور وهذه قرائن على سيرورة النص وتأثيره بالرغم من قصره . إذ صار بمثابة القصائد المشهورة لبعض أعلام المدح النبوي في المشرق والمغرب التي دارت حولها حركة شعرية ونقدية واسعة النطاق .

البائيـــــــــة :

البائية كالعينية الكبرى من بحر الطويل ، وقد سبق أن فسرنا اعتماد الشاعر البحور الطويلة (82). وسلك أحسن صور هذا البحر إذ لم تتجاوز زحافاته القبض في فعولن ومفاعيلن ، ويتضح ذلك من خلال هذا الجدول :(نرقم التفعيلات تسهيلا لإحصائها :

(1) فعولن   (2) مفاعيلن

(3) فعول   (4) مفاعلن

	الشطر الاول				الشطر الثاني			
التفعيلية	1	2	3	4	1	2	1	4
نسبة التردد	%50	%100	%50	%100	%70	%100	%70	%100
التفعيلية	3	-	1	-	3	-	3	-
باقي النسبة	%50	-	%50	-	%30	-	%30	-

فقد وازن الشاعر بين مفاعيلن صحيحة و مقبوضة ، وزاوج بين فعولن صحيحة و مقبوضة كذلك مع تغليب الأولى .

أما قافية الباء فهي من أكثر الحروف ورودا في القوافي(83) . ورويها مطلق (أي متحرك) والحركة التي قبله قصيرة (متحركة كذالك) . وصورة القافية عموما من صنف المتـدارك (تـوالي حركتين

(81) الاعلام 8 / 77 - 78 .

(82) انظر نموذج الإستعمال العريض في العينيتين ص 208 و 222 من الأطروحة .

(83) موسيقى الشعر 275 .

قبلهما ساكن) وهي مستقلة بنفسها غير مفتقرة إلى ما بعدها أو ما قبلها . وهذه من أحسن صور القافية عند العروضيين (84) .

- الوحدة المطلعيــة :

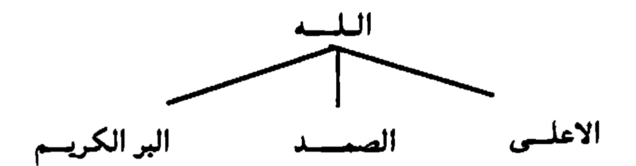
صـرفــت إلــى رب الأنــام مطالبـــي ووجهــت و جهـي نحــوه ومآربــــي

إلى الملك الأعـلى الــذي ليـس فـوقـه مليـــك يــرجى سيبــه في المساغــب

هو الصـمـد الـبـر الــذي فـاض جـوده وعـم الـورى طـرا بـجـــــزل المـواهب

بالرغم من حرص الشاعر على توفير التصريع في المطلع ، والتكرار (ملك) في البيت الثاني ، فليس هناك ما يشير إلى اهتمامه بالمكونات الصوتية لهذه الوحدة المطلعية . و لا تفسير لذلك إلا في الإتجاه العام لشعر السهيلي القائم على التوارد والتلقائية والبساطة .

وسيرا على نمط مطالع القصائد الأخرى يتجه الشاعر نحو تعظيم الخالق وإظهار قدرته وسلطانه ليبرر لجوءه إليه ، ويصفه بصفات هي :



وبنى على هذه الصفات ثلاث مقولات موازية :

- الأعلى ----------> ليس فوقه مليك .

- الصمد ----------> صرفت إليه مطالبي ، وجهت إليه مآربي . . .والصمد في اللغة السيد المقصود الذي لايقضي دونه أمر.

- البر الكريم -------> فاض جوده على الورى، ويشير كذلك إلى أنه المرجى في المساغب .

(84) موسيقى الشعر 275 .

فمنذ المطلع يظهر المنحى الذي ستأخذه الأبيات وهو مخالف لما سبق أي منحى الإستجابة ومنذ المطلع كذالك يبرزمنهج الإحالات القرآنية التي يتخذها الشاعر أساسا لتسنين التوسل وجعله معتمدا على ركائز نصية .

- ففي البيت الأول إحالة إلى قوله تعالى (إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا) (85) ، وقوله (وأن أقم وجهك للدين حنيفا)(86) فالإعتبار الديني أساس لتمام التوسل ونجاحه .

- وفي الثالث إحالة واضحة إلى سورة الإخلاص. ونتساءل لماذا تمت الإشارة إلى " المساغب " والتي لايتغلب عليها إلا بالعطاء الجزيل(السيب). فهل نظمت القصيدة في أعقاب أو أثناء طاعون سنتي (واحد و سبعين و خمسمائة واثنين وسبعين وخمسمائة)، وما رافقه من مجاعات وأكدار ، فقد هلكت فيهما آلاف من البشر، منهم بعض كبار رجال الدولة (بما في ذلك الخليفة نفسه)(87) .

التوسل :

مجيري من الخطب المخيف وناصري	مغيثي إذا ضاقت علي مذاهبي
مقيلي إذا زلت بي النعل عاثرا	واسمع غفار واكرم واهب
فما زال يوليني الجميل تفضلا	و يدفع عني في صدور النوائب
ويرزقني طفلا وكهلا وقبلها	جنينا و يحميني دنيء المكاسب

منذ بداية التوسل نلاحظ اختفاء تلك الثنائية التي كانت سائدة في العينيتين : ثنائية القوة / الضعف ، واليأس / الأمل . . . ففي البائية خط موحد ، واتجاه واحد هو الإستجابة . لذا يطالعنا بمجموعة من المكتسبات من خلال سرد تجربته مع الخالق سبحانه فيبين أن أفضاله عليه أربعة

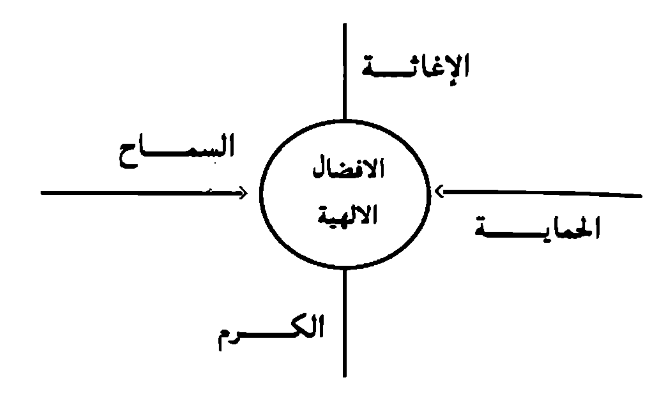
(85) سورة الانعام ، آية 79 .

(86) سورة يونس ، آية 105

(87) انظر التفاصيل مع أسماء المصابين من الشخصيات في الإستقصا 2 / 151

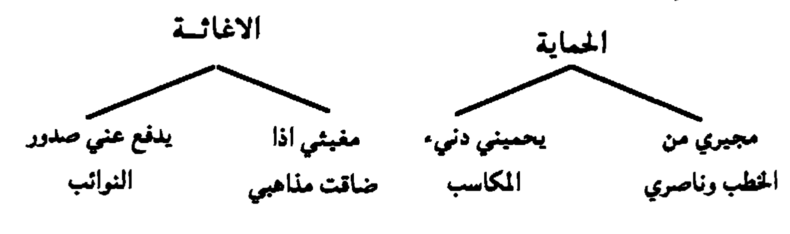
- Marrakech des origines a 1912 P. 201 .

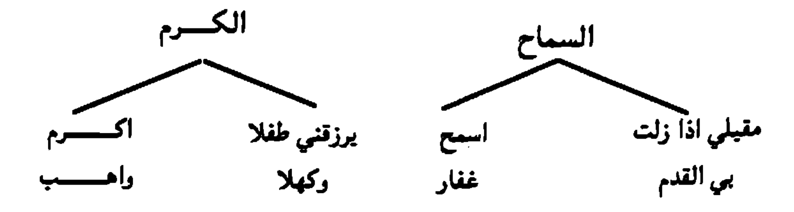
تكون محور القصيدة بكاملها فتأتي باقي الأبيات لتوضيحها أوالتعليق عليها ، وهي :



وفي هذا المقطع يفصل هذه الأفضال الرباعية ، كالتالي :

الحمايةالإغاثة





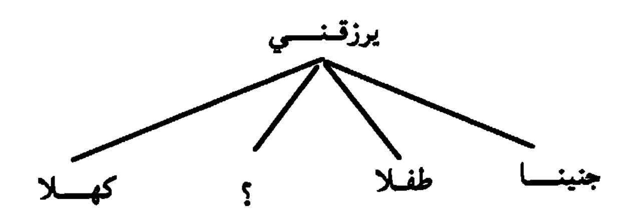
والمعـجم السـائد هو مـا سـميناه مـعـجم ما يؤمل أن يكون ، أي الذي له دلالات الأمل والفضل والعفو . وتستوقفنا صيغ بعض الأفضال ومدى علاقتها بالتوسل،خاصة وأننا لم نجد لها شبيها فيما سبق ، كقوله : (مجيري من الخطب المخوف وناصري . . .) فما هو الخطب المخوف الذي يجيره منه ويناصره عليه ، هل هو عمله ؟ أو ذنبه ؟ و كيف يناصره عليه ؟

لا نعتقد ذلك . خاصة وأن جملا أخرى تكون مع هذه قرائن تساعد على تأويل آخر . فقد قال في الوحدة المطلعية (يرجى سيبه في المساغب) والتي سبق أن وقفنا عندها . وإذا علمنا أن القدماء كانوا ينشدون القصيدة كما قال الأمين الصحراوي (في نزول الشدائد) (87م) تأكد لنا بالفعل أنها قيلت بمناسبة شدة من الشدائد التي عرفها عصر الشاعر و ما أكثرها . وقد رجحنا أن يكون ذلك وباء ومجاعة (واحد و سبعين ، واثنين و سبعين وخمسمائة) وهذا ما يجعل " للخطب المخوف " و " المساغب " و " ليس فوقه مليك " تفسيرات واضحة ومعبرة

فإذا رجعنا إلى الأفضال الأربعة تبين لنا بعد هذا التخريج أن الحماية والإغاثة قصد بهما الواقع الحادث ، وأن السماحة و الكرم من التوسل المعتاد لدى الشاعر.وفي المقطع تجانسات حرفية :

- ففي البيت الأول تجانس استهلالي صوتي، و تجانس خلفي صرفي في الياء

- و في الثالث تجانس استهلالي صوتي ، وخلفي صرفي في الياء كذلك . وكان لتكرارالياء بهذه الكثافة تأثير موسيقي، خاصة وأنها وردت في كلمات ممدودة : مجيري، مقيلي، يوليني ، الجميل ، يحميني . . . . وفي هذا التكرار تلذذ بعرض أفضال الخالق على الشاعر (استعمال ضمير المتكلم) وفي ترديد الياء نزوع إلى النداء ، وفي استطالة للآهات ، وهي قرائن توضح ما يطبع النص من تعبير عن حالة الحزن التي تغشى الشاعر والمتوسل مهما تحدث عن الإستجابة والعفو . . . وفي المقطع كذلك تقابل سياقي بين طفل ، كهل، جنين، مع ملاحظة إغفال الشاعر لمرحلة من مراحل حياة الإنسان و هي الشباب . فهل طلب الرزق مقتصر على حالات الضعف المشار إليها على أساس أن حالة الشباب هي حالة قوة لا يلتمس فيها الرزق وإنما يعتمد على السعي؟ أم أن الضرورة الشعرية لها يد في ذلك ؟ فقد قال :



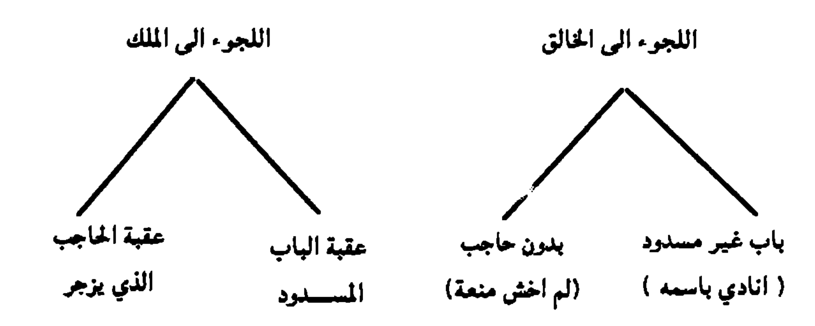
(87م) عن الاعلام 8/72 - 73 .

إذا ســدت الأمــلاك دوني بابهـــا ونهنـه عـن غشيانهـم زجـر حـاجـب

فزعـت إلى بـاب المهيمـن ضارعـا ذليـــلا أنـــادي باسمــه غير هائـب

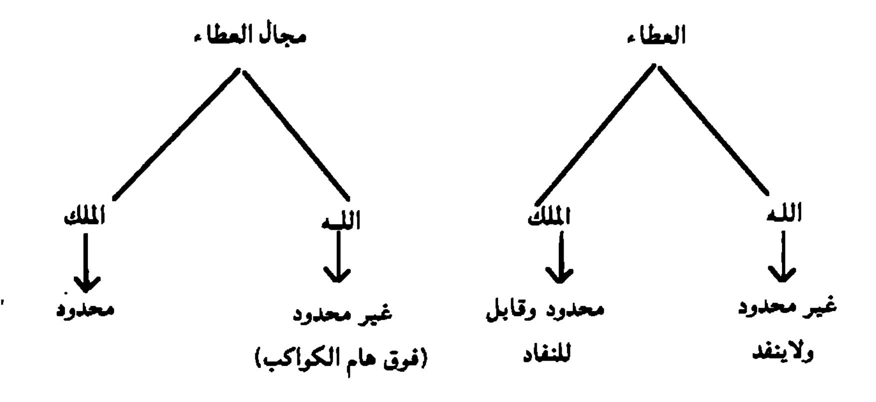
فلم ألـف حـجـابـا ولم أخش منعـة وإن كان سـؤلي فـوق هــام الكواكـب

ويستمر في الحديث عن تجربته مع خالقه مركزا على واحد من الأفضال الأربعة المذكورة : وهو الكرم . وإبرازا لأهمية الكرم الإلهي وسعة العطاء الرباني ، يدخل في سلسلة من المقابلات بين الملك الأعلى ، الصمد ، البر ، وملك الوقت ، ومواقف كل منهما .



فالخالق يقبل الدعاء مباشرة ، ويقبل طالبه بدون حجاب .

ويوازن بين عطاء الله وعطاء الملك :



وهو هنا يفضح ظاهرتين من الظواهر الإجتماعية في عصره :

- اللجوء إلى الملوك والتهافت على ابوابهم .

- تشديدهم لتنظيمات الحجابة ، فسواء في حكم عبد المومن الموحدي أو يوسف . . . كانت الحجابة من التنظيمات الدقيقة التي توكل لمن توفرت فيه شروط اللباقة والذكاء وبعد النظر (88) . ويبدو من خلال الأبيات - ومن واقع حياة السهيلي - أنه كان من أزهد الناس في لقاء الملوك ، فقد كان فقيرا كفيف البصر ، خامل الذكر يعيش على الكفاف ، ولم يطلب السلطان ويقصده، وانما كانت المبادرة من يوسف عندما نبغ السهيلي واشتهرت تآليفه، فطلبه الى مراكش (89) .

وساق الشاعر هذه المقابلات في أسلوب تقريري سردي يحتوي على صورة واحدة (وإن سؤلي فوق هام الكواكب) كناية على البعد والعلو وصعوبة التحقيق فالوظيفة المعنوية لها هي الدلالة على البعد . والوظيفة هي الدلالة على استحالة التحقيق ، إلا أن الأمر بسيط وهين لدى خالق الكواكب نفسها . كماأن هناك تراكيب لفظية : نهنه ، زجر....تتضمن تناغما صوتيا ، ويثير جرسها مطابقة بين الكلام والصورة ، وهي في ذلك مثل قولنا الجحفل ، الجرار . . .

كريم يلبي عنده كلما دعا ... نهارا و ليلا في الدجاوالغياهب

يقول له لبيك عبدي داعيا ... وإن كنت خطاء كثير المعايب

فما ضاق عفوي عن جريمة خاطيء ... وما أحد يرجو نوالي بخائب

فلا تخش إقلالا وإن كنت مكثرا ... فعرفي مبذول إلى كل طالب

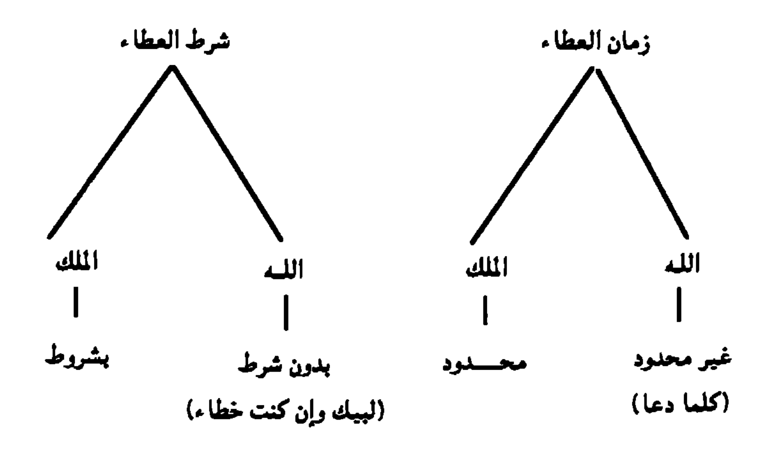
---

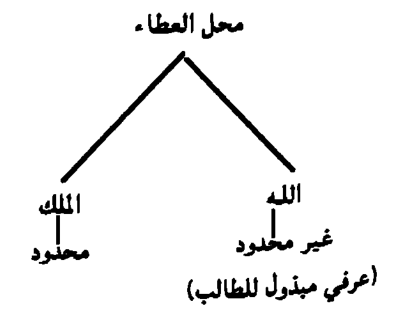
(88) لأهمية موضوع الحجابة عند الموحدين كان المراكشي في المعجب يتحدث بعد ترجمة كل خليفة عن أسماء وزرائه و كتابه و حجابه .

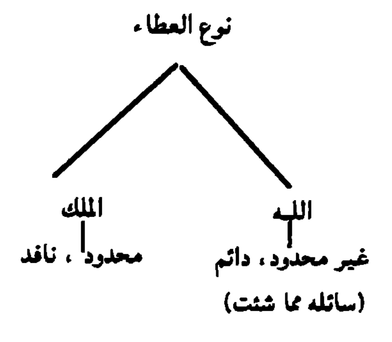
(89) إظهار الكمال 335 ، و الاعلام للزركلي 4 / 86 .

فسائلـه متـى شئـت إن يمينـــه تســح دفاقـا بالمنـى و الرغائـب

يحدث تحول في هذا المقطع إذ يستعمل الشاعر ضمير الغيبة بدل ضمير المتكلم ، فبعدما كان يروي تجربته مع الخالق وافضاله وأنعامه عليه ينتقل إلى التعميم . امكانية تعميم هذه الأفضال على الخلق عموما ، فيستعمل لذلك ضمائر الغيبة ، وإلى جانبها ضمائر المخاطب الذي هو المحور الأساسي المقصود بالكلام، فنوعها بين كاف الخطاب و تاء الضمير . . . . ومع تحول محاور الخطاب بقي الموضوع واحدا كما بيننا ، لذا استمر في تفصيل الأفضال الرباعية المذكورة في المقطع السابق ، وفي المقارنة بين عطاء الملك الأعلى (الخالق) والملك الأرضي (الخليفة)، من حيث الزمان، والشروط، والمحل، والنوع . . . وفي كل الحالات يبدو ضعف العطاء الأرضي بالمقارنة مع العطاء الرباني :







وتستند هذه المقابلات على آيات قرآنية وأحاديث نبوية نذكر منها جزءا من حديث قدسي طويل رواه مسلم عن أبي ذرالغفاري، أن النبي (ص) قال فيما يرويه عن ربه (. . . يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذ أدخل البحر (90) . وقوله تعالى (ما عندكم ينفد ، وما عند الله باق) (91) .

ومع ما تتضمنه هذه النتيجة من تعظيم للخالق وتوحيده وتنزيهه مسايرة بذلك مذهب الموحدين ، إلا أنها لا توازيه بتعظيم الخليفة الذي أصبغ عليه شعراؤهم هالة من الجلال والقداسة منذ ابن تومرت امامهم المعصوم . . .

وجر هذا التقابل الموضوعي بين (الله والملك) إلى تقابلات معجمية وسياقية تدعم أحد الإفتراضين : عظمة الخالق / عجز المخلوق . ليل / نهارا . عفو/خطأ إقلال/ إكثار . . . وإلى أسلوب حواري جدلي يشخص فيه حديث الخالق وجوابه . وفي المقطع صورة شعرية مألوفة عند الشعراء : وهي تشبيه العطاء الوفير بالماء الغزير وهو عطاء محقق للآمال والرغائب . وتفهم دلالة الصورة باعتبار البيئة الصحراوية العربية حيث يعز الماء الذي هو عنصر الحياة وأساسها ، ويكون – عندما يتوفر– أهم المنى والرغائب . وبذلك فإن الشاعر يستمد الصورة من ذاكرته الشعرية ، أكثر مما يأخذها من واقع حياته التي لايلعب فيها الماء نفس الدور .

فحسبي ربي في الهزاهز ملجئا   وحرزا إذا خيفت سهام النوائب

يختم الشاعر مقطع التوسل الذي قابل فيه بين عطاءي الإله والملك بنتيجة هي الإعتماد على الخالق وحده (حسبي ربي) وهي نتيجة بديهية ومنطقية على وجه العموم ، إلا أن منطق العصر كان يقضي ويوجب اختيار نتيجة معاكسة أي اعتماد السلطان ، إذ لايخفى مدى تهافت العلماء والشعراء والكتاب على بلاط الموحدين لما عرفوا به من سخاء وكرم ورعاية لأهل العلم (92) .

(90) الحديث 24 من الأربعين النووية

(91) سورة النحل ، آية 96 .

(92) في المعجب إشارات إلى تشجيع الموحدين للأدباء و العلماء 215 - 217 - 239 - 242 - 292 . ط . القاهرة 1949 . و انظر كذلك الفصل الثاني من كتابنا الدولة الموحدية ط 1 / 1983

ويعود الشاعر إلى الأسلوب الذي بدأ به في الوحدة المطلعية : تعظيم الخالق واظهار ضعف الشاعر وعجزه هزاهز ، ملجأ ، حرز ، سهام النوائب . . . وطبيعي أن يبدي الإنسان ضعفه أمام الخالق سبحانه، وخلق الإنسان ضعيفا .وتستوقفنا عبارة هزاهز، ففي تركيبها المضاعف تناغم صوتي يثير جرسه مطابقة بين الكلام والصورة : فالهاء من حروف الإهتزاز يعطيه اقترانه بالزاي (حرف مجهور، وحرف صفير) تنغيما خاصا . يزيده اصرارا وتأكيدا التضعيف ، فتصبح له دلالات الاهتزاز والاضطراب وهو مدلول الكلمة في اللغة (الفتن والحروب) . وما أكثرها في عصر الشاعر، وخاصة فترة يوسف بن عبد المومن أي الفترة الأخيرة من حياة السهيلي(93).

وبهذا فالشاعر لا يختارالجانب الإلهي في العطاء فقط ، وانما في الحياة العامة ، فهو يحتمي به من فتن العصر وحروبه ونوائبه ومصائبه جملة وتفصيلا . فيقرر زهده في الدنيا على وجه العموم .

- الشفاعـــــة :

وحسبي رسول الله في كل أزمة ... ملاذا وأمنا في اختشاء العواقب

وحسبي رسول الله أوثق شافع ... وأكرم من مدت له كف راغب

عليه كما هب النسيم تحية ... تفوح بها الأرجاء فيح السباسب

وأزكى صلاة ينتهي القطر دونها ... ويقصر عن إحصائها كل حاسب

يخصص السهيلي مقطع الشفاعة في كل قصائده لتحقق هدفين :

1) إضافة حجة لتبرير التوسل ، أو لطلب تحقيقه وهي حجة الشفاعة النبوية المقررة بالنص .

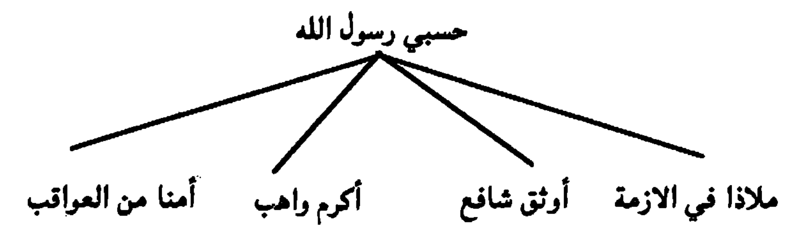
2) الصلاة على الرسول والسلام عليه وعلى آله الأخيار.

لهذا ذكر الشاعر (أوثق شافع) وزاد عليها - نظرا لخصوصية النص - اعتبار الرســـول

---

(93) انظر تفاصيل الحديث عن حروب الموحدين في فترة يوسف ، خاصة في تاريخ المن بالامامة لابن صاحب الصلاة .

(ملاذا في الأزمة) . والأزمة أو الهزاهز والخطب المخوف ، والمساغب كلمات تؤكد مجتمعة خصوصية النص وخروجه عن توسل عادي الى استنكار لما عرفه المجتمع الأندلسي / المغربي - في عصر الشاعر - من اضطراب وأزمات أخذ منها الناس مواقف متباينة ، لهذا كله لا يركز المقطع كعادته على الشفاعة ، وإنما يثير قضايا أخرى، ويجعل الرسول معتمده فيها، نجملها فيما يلي :



فيجمع بين الأمل الأخروي (الشفاعة) و القصد الدنيوي (أزمة ، عاقبة . . .) وفي التكرار الأفقي لجملة حسبي رسول الله إصرار وتركيز للقصد.

أما بيتا الصلاة والسلام عليه فشكليان مكرران مع ما فيهما من تشبيه معاد (كما هب النسيم ، ونزل القطر) وهما مأخوذان كغيرهما من صور الشاعر من الذاكرة الشعرية لكثرة تداولهما في الشعر العربي عامة ، وفي مقامات المدح النبوي خاصة .

وفي تكثيف عناصر النص : معجميا ، صوتيا تركيبيا نلاحظ :

1) وجود معجم دلالي ثنائي يعبر أحدهما عما هو كائن : خطأ، خطب، خوف . . . ويعبر الآخر عما يؤمل أن يكون : شفاعة، كرم . . . فالبرغم من أن محور النص هو الاستجابة، فإنه لم يخل من اعترافات الشاعر بالذنب والتقصير والخوف وخاصة في مقطع المقابلة بين عطاء الله وعطاء الخليفة ، ومقطع الشفاعة (يظهر ذلك جليا في الجدول الرابع) . فبما أن المحور كان هو الإستجابة فإن الفاظ " المؤمل فيه " أو " المتوقع " جاءت أكثر إلحاحا من غيرها ، وكان القصد منها إثبات اللجوء إلى الخالق ، والإعتماد عليه وحده فيما يعرفه العصر من أحداث و حوادث كما بينا .

ما هو كائن	التوارد	ما يؤمل أن يكون	التـــوارد
خطا	2	كرم	3
خوف	2	رجاء	2
دعاء	2	أمن	1
افزع	1	جود	1
جرم	1	حرز	1
خطب	1	حماية	1
خيبة	1	رزق	1
ذل	1	رغائب	1
شكوى	1	شفاعة	1
ضيق	1	عرف	1
مطالب	1	عفو	1
نوائب	1	غفران	1
هزاهز	1	غوث	1
		فضل	1
		مآرب	1
		ملاذ	1
		منى	1
		مواهب	1
		ملجا	1
		ناصر	1
		نوال	1
المجموع	16	المجموع	24

جدول رقم 4 - معجم التوسل

2) استمرار إهمال الجانب الصوتي في النص ، فالتمديدات الصوتية التي تفيد استطالة الآهات والحزن قليلة ، وكذا الجناسات والمقابلات وغير ذلك من الوسائل التي يتوسل بها الشعراء إلى

إغناء الموسيقى الشعرية . ومع ذلك وجدنا كلمات تتوافق معانيها وأصواتها ، وتناسبا حرفيا في الأبيات على وجه العموم ، مع تكرار حرف الياء .

3) تركيبيا : لا اثر لذلك التعادل النحوي أو الفعلي بين الأبيات والذي لاحظناه في العينيتين ، ويمكن تفسير هذا الإختلاف باختلاف البنيتين في العينيتين : بنية ثنائية مقابل بنية قائمة على محور واحد في البائية . لذا جاء التعادل النحوي والفعلي لتدعيم البنية المذكورة وتأكيدها .

ونفتقد كذالك أساليب الشرط الموجودة في النصين السابقين التي تتسم بمنحاها الحواري الجدلي و تختص بلا زمنيتها ، فهي و إن كانت تعبر عن زمن معين فإنه ينزع بها إلى إفادة الإطلاق لتصلح للحاضر و المستقبل والدوام . ولعل هذا ما جعل التراكيب الشرطية في العربية تعبرعن الحكمة التي تتجاوز الزمن الذي قيلت فيه،لتكون صالحة لكل الأزمان .

وقد كان الشاعر يقصد هذه الأهداف في العينيتين (لذااتخذت الصغرى منهما نموذجا يحتذى ويقتدى به) في حين أن البائية خصصت - فيما نعتقد - لتحديد موقف الشاعرمن بعض أحداث عصره (94) .

أما الأسلوب فيغلب عليه الطابع السردي المباشر ، فالصور الشعرية القليلة الواردة في هذا النص - والنصوص الأخرى - غير إبداعية وتقعد فيها الرؤية بالشاعر على أرض الواقع الخارجي ، ولا تستطيع تجاوز الحسية والسطحية والنقل المباشر (95) . وتحتكم إلى عمل مرسوم ومخطط في الذهن فتكون موحية محطمة للحواجز بين الموجودات و معبرة بصدق وإخلاص عن المعاني والأبعاد التي يهدف الشاعر إلى إيصالها للمتلقي يبقى أن أهم ما في قصائد السهيلي معجمها التوسلي وقيمتها الدلالية باعتبارها صنفا أدبيا مهملا في عصر سلطت فيه الأضواء على أصناف أدبية أخرى ومع ذلك تمكن من إثبات الذات ليصبح نموذجا يقتدى به فيما بعد .

---

(94) و نشير إلى أن بعض المتأخرين ذكر أنها صارت مستعملة في نـزول الشدائـد ، الاعلام 8 / 72

(95) انظر مقدمة رسالة د .أحمد الطريسي : الرؤية و الفن في الشعر المغربي مرقونة بخزانة كلية الآداب بالرباط .

خلاصـــــة

عرف السهيلي بكتاباته في اللغة وشرح السيرة النبوية أكثر مما عرف بالشعر والادب . فلم يكن يروج بين الادباء الا عينيته الصغرى " يا من يرى ما في الضمير ويسمع " التي عورضت وخمست . . . لذلك اغفل ذكره كثير من دارسي الأدب الموحدي بالأندلس (96) . فاختياره ضمن سبعة رجال مراكش لن يكون بسبب اتجاهه الأدبي بالدرجة الأولى (97) ، ولعل هذا ما يفسر المستوى العام الذي كان عليه شعر السهيلي ، وخاصة الجانب الصوتي ، وجانب التركيب البلاغي ويلقي الضوء في الوقت ذاته على الجانب الدلالي المعجمي .

لقد تحدثنا عند ختام تحليل كل قصيدة عن خصائصها ، وسنضع الآن خلاصة عن شعر السهيلي عموما :

1) بالرغم من وجود تقسيم أولي للنص الشعري (مطلع / توسل / شفاعة) فإن المقطع الأساسي الذي هو التوسل لايتضمن أي تحضير أو ترتيب مسبق، وإنما يخضع لما سميناه بنية التوارد ، لذا يحدث فيه التكرار والبتر، وينعدم التسلسل المنظم للمعاني والأفكار .

2) وقد حاولنا إيجاد رابط و قاسم مشترك بين النصوص الثلاثة (هو هاجس الذنب) ، فلاحظنا بالفعل خطا تطوريا من نص إلى آخر اعتمدناه في ترتيب التعامل معها . فقد كان محور العينية الكبرى هو الذنب / العفو ، وهو يوازي في اعتراف صاحبه بالذنب والتماسه العفو مقام التوبة عند الصوفية . في حين تطور الوضع في العينية الصغرى إلى محور الفقر / الفضل الذي كان التركيز فيه على الإفتقار إلى الخالق والتماس فضله ، واعتماده دون غيره (استمرارهاجس الذنب) وتأتي البائية لتكميل هذه المعاني حيث تكون الإستجابة الإلهية محورها مما يوازي مقام التوكل عند الصوفية . وبذلك نلمس بوادر بنية تطورية بين النصوص .

---

(96) منهم محمد مجيد السعيد في كتابه " الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس . لم يذكراسمه في الفصل المخصص للشعر الديني ص 257 - 293 ط . الكويت 1980 ،ونحا نحوه أغلب الدارسين .

(97) انظر ما قلناه عن تنظيم زيارة سبعة رجال مراكش ، في الفصل الثالث من الباب 1 .

3) هذه البنيات الثنائية جعلت معجم النص مقسما إلى مستويين : يعكس الأول اعتراف الشاعر بالذنب والفقر . . . أو ما سميناه التعبير عن الواقع (أو ما هو كائن) ، ويعكس الثاني تشوف الشاعر إلى محو آثارهما بالعفو والفضل والإستجابة ، أو ما سميناه التعبير عن المتوقّع (أو ما يؤمل أن يكون)

وبالرغم من وجود تفاوت بسيط بين معجم المستويين من نص إلى آخر ، فإن انشغال الشاعر بهما معا جعل عدد ورودهما في النصوص متقاربا على وجه العموم ، كما يبدو من هذا الجدول الجمعي :

النصوص	تردد ماهو كائن	تردد مايؤمل ان يكون
العينية الكبرى	36	34
العينية الصغرى	19	11
البائية	16	24
المجموع	71	69

4) وبحضور هذا المعجم التوسلي المزدوج يغيب أي نوع آخر من المعجمات كالمعجم الصوفي مثلا بمفهومه الموضوعي الذي نجده عند بعض معاصري السهيلي كمحي الدين بن عربي المشهور ، وأبي الحسن الششتري ، أو معجم السيرة النبوية ذي الوظيفة المرجعية الذي لاحظنا غناه عند عياض ، والذي استمر في الأندلس على عهد الموحدين عند امثال ابن الجنان ، وأحمد بن ميمون الأشعري ، وعلي بن إبراهيم الأنصاري وغيرهم (98) .

ونصل بذلك إلى النتيجة التالية : ان الخطاب الشعري الصوفي عند السهيلي كان أقرب إلى المنحى الزهدي عند موسى المارتلي ، وابن الوكيل ، و ابن محرز البلنسي منه إلى المنحى الصوفي الفلسفي عند ابن عربي والششتري والرعيني وأضرابهم (99) .

(98) الشعر في عهد المرابطين و الموحدين بالأندلس 269 – 293

(99) نفس المرجع .

5) وستتفرع عن الملاحظة الأخيرة عدة نتائج :

- على مستوى مضمون شعر السهيلي : طغيان الوظيفة الإنفعالية للغة على الوظيفتين المرجعية و الشارحة .

- الإتجاه إلى تسنين التوسل بالإلتزام بإكثار الإحالات القرآنية والحديثية ، ويمزجها بذكاء داخل النسيج التوسلي .

- الدفاع عن وحدة الأمة و جمع كلمتها : بتقرير الوحدانية وتعظيم الخالق ورد الإعتبار إلى النبوة ، مع الدعوة إلى نبذ الإنقسامات وترك الفتن والإسهام في الإضطرابات بالرجوع إلى الخالق وطلب فضله وعطائه وكرمه .ولعل هذا ما جعل السهيلي يستدعى من طرف يوسف بن عبد المومن الذي كان يعاني من الفتن و الإضطرابات التي كان يتزعمها بعض زعماء الأندلس كابن همشك ، وابن مردنيش ، وأتباع ابن قسي وغيرهم من الذين كانت تغذيهم أطماع مسيحية استردادية أو نزعات صوفية فلسفية ، بالرغم من إهمال الشاعر للإتجاه الموحدي . وقد أدت خطورة الوضع في الجزيرة بالخليفة إلى قضاء زمن غير قصير من حكمه بها و إلى تعرضه للقتل في إحدى معاركه بها .

6) ولهذه الأسباب كذلك خلا شعر السهيلي من كل آثار المذهب الموحدي التومرتي بما فيه من مبالغات وتهويلات ، ودعوة إلى المهدوية والعصمة بالرغم من أن الفترة التي عاشها كانت فترة ازدهارهذا الإتجاه وأن أغلب شعراء الأندلس ساهموا فيه بتلقائية وكثافة . فهذا الإتجاه يتعارض والأهداف التي حددها السهيلي لشعره من نزوع إلى السنة ، واعتصام بالخالق ، ونبذ للخلاف ودعوة إلى وحدة الأمة . في حين أن الإتجاه الموحدي كان في أغلب عناصره خارجا عن السنة ، داعيا إلى تعظيم الإمام ، وتقديم الخلافة الموحدية على ما سواها . . . فكان مصدرا من مصادر التفرقة وسببا فيها . الشيء الذي جعل أواخر الموحدين (المنصور، ثم المامون) يدعون إلى تركه والعودة إلى الأصل [100] : التقيد بالسنة .

---

(100) انظر كتابنا عن الدولة الموحدية ، الفصل 2 على الخصوص ط . 1 / 983

المبحث الثالث - شعر المعاني عند الغزواني

بعد عياض والسهيلي ننتقل مباشرة إلى الغزواني (آخر الرجال السبعة زمنيا) ذلك لأن أبا يعقوب يوسف المبتلى لم يخلف آثارا على وجه الإطلاق .أما السبتي فإن ارجوزته في الكيمياء (101) ، وزايرجته (102) ، بعيدتان عن شعر التوسل والمدح النبوي الذي يهمنا . واشتهر الجزولي بأحزابه وتصلياته ، ولم ينسب له ولا لتلميذه التباع أي شعر .

ويعتبر الغزواني أوفرهم شعرا وأغزرهم إنتاجا ، إذ بلغ مجموع ما جمعنا له أزيد من الفين وثلاثمائة بيت وهو قدر مهم إذا أضيف إلى أدعيته وأحزابه وأوراده وكتاباته عن الطريقة والمشيخة والقطبية والمريدين وغير ذلك من الموضوعات الصوفية التي كانت تشغله ، اتضحت مكانته في التأليف والكتابة بين سبعة رجال مراكش .

إلا أن هذا الشعر يطرح مجموعة من الإشكاليات :

1) لايستقيم وزنه دائما إذ غالبا ما يفلت زمام العروض من يد الغزواني ، فيستمر في شطحاته الصوفية ومناجاته الإلهية غير مكثرت بعلم الخليل وعروضه . وإذا كانت الأراجيز أكثر التصاقا بالوزن عنده فإن هناك قصائد أخرى لا نكاد نجد فيها بيتا موزونا . مع العلم أن الغزواني كان يسمي هذا الإنتاج شعرا في قوله : وهذه قصيدة ، ومن قصائدي . . . وقلت قصيدة . . .

2) تكثر فيه الضرورات الشعرية التي تدفع بالشاعر إلى التضحية باللغة و خاصة في القافية .

3) المزج بين الكلام العربي الفصيح والدارج في بعض النصوص ، وخاصة منها الأراجيز التي كتبت بأسلوب وسط بينهما .

(101) م . خ . ع . ر . مجموع رقم 2000 د ص 122 - 124 .

(102) الزايرجة : دائرتها و جداولها ، تاريخ ابن خلدون 1/ 913 - 939 ، ط . دار الكتاب اللبناني 1956 .

4) كثافة المصطلح الصوفي وغموضه : فقد جاءت النصوص غنية من حيث مضمونها وعميقة من حيث دلالاتها ، تكثر فيها المصطلحات ، مما طبعها بطابع الغموض أحيانا . ولعل هذا ما جعل القدماء يقولون بأن كلام الغزواني غامض لا يفهمه إلا من فتح الله عليه . وهو نفس السبب الذي دفع الغزواني إلى شرح بعض قصائده بنفسه

5) طول بعض النصوص وتنوع موضوعاتها: فقد بلغت أرجوزتاه على التوالي (ستة وتسعين وأربعمائة بيت / وستة وسبعين وسبعمائة بيت) . فإذا أضفنا إلى هذا كثافة المصطلح وغموض الدلالة ، تبينت لنا الصعوبات التي تواجه دارس شعرالغزواني وبالمقابل نجد نصوصا أخرى قصيرة مشتملة على سبعة أو تسعة أبيات . . .

فهل يمكن رد هذا القصور في شكل القصيدة ، وهذا العمق والغموض في مضمونها إلى أن الغزواني كان رجل فكر وتصوف ولم يكن شاعرا ، وإنما اقتحم ميدان الشعر لأسباب ذكر بعضها في مقدمة قصيدته المسماة " مســـائل الأنوار وتحفة مناقب الأخيار " عندما قال بأنه نظمها للمريدين والذاكرين (لكي تتعالى أصواتهم و تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) (103) . أم أن ظروف الإبداع و شروطه هي التي حتمت عليه ذلك ؟

والحقيقة ان هذه القضايا تطرح اشكالية التجربة الصوفية في علاقتها باللغة والتعبير والتوصيل : فالتجربة الصوفية في أصلها تجربة ذاتية داخلية و متغيرة ، يصعب تحديدها ووصفها للآخرين . واستعمال اللغة العادية لايخول ذلك بدقة ، ولذلك يحتاج الصوفي إلى صقل لغته وتطويعها حتى تتناسب وعمق التجربة وتغيرها (المقامات والأحوال) (104) .

وإن " اجتماعية التصوف " وتحوله من حركة ذاتية إلى طرقية تطرح أهمية اللغة وتوصيل التجربة الذاتية . لهذا يتجاوز الصوفي سجن العبارة المشتركة ولا يقف عند حدود اللغة وإنما يتعامل معها باعتبارها إشارة إلى دلالات تساير تغير التجربة وتحولها من حال إلى حال ومن مقام إلى مقام . وعلى المخاطب أن يكتشفها ويقف على معانيها . وهذا الإتجاه نحو الإشارة جعل لغة التصوف مطبوعة بطابع " السر " الذي هو جزء من الحقيقة الصوفية نفسها . ونتج عنه :

(103) النقطة 89 .

(104) النقطة 89 .

- غموض النص الشعري الصوفي

- كثافة المصطلحات

- دعوتهم إلى حماية العامة من الكشف عن هذه الإشارات والأسرار التي لا تكشف إلا للخاصة .

- تهميش قواعد اللغة والعروض ، وكل القوالب الجامدة التي لاتساير التجربة الصوفية .

لهذا اضطروا في كثير من الأحيان إلى شرح شعرهم بأنفسهم أو شرح شعر غيرهم من الصوفية لكشف أسراره . وقد يعجزون عن حل رموزه، وإشاراته . فهذا الغزواني يعترف في مقدمة شرحه لقصيدته " مسائل الأنوار " أنه سيقتصر على شرح الألفاظ دون المعاني لأن فهمه قاصر على إدراك " أحكام الربوبية"(105) لأنه كان يعتبر التجربة الصوفية (الشعرية والنثرية) " كشفا ومناجاة الهية " . لذلك أكثر من استعمال عبارات : خاطبني الحق سبحانه . . . (والكلام من مخاطبة الحق العزيز السلام بعد تصفية السرائر من تصفية الضمائر ثم تصفية البصائر ، ثم تصفية الأسرارثم وفاء سر الأسرار) (106) . وهذا موضوع سنعود إليه فيما بعد .

وكانوا مع علمهم بمخالفة شعرهم لقواعد اللغة والشعر، يسمونه شعرا، و يدعون إلى تركه كما هو . و يحثون على قراءته و العمل بمقتضياته . فقد قال الغزواني :

عليكم بالقصيد ولازموا حفظها فإنها شفاء ومرهم ذواتها

وفي أخرى :

فقو حافظها بفهم ألقيته و سهل عبارتي في عز إشارتي

و قال أحد المتأخرين من صوفية الطريقة الشاذلية عن شعره : (من طَلب المعاني وجدها ، ومن طلب الحروف والأوزان يبقى معها) (107) .

(105) انظر هذه المخاطبات في باب مناجاة الإلهام من كتاب النقطة 161 - 171

(106) النقطة 161 .

(107) هو محمد البوزيدي شيخ ابن عجيبة ، انظر كتاب كنز الأسرار للمعسكري 123 .

وبالرغم من هذه الصعوبات التي تعترض دارس شعر الغزواني فإننا سنقدم على ذلك محاولين التعرف إلى موضوعاته ومضامينه وخصائصه .

- المصدر :

ورد شعر الغزواني كله في كتابه " النقطة الأزلية في سر الذات المحمدية " الذي يضم إلى جانب الشعر مراسلات بين الغزواني وعلماء عصره، كاللقاني، والهبطي، حول موضوعات صوفية مختلفة . وأجوبته على تساؤلات بعض المريدين والتلاميذ في حلقات الذكر والدرس التي كان يعقدها في زاويته بمراكش . كما يضم نصوص مناجاته الإلهامية ، ودعواته و أوراده ، والحديث عن طريقته وعلاقته بشيخه التباع . وبهذا يمكن القول بأن كتاب النقطة وحده يعطينا تصورا متكاملا عن فكر الغزواني وطريقته بفضل الوثائق الغزيرة التي يشتمل عليها . وتوجد منه عدة نسخ في المكتبات العامة والخاصة كالخزانة الحسنية والخزانة العامة بالرباط ، وخزانة ابن يوسف بمراكش . إلا أن بعضها مبتور أو ناقص . وتتخللها بياضات بقدر كلمة أو كلمات . وأحيانا بقدر أسطر .

لذا اعتمدنا في هذه الدراسة على نسخة خاصة أعارها لنا حفدة الشيخ الغزواني -مشكورين- وهي وإن كانت متأخرة النسخ ، فقد تم نسخها ومقابلتها على نسخة قديمة خرجت من يد الأسرة الأمغارية حسب ما أفادنا به مولاي ابراهيم الأمغاري حفيد الشيخ ومقدم الضريح (108) . إلا أنها لا تخلو بدورها من تحريفات وتصحيفات، تم تجاوز كثير منها بمقابلتها مع النسخ الأخرى . وترجع هذه التصحيفات إلى غموض عبارة الغزواني واكثاره من المصطلحات وعدم اشرافه بنفسه على نسخ الكتاب أو مراجعته، إذ أنه جمع بعد وفاته فصعب على النساخ إدراك كثير من المعاني والألفاظ، واكتفوا برسمها أو ترك بياض مكانها . وهذه صعوبة إضافية تعترض دارس أدب الغزواني .

وفيما يلي جرد لقصائد الغزواني ، و عدد أبياتها :

---

(108) اطلعنا المقدم المذكور على وثائق و كنانيش مهمة عن الأسرة الأمغارية و عن الشيخ الغزواني منها ما يتصل بموضوعنا و ما لا يتصل به ، إضافة إلى هذه النسخة الكاملة من الكتاب فله جزيل الشكر .

عدد أبيات القصيدة	عدد القصائد	مجموع الأبيات
أقل من 20 بيتا	12	144
بين 21 و 50	15	458
بين 51 و 100	01	069
بين 100 و 500	03	985
أكثر من 500 بيت	01	776
المجموع	32	2432

جدول رقم 1 - جرد لقصائد الغزواني من كتاب النقطة

وقد تناول الغزواني فيها أغلب الموضوعات التي يتناولها الصوفية عادة : من تعظيم للخالق ، و دعوة إلى حبه ، والمعرفة الصوفية ، والمقامات ، والمجاهدات كالذكر . . . وسنتطرق إلى هذه الموضوعات عموما :

- الذات الإلهية :

ليس باستطاعتنا صياغة نظرية متكاملة عن الذات الإلهية و علاقتها بالعالم من خلال شعر الغزواني . فقد يتيسر ذلك في دراسة رسائله ومناظراته مع العلماء . أما الشعر فتغلب عليه الصبغة الوجدانية . إلا أن ذلك لا يمنعنا من التقاط بعض آرائه في الموضوع . وهي آراء مشربة بروح المدرسة الأشعرية ومقولاتها في الذات والصفات والأسماء . فالشاعر يجنب العقل من الخوض في ماهية الذات ، لأنها تتجاوز طاقته وإمكانياته . ويتحدث على العكس من ذلك عن الإيمان " بالقلب " و " الكشف " والإلهام :

سبحانك من إله جودك في قلبي سبحانك من إله علمك في قلبي

ويكتفي بما قاله الخالق عن نفسه (هو الأول والآخر والظاهر والباطن)(108 م) .

هو الاول والآخر والظاهر ومكنون في باطن منجهر

(108 م) سورة الحديد ، آية 3 .

وقال على لسان الخالـــق :

أنا هو الأول و الآخر حـــقـيـقـــة لاظاهرولاباطن من دوني في ذاتيا (كذا)

وهو كما قال عن نفسه " لاتدركه الأبصار " (109) :

عـجزت الأبصار و الأفكار و الأذهان من بعد تحقيقهم في وصل مرضاتنا

وقـد أقـر الغزواني في إحدى رسائله الموجهة إلى أبي عبد الله التونسـي (110) بعجزالعقل البشري عن إدراك حقيقة الـذات الإنسانيــة والعالـم الخارجي المحيط بها (111) أحرى أن يدرك أسرار الربوبية والمعاني لأنها خارجة عن دائرة العقول ، ومن تم كان (عقال العقل الشريعة) كما يقال . وكان ضلال كثير من الفرق راجعا إلى اعتمادها على العقل ، وعدم تقيدها بالوحي الإلهي .

وقد عبر الصوفية عن عجز العقل في نوادر و نكت كثيرة ، منها مايروى عن النوري عندما سئل : ما الدليل على الله ؟ قال : الله تعالى . فقيل : فما بال العقل ؟ قال : العقل عاجز والعاجز لا يدل إلا على عاجز مثله .ولما خلق الله العقل ؟ قال : من أنا ؟ فسكت . فكحله بنور الوحدانية فقال : أنت الله . فلم يكن للعقل أن يعرف الله إلا بالله (112) .

إن معارفنا عن الخالق يجب أن تكون موازية لما جاء في الكتاب والسنة ، وكل ما عدا ذلك باطل . وحتى الكشف الذي يعارضهما باطل وغير مقبول :

---

(109) سورة الأنعام ، آية 103 .

(110) مما جاء في مخاطبة الغزواني لأبي عبد الله التونسي ص 21 :

فيا سيدي التونسي و صل صلاتك وقـدم الوتـر عـن الشـفـع إبطـك

فكم من آية و كم من عـبـارة عـاجـز عن قـصـر الادراك في نفسك

انظر ترجمة التونسي في شجرة النور الزكية 281 رقم 1061، و جذوة الإقتباس 322/1 - 323 و سلوة الأنفاس 281/3 - 283 .

(111) النقطة 64 .

(112) التعرف لمذهب اهل التصوف للكلاباذي ص 63 .

* فهو أزلي دائم الوجود بجوهره وذاته ، مكتف بها ولا حاجة له إلى شيء آخر يعنيه على البقاء أو دوام الوجود :

- له الوجود و البقاء و القـــــدم   و يبصــــر ما سبــق فـي قــدم
- موصوف و متصف في ذاتي المقدسة   قـديم قـبل مـا كنا ومـحي القلوب

وفي هذا إشارة إلى الحديث (كان الله و لا شيء معه) .

* ومتصف بالوحدانية :

فـأنا واحـد لا إله غـيــــــري   نميت و نحـيي و السـعـيـد يقـرب

وفي هذا إشارة إلى آيات قرآنية كثيرة تقرر هذه الوحدانية مثل (إنني أنا الله لا إله إلا أنا) (113)

* واحد في ملكه لاشبيه له ولا مثيل ، والقائل بغير ذلك مدع كاذب

مـن ادعـى ورأى ثـانيـــــا   لاجـوهر ولاعـرض يـسـمى باسـميـا

* وهو متصف بمعاني أسمائه وصفاته (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) (114)

فـأسـماؤه مـوصـوفـة بالحسنـــى   أبحـــارها مطـويـة في جـــرسنا

* وهو أصل الوجود ، خلق الخلق تجسيدا للأسماء والصفات ، منه ما هو نور ، وما هو ظلمة ، ما هو شر ... وقد أشار إلى ذلك على لسان الخالق :

لأني واحــد و مني كل الوجــــود   للأصل تنادي و الفرع تفضليا (كذا)

وأكد نفس المعنى في قوله :

فـأنت خـالقي و أنت ميعــــزي   وحـيـاة روحي وجـسـدي وقلبي

ويتجه أغلب شعر الغزواني في هذا الباب :

---

(113) سورة طه ، آية 14 .

(114) سورة الاعراف، آية 180 .

* إلى تعظيم الخالق و تقديسه اعتبارا إلى ما أشرنا إليه من وحدانيته وأزليته . و نمثل لذلك بقوله في مخاطبة الصوفية والمريدين في حلقات الذكر :

وقـومـوا على أقـدامنا تعظيـمـا لله سـبـحـانه من إله مـولانا مـولانا

* وإلى الإقرار بكماله و اللجوء إليه في كل شيء :

وإليك أقـر بكل كـمالـــــــــك أوجـــدت شكرك و أظهـــرته لنا

وهكذا فبالرغم مما عرفته حلقات الذكر عند الغزواني من شطح وجذب ، فإن ذلك لم يخرجه عن إطار ما ورد في الكتاب والسنة عن موضوع الذات الإلهية .

- الـذات المحمديـة :

من المقرر لدى الصوفية أول شيء خلقه الله هو نور النبي محمد (ص) (النور المحمدي) . فاعتبروه " الإنسان الكامل " والمثل الأعلى للأخلاق والحياة الصوفية . وقد ألقى الخالق في قلبه بالإلهام والوحي علوم الأوائل والأواخر وعلوم الحقائق والشرائع . لذا عجز الناس عن معرفته ، فاكتفوا بالإنقياد لحكمته انقياد الملائكة لآدم عندما لم تدرك علمه .

ويعتبر أصحاب نظرية الإنسان الكامل الرسول صورة للتجلي الإلهي الأزلي ، بعيدا عن الصورة البشرية المشخصة للنبوة . وقد سمى الغزواني كتابه (النقطة الأزلية في سر الذات المحمدية) مركزا على مسألة النور المحمدي . واعتبر الصوفية الرسول نموذجا للأخلاق البشرية ككل : يجد فيه بغيته و قدوته كل من الفقيه ، والمريد و الواصل ، والصانع ، والزوج . . . لذا جاءت رسالته إلى البشر كافة . كما أنهم يسعون إلى تقليد الآثار المحمدية (التشبث بالسنة) إلا أنهم يختلفون من حيث درجات هذا التقليد :

* تقليد الظاهر بالأخذ بالشريعة يتدرج فيه المقلد إلى أن يلج مقام الإسلام .

* تقليد الباطن ، يتدرج به إلى الأخذ بالطريقة إلى أن يلج مقام الايمان . وتقليدهما معا والتدرج إلى الوصول إلى الحقيقة وولوج مقام الإحسان (115).

---

(115) تحدثت أغلب كتب التصوف عن هذا الموضوع ، منها : الانسان الكامل لعبد الكريم الجيلي . انظر الإنسان الكامل عند ابن عربي ، لريتا عوض ، مجلة الباحث عدد 2 السنة 1979/2 .

وقد عبر الغزواني عن الإنسان الكامل والنور المحمدي والرسالة النبوية في أبيات منها :

- من آدم إلى محمد حبيبـــــــه - سراجنـا ونـورنـا فـي أصلابـــه
قـد جـاءنا نبـينا بالرسـالــــــة مـــحـــقـــقـــا وآمنا مـــفـــضـــلا

ويسعى الصوفية لإدراك هذا الكمال :

مادامت الأقطاب في كمال محمـــــد مـادامت الأقطاب تصلي على محـمـد

وبالرغم من أنه خصص بعض القصائد لمدح الرسول ، منها قصيدته :(تخصيص أهل الوفا في مدح المصطفى) ، فإنه لم يسلك في ذلك منهج البوصيري وغيره من المداحين وإنما كان له منهجه الخاص به اهتم فيه بقضايا مثل اتباع سنته، تعظيمه ، حبه، طلب شفاعته ...فمما قاله في الحث على اتباع سنته

- و الفـوز من يفـوز بمحمـــــــد و الأخـــذ بسنتـــه مسرمـــــد
- زين السمـاء و الأرض يعجـــب و من يرى مـــقـــامـــه أقـــرب

والغاية من هذا التقيد بالسنة الفوز بالشفاعة :

لا عـز يقـابل فـخره إن تقدمــــــا لشـفـاعـة الأمم بالجـزم مـحـتـزم

وبأسلوب الذكر المعتمد على التكرار والإعادة يعظم الغزواني الرسول ويصلي عليه ويقر بمحبته .فقد قال في تعظيمه ومكانته عند ربه بين الأنبياء

تبـارك يا مـن هـو اسمه أحمـــد ففـاز أهـل الوفـا كمالا في وفائنـــا
تبارك من اسمه محمد و أبو القاسم في جنة المأوى و جنة رضـــوانـنـا

وقال عن علمه و قدره :

أعلـى الـورى لـذوي الهجـــــرة و إيمـــان الأنصـــار محمـــد
علمـــا و إتقـــانا بـالرســـالة مـــجلي الظلام بأنوار مـــحـــمـد

وشطحات حبه للرسول متناثرة في كثير من القصائد ، سواء تلك التي خصصها للمدح أو غيرها . فكثيرا ما نجده يردد مثل :

حُبُّ النبي مـحـمـد في قلبي تجلـــّى و به نفـــخـــر و ســـاداتي يا فُقَر

وللصلاة على النبي نصيب وافر في شعره خاصة وأن التصليات جزء مهم من اذكار الطريقة الجزولية الغزوانية . وجاءت في عبارات متقاربة

وبالله نصلو على النبـي محمـد و بالله نصلو على الشفيع محمد
ونصلو على النبي محمد الهادي ونصلو على الشفيع محمد الهادي وبه
ونصلو على النبي محمد الهادي وبه انجلى نور الله فـقلوبنا

و على عادة أهل السنة يربط الصلاة على النبي بالرضى على الخلفاء الراشدين

وصـل إلهنـا صـلاة موافقـا على الخير التقى محمد الهاشـم
ثم الرضى عن أبي بكر و عـمـر وعـثـمـان وعلي درر الإسـلام

وهكذا فإن الغزواني لم يكرر في أمداحه أسلوب ذكر المعجزات والنسب والشمائل وغير ذلك مما عودنا عليه شعراء المدح النبوي وإنما ركز حديثه عن الرسول في تعظيمه وإبراز مكانته وقدره وإبداء حبه والصلاة عليه بأسلوب شبيه بما سنجده لديه في الأذكار والشطحات الصوفية . وسيتضح لنا هذا الإتجاه في الجدول المعجمي الذي سنثبته في آخر هذا المبحث

- المعرفـة الصوفيـة :

يميز العلماء بين المعرفة الصوفية التي هي معرفة ذوقية حدسية ، تمتاز بقوة اليقين ، وتحقيق المعرفة برب العالمين ، وكشف الحجاب ومحو الشكوك والأوهام ، وبين المعرفة الفقهية البرهانية التي تعتمد على التحليل والعقل . لذلك رفع الله الأولياء على العلماء درجات ، بل أن منهم من يجعلهم فوق مستوى الأنبياء أنفسهم لقولهم بالعلم اللدني المأخوذ مباشرة عن الخالق بلا واسطة، في حين أن الأنبياء يأخذون عنه بواسطة الملائكة (116) .وقد أشارالغزواني إلى هذا العلم اللدني في قوله :

ساداتي فرحوني بالعلم اللدنـــي و أين هو جار لقاب قوسين (كذا)

هذا العلم الذي يتشوق إليه الأقطاب لأنه ينتهي بهم إلى الكشف عن توحيد الصفات ... وهو بطابعه الرمزي يصبح " سرا " لا يدركه إلا الذين جربوه وعبروا مراحله

---

(116) التصوف إيجابياته و سلبياته ، أحمد محمود صبحي ، عالم الفكر مجلد 6 عدد 1975/2 .

- وكل المحامد من علمك إلينا ومنها يرتجي رضاء أقطابنا
- يا رب بعلمك كنت لنا دليل وفي سر اللطف أول الازل

ويتصل موضوع المعرفة الصوفية بمقولات الجمع والفرق المترددة عند الغزواني :

- فهنالك معرفة أهل الفرق : وتقف عند حدود الظواهر الطبيعية ، وهم أهل الحجاب لايشهدون إلا الآثار المحسوسة للصفات ويحجبون عن الذات . وعند الجرجاني في التعريفات (117) ، أنهم يمرون إلى الفرق الثاني ، ثم فرق الوصف ، وفرق الجمع : وهو تكثر الواحد بظهوره في المراتب التي هي ظهور شؤون الذات الاحدية . وتلك الشؤون في الحقيقة اعتبارات محضة لاتحقق لها إلا عند بروز الواحد بصورها .

- ومعرفة أهل الجمع : وهم أهل الجذب والفناء لايشهدون إلا الذات ، ويغيبون عن الصفات . فالفرق بداية الإرادة ، والجمع نهايتها (118) .

- وجمع الجمع هو آخر مقامات الجمع وأتمها وهو الاستهلاك بالكلية والفناء عما سوى الله، وهو المرتبة الاحدية (119) .

لقد شغلت هذه القضايا المعرفية الشيخ الغزواني فخصص لها عدة صفحات من كتاب النقطة وعبر عنها في عدة قصائد محاولا وصف تجربة تحوله من فرق إلى فرق ، ومن جمع إلى جمع في كثير من الغموض :

وأول جمعنا لعين الحقيقة وفرق ثان ظهور الولاية

الأبيات . . . وقال كذلك

ربنا تجليت من جمعك لفرقنا وكيف لا يكون ذلك لذاتنا . . .
ربنا أظهرت لنا في جمعك الرابع نفحة أصلنا و آية عزمنا
ربنا فمنك خاتمة فرقنا وجمعك الخامس محمد قبلتنا

---

(117) كتاب التعريفات 89 ، ط . تونس 1971 .

(118) نفسه 42.

(119) نفسه 42 .

وتنتهي هذه التحولات من الفرق إلى الجمع ، فجمع الجمع أو ما عبر عنه بالجمع الخامس بتحقق المطلوب ، وهو شهود الذات .

- مقــــام المحبــــة :

في القرآن الكريم إشارات إلى حب الله وما يترتب عنه اتجاه المحب . كقوله تعالى (فسوف ياتي الله بقوم يحبهم ويحبونه)(120)، (قــل إن كنتم تحبــون الله فاتبعوني يحببكم الله) (121) . (يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله)(122) . ويميز الصوفية بين محبة العوام : تثبت باتباع السنة ، وتنمو على الإجابة للعناية وهي محبة تقطع الوساوس، وتلذ الخدمة، وتسلي عن المصايب ، وهي عمدة الإيمان . . . ومحبة الخواص : وهي محبة خاطفة ، تقطع العبارة ، وتدقق الإشارة ولا تنتهي بالنعوت (123) . وفي حالة محبة الصادقين والعارفين تدخل صفات المحبوب على البدل من صفات المحب ، فيتحقق الحديث (. . . فإذا أحببته كنت عينه التي يبصر بها ، وسمعه الذي يسمع به ، ويده التي يبطش بهــا) (124) .

وعند الغزواني أن المحبة الصحيحة تطهر نفس المريد من كل الأدران والخبائث (المحبة شهود الله في خلقه ، فمن شاهد شيئا من ذلك شهدت نفسه واطهرت من جميع الخبائث فحل به الوجد العظيم الذي يسلبه من كل المــكاسب) (125) ويعبر الغزواني عن حب الله بعدة صيغ وأساليب (فصيحة ومعربة) ، فهو جميل ، وهو مراده :

عـز اللـه جليـل فيـه رضينــا　　　حـب اللـه جـميـل فيـه رضيـنا
حب اللـه مـرادنـا في و فيــنا　　　زكـينا يا عـالي عن كل أحـوالنا

و بـك نَقْتَــدِوْ فـي كل مـرادنـا

---

(120) سورة المائدة ، آية 54 .
(121) سورة آل عمران ، آية 31 .
(122) سورة البقرة ، آية 165
(123) محاسن المجالس 90 .
(124) صحيح البخاري ، الرقاق 38 .
(125) النقطة 36 .

... مرادنا وتصريفو عزنـــــا ما يبقى و لا يـــدوم إلا الله مولانــا

ويجعل الحب شجرة تغذي المريدين والزائرين

شـجـرة الحب عندي تغـذي المريدين و كل من أتى لله زايريـــــن
وحـسنهـا يضيء في قلوب الأقطاب الله الله يا الله يا سـاقي المحبـــة

لهذا يحث المريدين على الحب :

حبـو فـي قلبـي ساداتي وتواضعـوا ويه خلعتـي ســاداتي وتواضعـوا
يا أهل المحـبـة و سـر الولايـــة لله أجـيـبـوا في حـضـرة قـدسـه

لأن المحبة حلت بذاته وقلبه منذ الأزل :

الله الله يا الله في ذاتي هي المحبـا أزل و زلال و فنــــون الأقـطـــاب
ســاداتي الحب باين في قلبـــي ســـاداتي الحب أنـوار فـي قـلـبي

ويقرن حب الله بحب الرسول في مثل قوله :

الله يـا الله مـا لينا غيـــــرو و الحب مـا يخفى ساداتي الصوفيـة
الله يا الله قـــولوها يا الاجـــراس و النبي محمد سيـدنا خـير الـــناس
مـحـمـد الهــادي صلى الله عليــه

ولم يفلسف الغزواني موضوع المحبة والعشق الإلهي سيرا على مبادىء طريقته السنية، واكتفى بالتعبير عن تمكن المحبة في قلبه بالشرب، وتأثيرها عليه بتأثير السكر فتحدث عن "كيسان المحبة " ولم يتحدث عن " الخمرة الإلهية " :

- يا ساقي اسقنا بكـاس أهـل المحبة مـا زال مـرادنا يجـدب الأقطـــاب
- كيسـان الحب عندي لذات الأقطاب للــه و تواجـدو و بوحـو بالمحـبـة

وفي كل هذه القصائد توجه هذه الكؤوس للفريق الذي تقدم في طريق المجاهدة لا للمريدين المبتدئين ، لذا يسمي هذه المحبة " شراب الأقطاب " ، ويسميهم بالأحباب :

- يا سيـدي حليـــنا بكاس المحـبة ودور علينـــا شـــراب الاقطـــاب
- اللـه اللـه يـا مــــعين الاقـطاب اسق لنا احـبـابنا بكيـسـان المحـبـة

ويسمي " كأس المحبة " كذلك " كأس الحق " :

- شـاهدنا قلوبنا كـأس الحق يرضـينا   الله يا الله يا ســاقي واســقــينا

- الجـــــــذب :

والعلاقة بين المحبة والسكر والجذب أو السماع علاقة وطيدة ، أشار إليها الغزواني في حديثه عن المريد الذي تتمكن المحبة في قلبه (فتارة يتواجد ، و تارة يشطح ، وتارة يتمايل ، وتارة يخجل) (126) . وبواسطته يتم الإنتقال من التعبير بواسطة الإشارة ، ذلك لإن اللغة قد تعجز عن إعطاء وصف مدقق للتجربة الصوفية فيكون الجذب بما فيه من تجريد أكثر دلالة على التبليغ والتوصيل والتأثير . والجذب هي الطريقة التي يعرف بها من أسكره الوجد ما ينطوي عليه شعوره من حركة متوترة (127) .

وقد أجازوا الجذب لفئة معينة من السالكين وهم العارفون الذين وصلوا أو كادوا إلى الكمال الأخلاقي ، فهؤلاء لايضرهم في حين يضر العوام أو المبتدئين . لهذا وجدنا الغزواني يوجه خطاب " التواجد " إلى هذه الطبقة دون غيرها ، وهم الأقطاب :

- الله الله يا الله سادتي اتواجــدو   الله الله يا الله يشهـدو الأقطــاب
- الله الله يا الله قالوها الأقطـــاب   أين المحبين قالوهــــا الأقطــــاب
- الله الله يا الله بركة الأقطــــاب   و بها نتواجدو يا عشقين كل شربــة
- تواجدو ساداتي بحضرة الأقطاب   من يعـــشق أهل الله ينال شـــربة

ومنهم العشاق والصادقون والعارفون، وحب هؤلاء كما رأينا هو من صنف محبة الخواص :

- يــا عشاق همــوا فـــي حب الله   و قولوا اللـــــه الـلـــه اللـــه
- يـــا صادقــين اتواجــدو للـــه   و قولوا اللــــه.الـلــه اللـــه
- يا عــــارفين اتواجــدو للــــه   وقولوا اللــــه الـلــه اللــــه

ويدعوهم إلى الجذب والقيام على أقدامهم عندما يتجلى له الحق وإذا تناول كؤوس محبة الخالق ورسوله فإنه لا يقدر على الثبات والصحو :

(126) النقطة 36 .

(127) الرمز الشعري عند الصوفية 348 .

ساداتي أهل المحبة قوموا على أقدامكم　　الله الله يا اللـه اسـم اللـه اتجلـى
لله ساداتي قوموا على أقدامكـــم　　حب النبي مـحـمـد في قلبي اتجلى

وأحيانا لا يكفي القيام على الأقدام بل لا بد من الهرولة :
لله هرولو ساداتي الأقطـــاب　　و قوموا و تواجدوا نسقيكم كل شربة

ولا ينسى أن يشير إلى نتيجة الوجد وما سيخلفه على ممارسيه من خير و بركة :
لله تواجـدو اتنالو كل بركـــة　　فجزاك الله يافردالأقطاب غوث الاحبة

وصيغة التواجد والشطح في الغالب هي اسم الجلالة "الله" الذي تقوم الجماعة بترديده فيؤدي بها إلى الترقي في المعرفة الصوفية والفناء عن عالمي الملك والملكوت للوصول إلى عالم الجبروت .ولا يخلو الوجد من تعظيم الخالق عز وجل والتنويه بصفات الجلال والجمال والكمال :

الله الله يا دايم سبحانك يـا ربــي　　انت الجليل الجميـل مـا أعظمـك
الله الله يا الله سـري الجليـل عندي　　اللـه اللـه يا اللـه يا حي يا باقي

ويبلغ به الوجد أحيانا إلى ترديد اسم الجلالة وحده، والدعوة إلى الإقتصار عليه في الذكر، كما في قوله :

اللـه اللـه اللـه اللـه يا اللـه　　بذكـر الله بوحـدو الله الله يا الله

إلا أن سنية طريقته تجعله في كل حركاته يقرن الخالق بمبعوثه ، فيعظم الرسول بعد تعظيم الله عز وجل :

الله الله يا الله قالوه و شكـــرو　　اسـم النبـي محمـد و بـه انفخـروا
نقوموا جـلالا لتفضيل محـمـد　　هـو هوانا ســاداتي و تواجــدو

هذا هو تواجد العارفين الغارقين في التأملات الروحية فهو لايخرجهم عن وقارهم وأهدافهم ، و إنما يسمو بهم نحو الهدف الأسمى .

الذكــــــــــر :

ارتباط المحبة والجذب بالذكر وثيق . فلا نذكر إلا من نحبه والإكثار من الذكر يؤدي إلى

الجذب . وقد قيل كلام كثير في الذكر من حيث مشروعيته ، وأنواعه و ثمراته ولغته وحال الذاكرين مما لا يسمح المجال باستعراضه . فقوله تعالى (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكرو لذكر الله أكبر)(128)حدى بالعلماء إلى اعتباره أعلى مرتبة من الصلاة ، خاصة وأن آيات وأحاديث تنص على ممارسته في كل الاحوال (129)

وقد اهتم الصوفية بعبارة " لا إله إلا الله " في الذكر – كما بيننا سابقا – اهتمامهم باسم الجلالة (الله) في الجذب.

" فلا إله الاالله " جزء من الشهادة وفيها اعتراف بالوحدانية ولهذا جعلوا ذكرها سببا في (رفع الستور ودوام الحضور) . بل لقد اعتبروها أعظم من ذكر القرآن لأن الكتاب المبين يشير إليها في قوله تعالى (إن هذا القرآن يهدي للتـي هـي أقـوم)(130) والذي هو أقوم هو (لا إله إلا الله) .

وقد ركز الغزواني شعره في الذكر حول مسألتين :

1) **أهميـة ذكر الله و ثمراته** : بذكر الله تطمئن القلوب وتتطهر وترقى في درجات الكمال الأخلاقي ،عبر عن ذلك بصيغ متنوعة :

– ذكـر اللـــه عظـيم و شفـا لقلبـــي و حق جليـــل علـى أهـل القلـــوب

---

(128) سورة العنكبوت ، آية 45 .

(129) في قوله تعالى (الذين يذكرون الله قياما و قعودا وعلى جنوبهم) آل عمران 191. و كذا الحديث القدسي المروي عنه (ص) والذي يعطي للذكر أهمية بالغة(أنا عند ظن عبدي بي،وأنا معه حين يذكرني،فإن ذكرني في نفسه،ذكرته في نفسي ، و إن ذكرني في ملأ ، ذكرته في ملأ خير من ملئه . وإن تقرب مني شبرا تقربت منه درعا) صحيح البخاري ، توحيد 15– 43 . . . و روت أحاديث أخرى في الدعوة إلى الذكر و لزوم مجالسه . . . أشهرها ذلك الحديث الذي يردده الصوفية ، و فيه أن عليا سأل الرسول (ص) عن أقرب الطرق إلى الله وأسهلها على عباده وأفضلها عنده فأجابه بمداومة الذكر . وسأله عن كيفية الذكر فقال (ص) : غمض عينيك و اسمع مني ثلاثا ثم قل مثلها ، و أنا أسمع . فقال (ص) " لا إله إلا الله " ثلاث مرات مغمضا عينيه . ثم قالها علي كذلك . ولقنه علي للحسن البصري ، و أخذه شيوخ الطرق عن الحسن . . .

(130) سورة الاسراء ، آية 9 .

- ذكرالله شفـــا لقلبـي و روحـــي وبه أشرقت أنـــوار سبـوحـــي
- ذكـــر الله شـــفـــا ســـري و قلبي وهـدي وتـقـــوى لـكـل أقـطـابي

ويستمر ارتباط الذكر بالقلب لديه ، فهو ينور القلوب ، ويبدل خوفها أمنا ، ويبدي جلال الخالق وعظمته :

- ذكر الله ينور في قلـوب الخايفـين ذكـــر الله ينور في قلوب الذاكـرين
- ذكر الله أمـان فـي كـل الحقيقـــة خشية و علما لأهـــل الطريقــــــة
- بذكـــر الله شـغـفت قلوبنــــــا وزدنا مـــحـــبـــة و علم مـــولانا

إنه ذكر القلب (لا ذكر اللسان) يؤدي إلى الفناء والإستغراق في الذات الإلهية .وذكر الله بالقلب لايحصل إلا بعد تطهيره من جميـــع العيـــوب والعوائق المعنوية والمادية والنفسية . . . لهذا يختم الشاعر أحاديثه عن ذكر الله بمثل هذا البيت :

بذكــر الله ســادوا الأقطــــــاب و خـيـــر مـــا يرى قلوب المحـبـــة

2 - فوائد لا إله إلا الله : خصص الغزواني لعبارة " لا إله إلا الله " قصيدة مطلعها :

في قلبي درة لو أنها ظهـــــــرت لخر لها القمر و الشمس و الآيـــات
لا فـــهم ينالهـــا و لا وهم يحـصـرها تجـرد عن الكسب و همـة النفـحـات

وكشف عن هذه الدرة في آخر القصيدة بقوله

قـــوله أنا اللـه لا إله إلا أنـــــــا وكل الحـيـــاة لحـيـــاته ســاجـدات

وقد دعا المريدين إلى الإلتزام بقولها . ونشير هنا بأن فترة الخلوة للذكر - بالنسبة للمريد الجديد - من شروط الطريقة الجزولية الغزوانية :

لا إله إلا اللـه مـــريدي قـــولـوها و في كل الأســـمـــاء تجلت لقـــولي

وإذا كان المريد يتدرج في الأذكار وتتنوع بتقدمه في الطريقة ، فإن ترديد " لا إله إلا الله "يبقى ساري المفعول حتى لدى الأقطاب بل وبه يفوزون ، كما أشار إلى ذلك في القصيدة التالية :

لا إله إلا الله قـــالوها أهل المحـبـــــة و فـــازوا بمكنـــون كل شـريـــــــــة

ويؤدي ترديدها إلى تشبعهم بالتنزيه والتوحيد ، وإلى تطهير قلوبهم وتصفيتها :

لا إله إلا الله تنزيه الأقطـــــــاب لا إله إلا الله توحيد الأقطـــــــاب
لاإلــه إلا الـلــه تنزيهــا لربـــي لا إلـه إلا اللـه رحـــمــــة لقلبي
لا إلــه إلا اللـه مــــازال الحق يقـــال

لهذا اعتبرها خير ما يقال ويردد في السر والجهر ، في القرب والبعد ، في الفرق والجمع ، وفي كل الأحوال على وجه العموم :

أخير ما تقول لا إلـــه إلا اللــــــه في السر و الجهـــر لا إله إلا اللـه
لا إله إلا الله في السر قـولوهــــا لا إله إلا الله في الجهر مـــا أحلاهــا
أخـيــر مـا نقــول في الجـمع و الفـرق وكل مــــا يخــــتم لا إله إلا اللـه

إن دلالات الهـيللة واتخـاذ الرسـول الكريم لهـا ذكـرا في حـديثـه مع علي(131)، جعل الصوفية ومنهم الجزوليون ، يعطون لها مكانة خاصة في الذكر ويجعلونها إلى جانب اسم الجلالة محور أذكارهم وأحزابهم لأنها الكفيلة بالترقي بهم من عـالم الملك إلى الملكوت فعالم الجبروت . . . وهو ما تطمح إليه نفس كل صوفي ومريد. ففي وظيفة الغزواني تحتل الهيللة مكانا مرموقا (132) .

- وحـــدة الشهــــــود :

مع حديث الصـوفـيةالسنيين عن الفنـاء والجذب والمجاهدة . . . يرفـضـون نظريات وحدة الوجود والحلول وغيرهامما قال به بعض الغلاة من أصحاب التصوف الفلسفي .ذلك لأن القول بالوحدة والحلول معـارض للتنزيه الواجب للذات الإلهيـة لأنه يثبت اتحاداواقعيـا فعليابين الحـادث والقديم ، وبالتالي تغييرا في طبيعة هذه الذات . وهذا كفر .

لهذا صرح الغزواني بوضوح عن عدم قوله بالحلول في كثير من شعره مثل قوله
الله الله شـاهد في قـــولـــــــــي وســــمـعي وبصــري من غــيــر الحلول

وفي البيت إشارة إلى شيء آخر في استعمـال : شهود ، قول ، سمع ، بصر . . . وهو ما يسمى بوحدة الشهود . و المقصود بها وحدة المعرفة حيث يتجه الصوفي إلى معبوده الخالق عز وجـل ،

(131) انظر الهامش 129 .

وبذكره دائما ولا يغفل عنه ، وفي وحدة الشهود استغراق الفكر في موضوع الذات الإلهية ومراعاتها ذوقا وأخلاقا وإحساسا وعملا دون الزعم بالإحاطة بطبيعة هذه الذات ومعرفتها ، ودون إلغاء العالمين الإلهي / والطبيعي البشري (133) .

قال الغزواني (المحبة شهود الله في خلقه ، فمن شاهد شيئا من ذلك شهدت نفسه ، واطهرت من جميع الخبائث فحل به الوجد العظيم الذي يسلبه من كل المكاسب) (133م) .

وبذلك يتجلى الخالق في قلب الصوفي ، فيبلغ مقام الفناء فيه : وقد أشار الغزواني في شعره إلى هذا التجلي :

- الهي تجلـى في قلبـي وذاتـه في حبـي وقربـي
- وقـومـوا لـله تجلـى في قلبي وقلب ذوات الفـضـلا

وهذا التجلي يزيده تعظيما وتقديسا وتنزيها للخالق وفرحا به ولايؤدي - بعكس الصوفية المنحرفين - إلى الشرك والكفر :

- الهي عظيـم في قلبـي الهي منزه في قلبـي
- الـهي مـقـدس في قـلبي وا تـواجـدوا وفـرحـوا بـالله

وفي حالة وحدة الشهود والغيبة في الذات الإلهية يشاهد الصوفي الإله في كل شيء :

نشـاهدك في كل شيء محـقـقـا و سـر في علمك مـرفع الحـجب

ويصبح أمره بالحق لا بنفسه كما كان ابن مشيش يقول (حتى لا أرى إلا بالذات العلية ولا أسمع إلا بها و منها) (134) . وهو مضمون الحديث القدسي (... فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها) (135) . وإلى ذلك

---

(132) انظر وظيفة الغزواني و اوراده في الفصل الثالث من هذا الكتاب

(133) انظر من وحدة الوجود و موضوعات صوفية أخرى : التصوف إيجابياته و سلبياته ، عالم الفكر يوليوز 1975 / 15 - 60 .

(133 م) كتاب النقطة 36 .

(134) الصلاة المشيشية ، و شرح ابن عجيبة عليها 26 - 27

(135) الحديث في صحيح البخاري ، الرقاق 38 .

أشار الغزواني في قوله :

أنـــــا نقـــــول باللــــه و ســـمــــعي و بصـــري منه

وبعد الشهود ترتفع الحجب بلطف خفي من الله تعالى ، فتلمع المعارف في القلوب ويتم الإلتحام بين الذات والموضوع المطلوب فلا يشعر العارف بأي فاصل بين ذاته وما يطلبه (كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك) (136) . وهذا مايعبر عنه الصوفية بالمكاشفة، وتتم بعد فترة من الدهشة والتأمل والسكر، فإذ أفاق العارف منها و تمكن من الشهود ، رجع البقاء و كان لله و بالله .
و في مرحلة الدهشة أو السكر و هي المرحلة الحاسمة في المكاشفة يتحدث الصوفية عن مخاطبة الخالق لهم ، و عن التجليات التي تتم لهم بفضل ذلك . قال الغزواني :

لما خـــاطبني الحق في كل رتبـــة تجلت لي الاكـــوان في كل لمحـــتي

وبديهي أن الخطاب لا يكون مباشرا ، وإنما يقذف في قلب الصوفي وفي سمعه في شكل من الأشكال لقوله عزوجل(وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب...)(137) وفي كتـــاب النقطة مناجـــاة الهاميـــة ومـــخاطبات كتبها الغزواني على لسان الحق قائلا أنــــه الهمــــه إيــاها (138) ، ونظم كذلك أشعارا في نفس الإتجاه :

جنابي مـفـتـوح لكل داخـــــــل و علـمي ظـاهر لـكـل نـقـــــيب

و كان التصوف السني يسعى إلى تقييد المكاشفات بإخضاعها للشريعة ، و في هذا الإطار كان الجنيد يقول (إن النكتة (أي الخاطر) تقع في قلبي من جهة الكشف ، فلا أقبلها إلا بشاهدي الكتاب و السنة) و مما روي عن الشاذلي قولــــه : (أن الكشف يجب ألا يعارض الكتاب والسنة) (139) . وهذا ما وجدناه عند الغزواني في مناجاته وفي شعره :

لما خـاطبني الحق في كل رتبــــة تجلت لي الأكـوان في كل لمحـــتي
تحليت بالجـلال و الكـمال مـعظمـــا مـحـاسن الجـلال و أنوار الشـريعـة

---

(136) سورة الإسراء ، الآية 20 .

(137) سورة الشورى ، آية 51 .

(138) باب مناجاة الإلهام ص 161 – 171 ، عبارة عن 171 نبذة مبدوءة بقوله يا عبادي وتتبعها أجوبة في 8 نبذ مبدوءة بقوله " إلهي "

(139) إيقاظ الهمم لابن عجيبة ، فصل 122/2 – 123 .

وليس هناك أكثر تعظيما للشريعة من محاولة إخضاع الكشف لها برفض كل ما خالف الكتاب والسنة منه .

- الغزواني القطب ، و سنية الطريقة :

حرصت أغلب الطرق الصوفية المغربية على التقيد بالسنة والإلتزام بها ، حتى لاتخرج عن الدين ، وتنعت بالكفر . ويبدو ذلك بالنسبة للغزواني :

* في سنده المتصل إلى الجزولي ، ثم الشاذلي ، ثم الجنيد ، ثم الرسول صلى الله عليه وسلم .

* في عدم المبالغة في الجذب ، وتقييد المشاهدات بقيد الشريعة .

* في الإعلان المباشرعن الإقتباس من الهدي المحمدي، فقد شاهد الأسرار الإلهية من خلال شمس النبوة :

لما نارت شمسي من شمس محمدا فرأيت سر الله في سري ممدا (كذا)

فبلغ ما بلغه بتضافر الولاية وسر النبوة :

ما بين ولاية و سر نبوة أقامت شواهدنا بأم قسمتي

وبأسلوبه المركب الغامض ، يعبر الغزواني عن اختيار الخالق لنبينا محمد وتفضيله على كافة الأنبياء ، واستمداد طريقته من توجيهاته :

اصطفى إلهنا محمدا نبينا وكل اختياره جلت عن اختياركم (كذا)

وهذا ما جعله يحتم على " أهل إرادته " أو أتباعه أن يلتزموا بالسنة التي تمثل الصراط المستقيم ، ومن انحرف عنها حجب عن شمس الولاية ، فلم يستفد من مجاهدته أي شيء :

و هذا صراط لكل مستقيم فحقا واجبا على أهل إرادتي
و من يمل إلي و لم يخط خطوتنا بعده حجابه عن شمس الولاية

فلا بد لمن أراد منهم الفوز بالسر و كشف الحجب أن يتيقظ من غفلته و يلزم الشيخ و في إطار هذه الطريقة المحمدية :

وهرول إلينا وتيقظ من غفلتك فالسر لاينال إلا من الجرية

ويتعرض هنا لموضوع الشيخ و أهميته ، وهو - كما سنرى عند حديثنا عن كتاب النقطة - من الذين يقولون بضرورة الشيخ واهميته في الطريقة فبدونه لاتستقيم التربية ولاتكتمل (فاسألوا اهل الذكر ان كنتم لا تعلمون)(140) : والعلمـاء ورثة الأنبياء والمستغني عن الوارث كالمستغني عن النبي . . . ولا ريب في بلوغ الغزواني مرتبة الشيخوخة أو القطبية ، وقد ورثها عن شيخه التباع، وباعتراف أعلام الصوفية من عصره : كعبد الكريم الفلاح وعلي بن إبراهيم، وسعيد بن عبد المنعم ، وغيرهم . . . (141) .

وبأسلوب قريب من أسلوب المناظرة التي أفحم فيها الصوفية الطامعين في خلافة الشيخ التباع ، يعترف الغزواني بقطبيته ومكانته بين الصوفية . ويعتقد "بول نويا" أن الشيخ استعمل نوعا من الكتابة تدخل في الكلمات والعبارات والجمل بلبلة داخلية تجعل المخاطب يشك في معرفته باللغة العربية ، بل يشك بكل لغة كأداة تعبير من شخص إلى آخر (141م)

فطاوس أنا على كـل رايس ونسري في العلا طرشون في الصفة

وخاطب المريدين يوما مظهرا لهم مكانته واحترام الأقطاب له ، واعترافهم بقطبيته :

- و إن لم تكن أسماؤكم في الأعلى فإني عبد الله الغزواني ارتضاؤنا (كذا)
فسادتي أهل الوفا يعرفون تخصيصنا بالجمع مؤيدين في قطب و لايتي(")

أما أتباعه ومريدوه فعددهم كبير ، وإرادته نافذة فيهم ، يقصدونه للتوبة ولزوم الطريقة :

- عشرون و ألفا و كل ما أردت و همتي تنفذ في كـل آنيتي
- اهدنا للحقيقة يا قطب الصوفية ما جينا إلا انتوبوا يا سيد الأوليا

ولايخفي عنهم شيئا ، ولا يذخر وسعا في توجيههم وإفشاء الأسرار لهم ، حتى تنكشف الحجب عن قلوبهم ، وتتطهر ، وتتسرب إليها أنوار العلوم القدسية :

---

(140) سورة النحل ، آية 43 .

(141) تحدثنا عن هذا الموضوع في الفصل 2 من الكتاب 1 .

(141م) دراسات عربية و إسلامية مهداة إلى إحسان عباس بمناسبة بلوغه الستين ط 1 . 1981 بيروت ، ص 277

سادتي ساعدوني نفشي لكم سري آيات الله تتلى في السر و في الجهر
يارب اشرح لي قلوب الاولياء ايدهم بعلمك في حضرة قدسية
الله الله يا الله قالوه و صدقوا

ومن جملة التوجيهات التي يوجهها إلى هؤلاء المريدين الصادقين حفظ الطريقة ونصرتها والتوبة والخوف ، والإكثار من الذكر ، فهي وسائل لشفاء القلوب وتمتين المحبة :

و هب لنا القلوب لحفظ الطريقة و زدنا نصرة لعز الطريقة
علينا بالتوبة و ذكر الأقطاب شفاء للقلوب و نور المحبة

وتعرض الغزواني في شعره لمسألة مهمة كانت مطروحة في عصره وقبل عصره ، وهي مسألة زيارة الأولياء أحياء وأمواتا . فرد على منكريها ، مبينا مشروعيتها ، ودعا في نفس القصيدة إلى الإلتزام بالطريقة ، والتماس بركة الأشياخ ، مطلعها :

فقولوا للذي ينهى عن الزيارة قد حرمت من كل أدب الطريقة

ولا نريد الدخول في تفاصيل الكلام الذي دار بين طائفة المنكرين للزيارة والمبيحين لها ، وحجج كل فريق ، ومع ذلك نشير إلى أن المشكل لم يكن في الزيارة في حد ذاتها . زيارة الشيخ حيا أو ميتا - فهي مباحة ، ولكن في الأساليب المتبعة من طرف الزائرين كالذبح على القبور و طلب مساعدة الأموات ونصرتهم ، وغير ذلك مما يؤدي إلى الشرك بالله ويجعل هؤلاء الشيوخ ينفعون ويضرون ، يعطون ويمنعون .

إن الزيارة التي يدافع عنها الغزواني هي من النوع المباح أي زيارة الشيخ للتبرك ، والتماس التوجيه والمساعدة على سلوك الطريق والتغلب على العراقيل التي تطرح للسالك ، لهذا اعتبر المنكر مخالفا للسنة المحمدية جاهلا :

وخالفت سنة خير البريئة من حيث أوصانا بأشرف وصية

ويدعوه إلى التوبة حتى لايموت كافرا بحقيقة الصوفية وطبيعة تصرفهم، وما دام المريد مصدقا مؤمنا لايخاف قطيعتهم

- فتب من دائك و سلم لاحبتي و لاتمت كافرا عن تصريف حقيقتي
- فمن أتى بدعوة لإصلاحنا تلقاه شواهد بواطن سطوتي
- وحيث ما كان المريد مراديا تصديقا وإيمانا لا يخاف قطيعتي

أقطاب الطريقة الجزولية الغزوانية:

الطريقة الغزوانية كباقي الطرق الصوفية تحافظ بدقة على سندها وسنيته وانتهائه إلى الرسول (ص)، (142) .

وقد أورده الغزواني في كتاب النقطة . ونص على ذلك في بعض القصائد . إلا أنه اكتفى فيها بإشارة إلى الأعلام الكبار دون ذكر الشيوخ على وجه الدقة والتفصيل كما هو الشأن في الكتاب المذكور وفي غيره من كتب الصوفية . وركز على شيخه عبد العزيز التباع الحرار ووضع قصيدة على لسانه دعا فيها المريدين إلى اتباع طريقته والإنتساب إليها ، لما سيشهدون فيها من رفعة ودرجة وسعادة :

أنا التبـاع بكنيتي أشـــرف علـــى ذي منفـرد و مـخـصـوص بالعـلامـة
فكل مـن احتدى واتى اليـنـــا محفوظا أبدا و مجنـي السعـــادة
فـــافـــخــــر بنا يا كل مــــريد لابد من اللقـاء و شـهـود الرفـعـة

ومن أقطاب الطريقة المذكورين في شعر الغزواني ، الجزولي شيخ شيخه ، فقد قال عنه :

شـريف جـزولينا إمـام في جـمـعنـــا و مـــأوى لكل ألسنا أتبـــاع حـــارنا

وربط الطريقة بأصولهاالشاذلية بواسطة ابن مشيش والشاذلي:

وأظهـرت سكينة الوقـار في جـنبنـا من خير ما علا ابن مشيـش طاوسنـــا
ورفع تفـضـيلنا بكل تفـضـيلـــه أبو الحسن الشاذلي اسوة لحقنا (كذا)

وهكذا فإنه لم يذكر في شعره إلا اعلام الطريقة الكبار من المغرب والمشرق ، والذين كان لهم تأثير في الطريقة وتوجيه لها ، تاركا التفاصيل لتسلسل السند .

الرمـــــز الصوفــــي :

التجربة الصوفية ذاتية ومتغيرة (أحوال ، مقامات ...) لذا يختلف وصفها من صوفي إلى آخرباختلاف معاناته ومجاهدته وشروطه. ومن تم كانت اللغة في حد ذاتها عاجزة عن وصف مكونات هذه الطريقة بتفاصيلها.فتطلبت لذلك تجاوزا لغويا بوسعه أن يعطي دلالات تتجدد بتجدد هذه التجربةالروحية الباطنية، ولذلك استعانوا بأنواع الإشارات للتعبيرعن تجربتهـــم وتوصيلهـــا إلـى

(142) انظر هذا السند بتفصيل في الفصل 2 من الباب 1 .

الآخرين . وهذا المنحى الخاص نحوالإشارة جعل لغتهم مطبوعة بطابع "السر"على اعتبارأن ذلك صفة لحقيقةالصوفية ذاتها .

والرموز من هذه الإشارات لايفهمها إلا الخاصة الذين يخوضون تجارب صوفية . وفي كثير من مقالات الصوفية دعوة إلى حماية العامة من هذه الإشارات والأسرار ، وجعل التصوف عاما لايفهمه ولا يدركه إلا أربابه .

ويحاول الدكتور عاطف جودة نصر تفسير هذا التوجه الرمزي لدى الصوفية في مجال الشعر خاصة ، فيسوق رأي برجسون القائل بأننا كلما انتقلنا من الفيزيائي إلى النفسي والحيوي قلت درجة الموضوعية، وازدادت درجة الرمزية، لذا نحدد الطبيعة الحتمية للتعبير الرمزي عن التجربة الصوفية . وقد تحولت إلى صياغة شعرية، أو التجربة الشعرية النابعة من موقف صوفي، في الحالتين تأخذ الوضعية التجريبية التي يعبر عنا على نحو مباشر بلغة موضوعية في التقلص والانكماش، وتتوهج الرمزية وتزداد بحيث لايكون سبيل أو بديل يغني عنها، لأننا أصبحنا في حضرة ما هو نفسي وحيوي (143).

والرموز أنواع وأشكال مختلفة منها رموز الأماكن أو رموز الطبيعة ، ورموز الأعداد ، ورموز الحروف . . .

- فمن رموز الأماكن : تفسير عبارة ارجاع (بمجاهدات العارف في بداية السلوك) والرقمتان (بالروح) وسقط العذيب (بحضرة العرش)(144) .

- ومن رموز الحيوانات : البقرة (ترمز للنفس المستعبدة للرياضة) والحمامة (للنفس الكلية إذا بكت رمزت لبكاء الأرواح الجزئية لحنين الروح الكلي إليها ، وقطعها للبحار يرمز إلى ما يصادفه السالكون في سفرهم الروحي من حظوظ وأهواء ومخاطر وعقبات)(145) .

---

(143) الرمز الشعري عند الصوفية ص 503

(144) الرمز الشعري عند الصوفية 241 - 242

(145) الرمز الشعري عند الصوفية 297 .

واهتم الصوفية برموز الحروف إلى حد نشأة علم سمي بعلم الحروف مقرون بالأولياء (علم الأولياء) . وقد زعموا أنه انحدر إليهم من جعفر الصادق (الجفر)، وفي هذه النسبة ما فيها من غنوصية شيعية واضحة (146) . ويرر الصوفية مذهبهم في أن علم الحروف هو الذي تظهر به الأعيان استنادا إلى نص قرآني صريح متعلق بالكلمة الإلهية (كن) فهي لاتعدو أن تكون رمزا على الإرادة الإلهية التي تخصص القدرة . وقد ذهبوا بعيدا في تأويل معاني الحروف فوجدوا توازيا بينها وبين الطبائع الأربع والأفلاك السبعة و الرسل ، وتصوروها على شاكلة علم الباطن ، فجعلوا منها القطب والامامين و الأوتاد والإبدال (147) .

وقد اهتم الغزواني بمعاني الحروف ورموزها، وأعطاها دلالات تتصف في كثيرمن الأحيان بالعمق والغموض. وحتى نتعرف إلى اتجاهه في التعامل مع الرموزنسوق النماذج التالية من شعره :

-الألف والباء- ألف هو جمعنا واحد في استوائنا

و البـــاء بيانــنـا خفـــي فــي نقطتـــي (148)

- التـــــــاء - و التاء تمجيدنا ظاهرا وباطـننا

تعالـت فــي باطـــن كحلـوم كرامتـــي(149)

- الثـــــاء - و الثاء من ثنائه سبحانـــــه

إذا أعطـــى لاينقـــص مكنونــــــه (150)

- الجيـــــم - و الجيم من جلاله لا يمـــــزح

و جـــمــــال في كـــمـــاله لا يعـــرج (151)

---

(146) الرمز الشعري عند الصوفية 408 .

(147) الرمز الشعري عند الصوفية ص 411 - 414 .

(148) ورد حرف الألف في أبيات أخرى في القصائد 15/23/29 ، وحرف الباء في القصائد 15/24/29

(149) انظر كذلك القصائد 15/20/23/29

(150) انظر كذلك القصائد 15/23/29

(151) انظر كذلك القصائد 20/23/29

الـــخ . . . ويستمر على هذا المنوال إلى حرف الياء (152)

ويعمد الغزواني في كثير من الحروف إلى استنتاج الدلالة من كلمة يكون الحرف أول حروفها : فالثاء للثناء، والجيم من الجلال، والخاء من الخلد . . . والثناء الاشعار بالتعظيم . ويميز الغزواني بين ثناء العامة وهو الإلحاح في طلب الله ، وثناء الخاصة رفع الهمة، وثناء العطاء للخصوص. فعلم الأفعال للعامة، وعلم الصفات للخاصة ، وعلم الذات للخصوص . وصاحب الأفعال حكمه حياته ، وصاحب الصفات حكمه سمعه وبيانه وصاحب الذات شهوده كلامه . والجيم للجلال والجمال . والجلال عند الصوفية إظهار استغناء المعشوق عن عشق العاشق ، وهو دليل على فناء الوجود (153) . وفي الإنسان الكامل الجلال عبارة عن ذاته تعالى بظهوره في اسمائه و صفاته كما هي عليه (154) . والجمال عبارة عن إلهام الغيب الذي يرد على قلب السالك ، ويرد أيضا بمعنى إظهار كمال المعشوق من العشق، وطلب العاشق(155) . وفي الإنسان الكامل كذلك : جمال الله عبارة عن أوصافه العليا وأسمائه الحسنى. . . وعلى الخصوص صفات : الرحمة، اللطـــف والجـــود (156) .والحاءللحواميم التي بدأت بها بعض السورعند الصوفية : الحاء معناها الله، في حين ترمز للحياة عند الغزواني .

تفسيـر بعض رمـوز القـرآن :

ومما يتصل برموز الحروف عند الصوفية تفسير بعض رموز القرآن . فقد حاولوا تجاوز التفسير الظاهري المأثور عند المفسرين إلى تفسير باطني أخص يتجاوز الحكم والمعنى إلى الإشـــارة

---

(152) انظر رمز الحاء في القصائد 29/24/23/21/20/15 . و الخاء في القصائد :29/20 ، و الدال في 29/23/20 . و الذال في 29/23/20 . والشين و الراء في 29/23/20 ، و السين في 29/23 . والضاد في /29 . والعين و الغين و الفاء والقاف و الكاف واللام والميم و الياء في النصين 29/23 . و النون في 29/21 .

(153) كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي 347 ، تحقيق لطفي عبد البديع وعبد المنعم محمد حسنين ، مصر 1963

(154) ج 54/1 عبد الكريم الجيلي ط . ازهرية 1316

(155) كشاف اصطلاحات الفنون 348 .

(156) ج 53/1 .

والرمز ، ويعتبرون أنفسهم غير مبتدعين ، وينسبون للرسول قوله (لكل آية ظاهر وباطن و حد ومطلع) ، وقوله (إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العالمون بالله تعالى فإذا نطقوا به لاينكره إلا أهل العزة بالله عز و جل) (157) .

وقد وجد الصوفية مجالا خصبا للتعبير عن المعاني الباطنية في غير تكلف فاستنتجوا منها مصطلحاتهم ومقاماتهم . واعتبروا الحروف التي افتتحت بها السور من الأسرار الإلهية التي يطلعها أولياءه . ويعطي الغزواني للقرآن الكريم أهمية كبيرة بحكم سنية طريقته والتزامه بالشريعة في كثير من مواقفه، فترددت الإحالات القرآنية في شعره بشكل يلفت الإنتباه، من أمثلتها :

أقول ما ننسخ آية بعد آيـــــة ونأت بخيرها من هو يذكرنــــا تبارك

تبارك الذي بيده ملكنـــــــــا الذي إن شـــاء قـــربنا (158)

كما اهتم بالحروف الواردة في مطلع بعض السور، وحاول كشف مدلولاتها، مثل

* الــم : يقصد بها بدء الوجود، إشارة إلى بدء المصحف الكريم بها (مطلع سورة البقرة)

وألف و لام و مـــيم ســـورتنــــا أول ظهـــورنا في كنز اشـــتـــراكنا

وقبله اعتبرها ابن عربي دليلا على الوجود كله : فالألف هي الذات الإلهية (بدء الوجود)و اللام العقل الفعال جبريل ، أو وسط الوجود ، والميم محمد آخر كمال الموجودات، وبذلك تتم دائرة الوجـــود .

*حـــــم : قال عنها :

و بحم حـمـتي خـشـيـة ملوكنـــا وملك تصريفهم في كل شهودنا(كذا)

وقصد بها اسم الله و محبته التي تقود إلى الملك و التصريف والشهود . وجاء في التفاسير أن " حم " من أسماء القرآن ومن أسماء الله . وعند الصوفية أن الحاء معناه الله والميم معناه الكلام (أي كلام الله) .

---

(157) التصوف إيجابياته و سلبياته ، أحمد محمود صبحي ، عالم الفكر 1975/2 ص 15 - 16

(158) الأول إشارة إلى الآية : ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها سورة البقرة ، آية 106 . و الثاني إشارة إلى الآية : تبارك الذي بيده الملك سورة الملك ، آية 1 .

* طـــه : يذكر المؤرخون أن الغزواني كان له ولع بتلاوة ســـورة طـــه (159) ، فسرها في " مسائل الأنوار " فقال : (كل محبوب ميسر عليه ينابيع الحكمة من غير حد يوجد فيه ، ولم يتحرك إلا لأمر مراد ربه ، على لسانه فصاحة ، وعلى قلبه بشارة) (160)

* يـــس : في " مسائل الأنوار " أن يس هي موجب الحق الذي ظهر بين سر ذات النبوة وهو ذات نبينا محمد (ص) . وقد جمع هذه الرموز في قوله :

و أصـــبـــحت في قـــاف و هـــاء و يـــس   و طـه و حم من حق حـــقـــيـــقـــتي

وحق الحقيقة : تجليات الصفات والشهود ، ومن شهد بربه فقد استغنى عن نفسه ولم يلجأ إلى غيره . . . (161) . وقد استمر على هذا المنوال في محاولة الكشف عن اسرار باقي رموز القرآن نكتفي بما ذكرناه .

المعجم الشعري عند الغزواني :

إعتبارا لخصوصية التجربة الشعرية وذاتيتها وصعوبة التعبير عنها باللفظ العادي المتداول، واعتبارا لأهمية التواصل والتبليغ والتلقين في التصوف . فإن الصوفية على العموم وضعوا معجما خاصا بهم وتداولوا مصطلحات قادرة على توصيل شحنات التجربة بعمقها وأبعادها إلى المريدين والمتلقين . وأصبحت المصطلحات فيما بعد موضوعا مهما ومستقلا من موضوعات التصوف ترصدله المؤلفات لشرحه وتوثيقه وفك رموزه .والغزواني كباقي الصوفية يختلف استعماله للمصطلح من نص إلى آخر،ومن تجربة إلى أخرى . فهناك كثافة معجمية في نص وتعامل محدود مع المصطلح في نص آخر...وغنى معجم الذات الإلهية في هذا، والمعرفة الصوفية في آخر، والمحبة والجذب في ثالث، ومصطلحات الطريقة وأسماء أقطابها في رابع ... ويكون لموضوع النص بطبيعة الحال دور في ذلك .

وبالرغم من أن المصطلحات متداخلة فيما بينها استعمالا وتوصيلا ، فإنه يمكن تصنيف المعجم المستعمل لدى الغزواني إلى أربعة حقول رئيسية :

---

(159) دراسات عربية و إسلامية ، بول نويا مقالته عن الغزواني

(160) النقطة 92 .

(161) النقطة 92 .

1) ما يتصل بالذات الإلهية : أول–آخر– ظاهرة، باطن، عقل، وجود، بقاء، قدم، جوهر، عرض، وحدة جلال، جمال، كمال.

2) الذات المحمدية : سنة، شفاعة، نور ، صلاة، جنة، بعث، إمام، هداية ، أسماء الرسول، محمد / أحمد . . .

3) المعرفة الصوفية :و ما تؤدي إليه من مقامات وجذب ووحدة شهود : علم لدني، جمع، فرق، حقيقة، ذات، شهود، حب، رضى، تصريف، سر، ذكر، قلب شفاء . . .

4) الطريقة سنيتها وأقطابها : طريقة ، قطب ، شمس ، غوث ، جرس، إرادة، شيخ، علو، زيارة، أسماء، أعلام . . .

ويمكننا استعراض هذا المعجم الشعري من ابداء ملاحظتين :

– الملاحظة الاولى تناول الغزواني الى جانب مدح الرسول والتوسل به ، وطلب شفاعته وابداء محبته، ومحبة الخالق ، موضوعات اخرى : كالطريقة الجزولية الغزوانية وسنيتها ، وموضوعات صوفية مختلفة : كاستمرار الولاية في النبوة ، والحديث عن الجمع والفرق ووحدة الشهود ، ومشروعية الزيارة ، والرموز والاشارات . . .

وتعطينا الأرقام التالية صورة عن هذا التناول :

الموضوع	التداول	تعيين النصوص الشعرية
موضوعات صوفية	18 نصا	2/3/4/6/11/12/14/16/18/19/21/23/
الطريقة وسنيتها	9	25/27/28/29/31/32 .
مدح الرسول	5	1/5/7/8/9/10/20/22/30 .
المجموع	32	13/15/17/24/26 .

الجـــدول رقم 3 – المحـــاور.

وغالبا ما تتضمن قصائد الموضوعات الصوفية أو قصائد الطريقة أبياتا توسلية . وغلبة الموضوعات الصوفية على قصائد المدح النبوي، جعلت المعجم الأكثر تداولا عند الغزواني هو المعجم الصوفي المصطلحي، مع اختلاف في التوارد . وقد تم هذا التوارد كما يلي :

التوارد	تعيين الالفاظ
اكثر من 200 مرة	قطب – حقيقة
بين 100و200 مرة	حب (محبة) – سر – طريقة – علم – كمال .
بين 50 و 100 مرة	جرس-جمع-شهود- شرب (سكر)- صوفية- غوث – ولي .
بين 20 و 50 مرة	أدب – إرادة – أزل – إمـام – باطن – تخصيص – جلال – ذات – ذكر – رضى – صلاة – ظاهر – علا – فرق .
أقل من 20 مرة	باقي الفاظ المعجم الشعري

جدول 4 – التوارد .

هذا التصنيف الكمي للمعجم المستعمل يوضح اهتمامات الغزواني . فمعروف أن تكرار كلمات معينة بذاتها عبر نصوص شعرية أو نثرية متى وضع بعضها بازاء بعض تؤلف دالا معجميا له

مدلول هو نواة هذه النصوص . فالكلمات الكثيرة التوارد في شعر الغزواني هي مصطلحات صوفية كما نرى وهي تميز بوضوح بين منهجين أو أسلوبين :

* أسلوب الفقيه المتصوف .

* وأسلوب الصوفي الذي عاش التجربة بمراحلها ، وعاشر الشيخ وتربى على يديه . ومر بالمقامات والأحوال ليصل إلى أعلى الدرجات : القطبية .

* فالأسلوب الأول هو أسلوب الواصف من الخارج أي الذي لم يعش التجربة . فعجز عن تطهير فؤاده وتصفيته بالطرق المعتمدة لدى الصوفية ، فالتمس البديل عند الرسول وأكثر من مدحه ، والتوسل به . أظهر حاجته إلى شفاعته وعطفه ، وهو أسلوب عياض والسهيلي .

* أما أسلوب الصوفي الذي وجدناه عند الغزواني ، فلا يحتاج صاحبه إلى التماس الشفاعة والعفو والغفران لأنه يكتسب الطمأنينة النفسية من الترقي في درجات الإرادة بالمجاهدة والذكر. فينتقل من توحيد الافعال الى توحيد الصفات، فتوحيد الذات والفناء فيها. وقد يبلغ بهمته ومجاهدته أسمى هذه المقامات هي مقام الرسوخ والتمكين أو فناء الفناء، وهو مقام الأنبياء والصديقين . وفي هذه الحال لايشعر بأي نوع من أنواع الخوف أو الحاجة إلى الحديث عن الغفران ، وما إلى ذلك من معجم الفقهاء المتصوفين الذين لم يذوقوا لذة هذا التدرج وحلاوته .

وقد بلغ الغزواني هذه المرتبة بشهادة معاصريه من كبار الصوفية الذين قدموه عليهم ، ، بسبقه كرحال الكوش ، والفلاح وسعيد بن عبد المنعم. . . وقد قال عنه تلميذه وجامع رسائله ره في التعليق على قوله :

لو كــــان جــدي رسـول الـلـه حـيـا لقلت أنه هو من حق حقيقتي (كذا)

(اشار لما ظهر من محاسن النبوة في قطبانية ذاته ، لأن سيدنا وسندنا وشيخنا كان ممن تربع على بساط العز وظهرت قطبانيته على كل عالم في زمانه ، فكثرت الهداية والإرشاد على يديه وكان غوث الإسلام ومطهر قلوب أهــل الآثام)(162) .

) النقطة 96 .

إن معجم الغزواني يساير أسلوب الصوفي،فأكثر الكلمات ورودا على لسانه هي:

*- قطب ،أقطاب (295 مرة) أي بمعدل (عشر مرات) في كل نص تقريبا.وغالبا ما قصد به نفسه وبلوغه هذه الدرجة . والحديث عن القطب يجر إلى الحديث عن مساعديه الغوث، الجرس، الولي ....

*- الحقيقة : وتقابل عندهم الشريعة ، ويعبرون عنها كذلك بـ" الباطن " والذي يقابل " الظاهر ". وهي كلها من الألفاظ الكثيرة التوارد على لسان الغزواني .

*- ومما يتصل بالقطب والطريقة : صفات الخالق، العلم ، الجلال الكمال، الأزل، العلا، ومقامات الصوفية ومشاهداتهم :الجمع، الفرق الإرادة، التخصيص، الرضى . . وأحوالهم : السر، المحبة، الشرب، الصلاة، الذكر . . . وبهذا نجد معجم الغزواني الصوفي معجما مصطلحيا صرفا يتحدث عن التجربة الصوفية بكل أبعادها ومراميها بعيدا عن أسلوب الفقهاء الذي يعتمد السيرة والشمائل النبوية وموضوع الشفاعة والتوسل .ويمكن رد هذا الإختلاف بين الأسلوبين أو المنهجين إلى مـــا يلي :

- اختلاف المرحلة التاريخية :

فعصرعياض هو عصر سيادة الفقه والفقهاء، وعصرالمذهب المالكي وشموليته، لم يتبلورفيه الإهتمام بالتصوف بعد ،وإن عرف بعض الزهاد لهذا كان معجم النبوة بتفريعاته :المقام النبوي، المعجزات، الشمائل . . . حاضرا وبكثافة .

أما العصر الموحدي ، فبالرغم مما عرفه آخره من انطلاقة صوفية على يد أعلام كأبي يعزى، وأبي مدين ، وأبي العباس السبتي والشاذلي . . . فإن الحكم الموحدي لم يكن في أوله يعترف بولي غير ابن تومرت . وفي آخره طغى انشغاله بالمذهب والتراجع عنه (المنصور والمامون) أو فرضه (شيوخ الموحدين) على باقي الموضوعات . إضافة إلى أن انعكاسه على الأدب يتطلب زمنا . إذ أن انتشار الظاهرة في هذا العصر لايعني تمثل الشعراء لها وعكس آثارهم لها بمثل هذا الإلحاح والتفصيل الذي سنجده في العصر المريني عند الغزواني مع العلم أن لأبي العباس السبتي إشراقات مهمة في أوراده .

أما العصر المريني فقد شهد انبثاق أهم الطرق الصوفية في المغرب: الجزولية التي أحيت ذماء الطريقة الشاذلية وأغنتها وطورتها و جعلت من مريديها وأنصارها قوة ضاربة تقف في وجه المستعمرين والطامعين .

- **اختلاف الثقافة وتنوعها :**

ولإختلاف التكوين الثقافي والعلمي دور في تنوع المعجم واختلافه : فثقافة عياض ثقافة فقهية أصلا باعتباره أحد رؤوس المالكية في عصره ومن المهتمين بالتعريف بأعلامهم وجمع آثارهم . فكان معجم شعره من صنف ثقافته .أما السهيلي فبحكم اهتمامه بتفسير غريب القرآن ومبهمه ، وبحكم ثقافته الفقهية ، واللغوية كان توسله توسل الفقهاء لاتوسل الصوفية كما بيننا . أما الغزواني فكانت ثقافته صوفية محضة ، إذ أخذ على أحد أعلام الطريقة الجزولية (التباع)، الذي كان يربي مريديه بقصيدة من أشهر قصائد التربية الصوفية هي " المباحث الأصلية " لابن البناء. وسيصبح الغزواني بعد تدرجه في مقامات الطريقة رأس فرع جزولي آخر هو " الفرع الغزواني"، وقد اعتمد طريقة شيخه في التربية بتقرير "رائية الشريشي " أساسا لتربية المريدين . ويتضمن كتاب " النقطة " كثيرا من آرائه في قضايا التصوف وموضوعاته .

وقد انعكست هذه الثقافة الصوفية في معجمه الشعري على وجه العموم .

- **الملاحظة الثانية** : التي يسمح لناالمعجم الصوفي بإبدائها تتعلق باختلاف التوزيع الأفقي والعمودي :

- **التوزيع الأفقي** : ونقصد به تردد اللفظة بالنسبة للقصيدة ، فقد يكون التردد العام لها مثلا :" (عشرون مرة) ولكن توزيعها الأفقي هو اثنان)، أي أن التردد جاء مكثفا في قصيدتين فقط، فقد يكون العكـــس أي أن التوزيع الأفقي مثلا هـــو (20 أو 18) بمعنى أنهـا وردت في (20 أو 18) قصيدة . ولهذا الإختلاف دلالته ومغزاه . ويتحدد التوزيع الأفقي كالتالي :

التوارد في النصوص	عدد الالفاظ	تعيين الالفاظ
في اكثر من 20 نصا	3	حق - جمع - سر
بين 15 و 20 نصا	10	حب - شهود - ذات - رضى - باطن - جلال - صلاة - فرق - قطب - كمال .
بين 10 و 15 نصا	15	إرادة - أزل - بقاء - تجلي - تصريف - جمال - حجب - شفاعة - ظاهر - علم - غوث - نور - وتر - ولي - حرس .
في اقل من 10 نصوص	26	باقي المعجم .
مجموع الفاظ المعجم	54	

جدول رقم 5 - التوزيع الأفقي

وهكذا فألفاظ المعجم الأكثر ترددا على لسان الشاعر ترددت بشكل متواز في أغلب النصوص، بمعنى أنه لم يقع تكثيفها في نصوص معينة ، ويمكن أن نستثني كلمة (طريقة) التي وردت (159 مرة) في حين لم تتكرر إلا في أربع قصائد أخذت فيهما القصيدتان (31 و 32) نصيبا وافرا (سبعون مرة وست وثمانون مرة) وهذا راجع إلى ورودها في أغلب قوافي القصيدتين، وعلى وجه العموم كان تناوله لموضوعات التصوف شاملا في كل القصائد لذلك شملها المعجم الصوفي

- **التوزيع العمودي** : و نقصد به تردد مصطلحات المعجم و ألفاظه بالنسبة لكل نص على حدة : فقد تفاوتت القصائد في عدد توارد المصطلحات فيها من أكثر من (ألف مرة) إلى أقل من (عشرين) (انظر الجدول السادس)

ويمكن رد هذا التفاوت في استعمال المعجم إلى أسباب منها :

1) حجم النصوص ، فالقصيدة (32) المشتملة على أزيد من ألف تردد لمصطلحات تتكون من (776) ولقصيدة (31 من 496 بيتا) . . . في حين تشتمل القصائد (1 و2 و 3 . . . على أقل من 20 بيتا) .

2) تعدد الموضوعات في القصيدة ، فالقصائد التي تشتمل على موضوعات صوفية متعددة الجمع ، الفرق ، وحدة الشهود ، . . . ترد فيها مصطلحات كثيرة ، ويكون معجمها أكثر كثافة من القصائد التي لاتعالج الا موضوعا واحدا كالطريقة أو المدح النبوي . . .

3) الحالة النفسية للصوفي ، ولايجب إغفال دور الغزواني في تكثيف هذا المعجم أو عدم تكثيفة ، فهو عندما يتحدث عن المحبة والسكر والجذب يكون أكثر تعاطفا مع موضوعه واندماجا فيه فتتدفق على لسانه المصطلحات التي تصف التجربة بتحركها وغليانها . وفي نصوص أخرى تجد أسلوبه هادئا يميل فيه إلى التأمل والبحث ، وهنا تهمش المصطلحات لصالح أسلوب البرهنة والدليل والحجة والتفسير ، كما هو الشأن في قصيدته (الواحدة والتاسعة والعشرين) اللتين تناول فيهما أسرار الحروف ورموزها، وخاصة تلك التي تبدأ بها بعض آيات الكتاب المبين . أو في (القصيدة الرابعة) التي وجه فيها الخطاب لأبي عبد الله التونسي. وكان هذا الرجل شديد الإنكار على الفقراء والمريدين، فناقشه مثبتا عجز العقل عن إدراكه كنه الأشياء وجوهرها، وأهمية اللجوء للطريقة والأخذ على الشيوخ .

عدد التوارد	عدد النصوص	تعيين النصوص
اكثر من 1000 مرة	1	النص 32
بين 500 و 1000	1	النص 31
بين 100 و 500 مرة	1	النص 23
بين 50 و 100 مرة	1	النص 17
بين 20 و 50 مرة	14	5/7/8/11/13/14/15/18/19/20/21/22/24/25 .
اقل من 20 مرة	14	2/3/4/6/9/10/12/16/26/27/28/29/30.

جدول رقم 6 – التويع العمودي

- خلاصـــة و استنتـــاج :

1) أول ما يجب قوله عند الحديث عن شعر الغزواني أنه شعر المعاني كما سماه الصوفية أنفسهم يهتم بالمقولات والمباحث الصوفية : كالمعرفة والمقامات . . . ويهمش فيه ماعدا ذلك ، فلا يعار الإنتباه إلى البحور وأعاريضها وسلامتها من السقطات الموسيقية ، والقوافي وخلوها من

العيوب ، ولا حتى لقواعد اللغة العربية . وتـهمش فيها كذلك الصورة الشعرية التي هي عنصر أساسي من عناصر الإبداع الشعري : فخلوه من التراكيب المجازية الموحية يجعل سمة التجريد والسرد التي لا تخلو من طابع التعليم الغنوصي مسيطرة عليه .لهذا تعاملنا معه بمنهج مخالف للمنهج الذي طبقناه على النصوص الشعرية السابقة لعياض والسهيلي .

هذه الإشكاليات يمكن لناقد الشعر أن يعتبرها عيوبا أساسية ، تنفي صفة الشعرية عن هذا الخطاب الصوفي . إلا أن الصوفية ظلوا يلحون على تسمية خطابهم هذا بـ" شعر " . بل وحذر بعضهم كما سبقت الإشارة إلى ذلك (163) من محاولة تصحيح شعره وتهذيبه وإصلاح ما اعوج منه قائلا : من طلب المعاني وجدها ، ومن طلب الحروف والأوزان يبقى معها . ويجعل المعاني هي الأساس والهدف من الشعر لا الألفاظ والبحور .وعلى عكس ناقد الشعر ، فهم يفتخرون بهذا الخطاب ، مع ما فيه من سقطات ، بما يتضمنه من معان وإشراقات صوفية ، وبما له من أدوار في تربية المريدين والارتقاء بهم في مدارج المقامات والأحوال لبلوغ أسماها : المعرفة . ولحل هذا الإشكال يجب التمييز بين :

* **<u>الخطاب الشعري الصرف</u>** : وهو الذي يتميز بالوزن والقافية والإيقاع و التصوير والإهتمام بالتعبير بحد ذاته أكثر من المضمون ، أي الذي تكون فيه الرسالة الشعرية هدفا في حد ذاته

* **<u>والخطاب الشعري التعليمي الصوفي</u>**: وتكون فيه اللغة والقالب الشعريين وسيلة لاغاية فيتم تغليب الوظيفة المرجعية: شيخ، مقامات . . . ويجب التمييز في إطار هذا الخطاب الشعري التعليمي الصوفي بين اتجاهين :

* **<u>إتجاه تعليمي عملي</u>** : وهو يتناول فيه الصوفية القضايا المتصلة بالتربية الصوفية ، والطريقة وأعلامها والأقطاب ودرجاتهم و المريدين وآدابهم في هذا الإتجاه تتداخل النصوص وتكثر الإقتباسات والإحالات فيصير النص عبارة عن إعادة بناء أو إنتاج لأقوال آتية من نصوص أخرى، حوتها مذكرة الشاعر الصوفي فضمنها قصيدته بعد ما قام بعمليتي هدم للنص السابق وبناء لنصه ، وذلك لتقديمها كخلاصة مركزة للمتعلم والمريد .

(163) انظر الهامش 107

• اتجاه وجداني نظـــري : وبالرغم من أن الغاية منه تعليمية كذلك فإن مستواه أعلى من مستوى الاتجاه الأول ، ذلك لأن عملية التناص أو الهدم والبناء غير بارزة فيه، فيكون عبارة عن إشراقات الصوفي و تأملاته في موضوعات صوفية نظرية مجردة كالذات الإلهية وعلاقتها بالعالم الخارجي أو العقل وعلاقته بالمعرفة ، أو الشطحات الصوفية الخاصة ، والخواطر . . . وهو ما كان الغزواني يسميه بالكشف ، أو المناجاة الإلهية .

وهذا الاتجاه يتسم بكثير من الغموض ، بعكس الاتجاه الأول . . . ويحاول الصوفية شرحه و فك رموزه بأنفسهم أو بواسطة تلامذتهم و أصحابهم . وقد عجز الغزواني عن فهم بعض هذه المناجاة الإلهية عندما حاول شرح قصيدته " مسائل الأنوار " التي تدخل ضمن هذا الاتجاه ، فاعتذر عن ذلك قائلا بأن فهمه قاصر عن إدراك أحكام الربوبية (164) . وكان يقول لمخاطبيه من مريدين وأصحاب : لاتنظروا إلى لفظ ولا إلى معنى (165) .لهذا قال كثير من الذين ترجموا للغزواني و تحدثوا عن تآليفه بأن كلامه غامض لا يفهمه إلا من فتح الله عليه (166) .

2) وسواء تعلق الأمر بالاتجاه الأول أو الثاني فإن المعجم الوظيفي المصطلحي ، مكثف وغني في أغلب النصوص . وقد سبق أن عللنا ذلك وفصلنا القول فيه ، وهو الذي يعطي لهذا الشعر صبغته التربوية الصوفية ، ويلقى به في بحر الغموض في نفس الوقت .

3) وقصائد الغزواني مختلفة الحجم : أقصرها يشتمل على ستة أبيات وأطولها يشتمل على (ستة وسبعين وسبعمائة بيت) وهذا تفاوت هائل .فثلاث قصائد اشتملت على أزيد من (سبعين وثلاثمائة بيت) ، ورابعة اشتملت على أزيد من (مائة بيت) وسبع عشرة قصيدة تراوحت أبياتها بين عشرين ومائة بيت .في حين تتكون احدى عشرة قصيدة من اقل من عشرين بيتا

أ) ومن البداية نلاحظ أن النصوص القصيرة غالبا مايكون موضوعها المراسلة وإجابة بعض المريدين على تساؤل طرحوه . . . في حين أن النصوص الطويلة (أراجيز في الغالـــب) هي

---

(164) النقطة 89

(165) ممتع الأسماع 45 ، السعادة الأبدية 78/2.

(166) ممتع الأسماع 45 ، و بادرة الإستعجال 59 .

التي تكون موضوع التأمل وطرح القضايا الصوفية مما يدخل في باب ما سميناه بالاتجاه الوجداني النظري، حيث يطلق الشاعر العنان لشطحاته وجذبه ، ويستمر في التعبير عن حبه وسكره وشهوده . وبهذا فإن عامل الكشف أو المناجاة الإلهية يعتبر أحد وسائل التراكم الكمي . ويمكن أن نضيف إليه عوامل أخرى تقنية :

ب) مثل اعتماد المقابلات وجعلها من العناصر الأساسية في تركيب النص وبنائه ونستخلص أمثلة منها :

* مقابلات مقولية صريحة : الجمع / الفرق ، البسط / القبض، الطريقة / الحقيقة، الجلال / الجمال، الظاهر / الباطن، السكر / الصحو . . .

* مقابلات ضمنية : الخير / الشر ، الجهل / العلم .* مقابلات لغوية : الدنيا / الآخرة ، الأول / الآخر

* مقابلات فيزيقية :أرض / سماء ، نجم / كوكب ، شمس / قمر .

* واعتماد الجناسات الحرفية و اللفظية التامة والناقصة .

ج) تنويع الجمل وترديدها ، كالجمل الشرطية : إذ ، أو أن و جوابها ، والنواسخ ، والجمل المنفية الأسماء الموصولة . . .

د) التكرار اللفظي ، وهو من وسائل التراكم الكمي ، إضافة إلى دلالاته المعنوية والنفسية التي ذكرناها عند حديثنا عن الذكر والجذب . فترديد الكلمة يزيد من الإنفعال ، فتدور على السنة الذاكرين ابداء وإعادة حتى يشعروا وكأنهم في دوامة . وهذه بعض أهداف الذكر ومراميه والتي تنتهي ببلوغ أسماها وهي انسجام الذاكر والمذكور بجريان الذكر لاعلى اللسان ولكن بالقلب .

ومن الألفاظ والعبارات المكررة : الله، لا إله إلا الله، محمد، ربنا، تبارك، إليك يا، اللهم، ساداتي . . . وأحيانا يكون التكرار عموديا ومزدوجا أي أنه يشغل حيزا كبيرا من النص ومن أوله إلى آخره . كما في الأرجوزة الطويلة(النص 32) ، حيث تتكرر كلمات على طولها . وترد الأولى في آخر الشطر الأول ، والثانية على آخر الشطر الثاني، وأهمها :

آخر الشطر الأول		آخر الشطر الثاني
الحقيقة	←	الطريقة
المحبة	←	الاقطاب
الارادة	←	الافادة
الولاية	←	الصوفية

ويكرر الغزواني أشطرا بكاملها خلال عدد من الأبيات ، إما في الشطر الأول أو الثاني ، مثل :

لا إلـــه إلا اللـــه لا إله إلا اللـــه ....
الله يا الله ، الله يا الله مـولانـــا ....
اللهم صل على خير الأنام محـمـد ....
ســاداتي الحب بيــان في قلبـــي ....

وأحيانا يردد الشطر مع تغيير كلمة واحدة :

سادتـي الحـــب أنـوار فـــي قلبـــي ....
ســادتي الحب شـجــــرة في قلبـــي ....
بذكـر محـمـد علمنا يـــــــارب ....
ارزقنا يارب توبة الخـائفـــــين فـأنت الكريم لبابك راجيـــــين
ارزقنا يارب توبة الصـادقـــين فـأنت العليم لبابك قاصديــــن
ارزقنا يارب توبة المحـبـوبــين فـأنت الحليم بفضلك شاكريـــن

ولايستبعد أن تكون هذه الجمل المكررة معدة أساسا للسماع والموسيقى التي تعتبر كالذكر، أسلوبا من أساليب الترقي . ومن أمثلة التكرار العمودي اعتماد كلمة واحدة في القافية من أول النص إلى آخره . ففي النص " (الرابع والعشرين) اعتمد كلمة " محمد " . وهذا التكرار من تأثير أسلوب الذكر ، ويبين اهتمامات الشاعر وما كان يشغل قلبه مما يرد على لسانه، توحيد ، شهادة ، حب، الله ، توبة ، جذب . . . هذه الكلمات عندما توضع بإزاء بعضها البعض ، تؤلف دالا معجميا له مدلول هو نواة المقطوعة .

هـ) التركيب المعجمي : بنى الغزواني بعض قصائده على حروف المعجم من الألف الى الياء ، وهذا أسلوب من أساليب التراكم الكمي اذ أنه ملزم بالوصول الى النهاية . ونجد هذا التركيب المعجمي في القصائد (15 - 20 - 23 - و29 -) (والقصيدة 23 أهمها جميعا اذ بلغت أبياتها 373 بيتا) . واختلف عدد الأبيات من حرف الى آخر (من ثلاثة أبيات في حرف الألف الى عشرة في حروف الراء والميم والياء ، والى واحد وعشرين بيتا في حرف الدال ، وسبعة وعشرين في حرف اللام) . . .

4) اللغة الشعرية : ان لغة التخاطب المتداولة تعتبر عاجزة في كثير من الأحيان عن رصد التجربة الصوفية ، وتبليغها بدقة ، ذلك لأنها ذاتية و دائمة التحول . فاستعمل الشعراء (الصوفية) لغة خاصة بهم . واستعانوا بالرموز والمصطلحات لأداء هذه المعاني ، و غالبا ما لا تخضع هذه اللغة الصوفية لقواعد اللغة المتداولة و أحكامها . لهذا نجد الغزواني يستعمل لغة عربية فصيحة حينا ، وعامية حينا ، ويمزج بينهما في خطاب واحد ، بل و في بيت واحد أحيانا أخرى . ويعتبر بول نويا (P . Nuiya) هذا المزج مسألة طريفة جعلت الغزواني ينطق بلسان حي معاصر قريب الى الحياة الواقعية ...وهو ما يعطي لكتابته طابعا خاصا و روعة هي روعة الأشياء عندما نراها لأول مرة في فجرالنهار . . . (167)

ولما كان الأساس في هذا الشعر هو " المعنى " فان الأسبقية قد أعطيت لتبليغه للمخاطبين ، لذلك لم تعط أهمية لقوالب اللغة مادامت قد أوصلت التجربة . ولانحتاج الى تمييز العربية عن العامية في استعمالاته ،فهي واضحة .الا أننا نشير مع ذلك الى أن الأرجوزتين (31 و32) المشتملتين على ما يناهز (نصف ما خلفه الغزواني من شعر) يغلب عليهما الكلام العامي الدارج

كما لانحتاج الى تسجيل الخروقات التعبيرية واللغوية الموجودة في النصوص لوضوحها ، وان كانت جسامة بعضها تدفعنا بتلقائية الى كتابة عبارة " كذا " للتنبيه عليها .ويجب هنا ألا نحمل الشاعر وحده المسؤولية ، اذ ان النساخ قد اسهموا في تشويه النص ، وتعقيده خاصة وأن المصدر

---

(167) مقالة نويا عن الغزواني في كتاب : دراسات عربية و إسلامية 265 و268 .

الأساسي لشعر الغزواني وفكره وتقاييده ، ومراسلاته الذي هو كتاب " النقطة " قد تم جمعه وتدوينه بعد وفاته . وغموض عبارته ومصطلحاته كان سببا في وقوع النساخ في هذه الاخطاء .

5) وكان الغزواني كباقي كبار الصوفية – مولعا بـ " التائيات " وهي قصائد قوافيها " تاء " جرت العادة أن يضمنها الشيخ تجاربه الروحية وآراءه العقدية . ويبدو أن أول من نظم في هذا الباب هو ابن الفارض ثم نحا الصوفية نحوه كالبدوي ، والدسوقي ، والقسطلاني والجيلي (168) . ونجد صوفية المغرب قد نظموا تائيات كأبي عمرو القسطلي ، وصوفية الزاوية الدلائية . و عدد تائيات الغزواني (عشرة من أصل 32 قصيدة) وهذا دليل على اهتمامه بهذا التقليد الصوفي المتورات والذي يمكن تدعيمه بدلالة حرف التاء عندهم ، فانها تفيد الوتر أي التوحيد أو الوحدة . ويقصدون برفع تاء الخطاب بين الصوفي وخالقه بلوغ وحدة الشهود وبالتالي الإنتقال من الأنت إلى الأنا .

6) ولا يجب إغفال ما لبروز شخصية الغزواني وحضورها من دور في تحديد محاور الخطاب في القصيدة الصوفية لديه .فهذه التائيات تنتهي في الغالب بياء المتكلم : محبتي، صحبتي، همتي . . . كما تنتهي قصائد أخرى بنون المتكلم في صيغة الجماعة : عالمنا ، كنوزنا ، شكرنا ، احترامنا ، لنا ، اشتراكنا . . . (169) ومجموع القصائد التي تنتهي قوافيها بصيغة المتكلم مفردا أو جمعا هي (18 من أصل 32 قصيدة) وهي نسبة عالية . في حين لم تشتمل صيغة المخاطب إلا على نصين.

فالمتكلم حاضر مهيمن على كل مقال ، متسبب فيه ، سواء تعلق الأمر بوصف حالة الشاعر النفسية أو تتبع تجربته في رحلتها عبر المقامات والمراحل ، أو في الدعوة إلى التزام السنـــة

---

(168) انظر ما قاله علي صافي حسين عن هذا الموضوع في كتابه : الأدب الصوفي في مصر : ابن الصباغ القوصي ، دار المعارف 1971ص 291 .

(169) القصائد المنتهية

بصيغة المتكلم المفرد هـــي : 25/20/19/18/14/12/11/10/9/8/6/2

و بصيغة المتكلم الجمـــع : 21/17/16/13/5/1 .

و المنتهية بصيغة المخاطب : 7/4 .

واتباع الطريقة والتعريف بأعلامها .أما المخاطب الذي هو المقصود بالكلام ، فغالبا ما يجعله في الحكم كالمتكلم عندما يستعمل " نا " ويقحمه فيه على اعتبار ما سيكون ، أي امتثاله للأوامر وتجنبه للنواهي (نتواجدو، نشربو، نحبو ، اسقينا ، اهدينا . . .) ويستعمل أحيانا أخرى كـاف الخطاب بصيغتي المفرد والجمع ، وتاء الضمير وتاء المضارع المخاطب ، والأمر والمضارع المجزوم بأداة النهي . . .

وأما الغائب فليس الا وسيلة للمخاطب كذلك ، اذ أنه يقصده بالكلام الموجه له ، وحديث الغيبة له صبغة مرجعية في الغالب ، ذلك أنه يستعمله عند تفصيله الحديث عن المقامات والأحوال والتربية ، وأنواع الشيوخ وآداب المريدين ، أي على وجه العموم عندما يقدم معلومات مركزة على المريد ان يلم بها ويعمل بمقتضياتها .

خـــــاتمـــة

شعر الغزواني متميز عن شعر سبعة رجال مراكش على وجه العموم . فهو شعر المعاني والأفكار والموضوعات الصوفية العامة ، يهتم بالمضمون و يهمش الشكل . وشعر التأملات والشطحات الصوفية التي يعتقد أصحابها أن الكلام يقذف في قلوبهم بعدما تزول الحجب ، وترفع الحواجز " البشرية " الناسوتية لذلك يعتبرونه مناجاة ربانية يجب الإبقاء عليها كما جاءت على لسان الصوفي دون تقليب لفظها والبحث في مناسبته أو عدم مناسبته ، صحته أو خطئه . . . وبذلك يختلف في أغراضه وبنائه عن شعر عياض والسهيلي على السواء :

- فشعر عياض هو شعر إعادة الاعتبار للنبوة وتكريمها ، وتدوين السيرة وتخليد الشمائل المحمدية . يهتم بالشكل أيما اهتمام ، فيحرص على موسيقية النص بمراعاة مخارج الحروف وتلاؤمها ، ويكثر من الجناسات والتقابلات ، ويراعي الروابط ووظائف الجمل والأفعال .

- وأما السهيلي فقد انعكس في شعره ما كان يعرفه من أزمات نفسية وجسدية ، فقد خلف لديه عماه وفقره وإهمال الناس له ما يمكن تسميته " بعقدة الذنب " والخطأ . ذلك الذنب الذي اقترفه الآخرون في حقه يأبى إلا أن يحمله نفسه ، وكأنه يخشى أن يفقد الآخرة كما فقد الدنيا فلا يجد بدا من إظهار ذنبه ، وكشف عيبه ، طالبا الغفران والشفاعة . لذلك اهتم بثنائيات معبرة عن هذا الهاجس : ذنب / عفو ، فقر / فضل . . . . مضحيا في كثير من الأحيان بما دونها كالصورة الشعرية والتعبير المجازي الإيحائي .

إن الشعر الذي سنجد له صدى عند الصوفية عن طريق المعارضة والإحالة والتمثل ، ليس بالضرورة اتجاه المعاني لدى الغزواني ، وإنما اتجاه عياض، واتجاه السهيلي . ذلك لأن هؤلاء الصوفية والشعراء لم يكونوا في مستوى كشف الحجب وإدراك الشهود . . . فمالوا إلى مدح الرسول والصلاة عليه والتوسل به وطلب شفاعته . وبعبارة أخرى سنجد اتجاه الفقهاء في التوسل يطغى على اتجاه الصوفية .

وذلك ما سنوضحه في الباب الثالث من هذا البحث .

الفَصـــــــل الثّانـــــــــي

الكتابة الصوفية : مؤلفات و رسائل

تمهيـــــــــد

المبحـــث الأول - كتاب الشفا

المبحث الثاني - رسائل الجزولي و كتاباته

المبحث الثالث - كتاب النقطة و مراسلات الغزواني

خلاصة و استنتاج

تمهيد

نقصد بالكتابة الصوفية المؤلفات والرسائل التي ألفها صوفية مراكش فالعبارة عامة يمكن أن يندرج فيها أكثر من ذلك : الطبقات الصوفية ، الشعر التعليمي الصوفي ، الكتب التعليمية الصوفية ، المؤلف الصوفي العام . . . وقد سبق أن تحدثنا عن الشعر الصوفي ( ) ، و سنتحدث في فصل لاحق عن الأوراد والأذكار (2) .

وقد تميزت الكتابةالصوفية العربية بالشمول ، إذ قل ما نجد كتابة صوفية صرفة ، فالسائد اشتراكها مع التاريخ ، وتداخلها مع الشعر والحديث واللغة والتفسير . وتكون هذه الازدواجية شديدة الظهور والبروز إلى درجة تجعل الكتاب قابلا للتصنيف بحسب القراءات والاعتبارات ، ضمن علمين أو عدة علوم . وأحيانا أخرى يغلب علم على آخر فيصنف الكتاب ضمنه . . .

وتطرح هذه الإشكالية دعائم الكتابة وأركانها - ومنها الكتابة الصوفية - والتي تجعل منها- متى توفرت - جنسا نقيا غير مشوب بغيره . ويمكن إجمال هذه الدعائم فيما يلي :

* الغرض المتحدث عنه .
* المعجم الفني المستعمل .
* كيفية استعماله .
* القصد (3) .

هذه الأركان قد تتوافر في مؤلف بكامله أو في جزء منه وذلك عندما يكون قصد الكاتب ... أو متعددا ، وفي هذه الحال يتعدد الغرض والمعجم وطرق الإستعمال . ويمكن أن نسوق أمثلة ... موضوع الذي يهمنا :

* الشفا : كتاب حديث وسيرة وتصوف .

... الأول من هذا الكتاب

... الثالث من هذا الكتاب

... وفي و المجتمع ص 210 - 211 .

* رسائل الجزولي : فقه الدين والمناظرة والتصوف .

* النقطة كتاب مناظرة وتصوف وديوان شعر .

وسنحاول في هذا الفصل إبراز الجوانب الصوفية لهذه المؤلفات والأغراض المتحدث عنها ، والمعجم الفني المستعمل ، مع قصد مؤلفيها بذلك كله .

المبحث الأول - كتاب الشفا

خلف عياض مؤلفات عديدة و صلنا بعضها وضاع البعض الآخر . وباستثناء كتاب " الغنية" الذي ذكر فيه شيوخه ومروياته، لاتخرج باقي المؤلفات عن موضوعي الحديث أو الفقه ورجاله

- من الصنف الأول : الشفا، الالماع، بغية الرائد، مشارق الأنوار، اكمال المعلم .

- الصنف الثاني : ترتيب المدارك، الاعلام بحدود قواعد الإسلام، التنبيهات المستنبطة على المدونة، ونوازله "أجوبة القرطبيين". ونسبت إليه مصنفات أخرى في التاريخ والنوازل لم تصلنا.

وقد لقي كتابه " الشفا بتعريف حقوق المصطفى " من العناية والشهرة ما لم تلقه باقي مؤلفاته . فحرض الناس على نسخه وقراءته وتدريسه وشرحه والتعليق عليه والتنويه بقدره ومستواه ، في مختلف العصور . فقد نقل المقري عن عمه سعيد بن أحمد قوله : (ما ألف في الملة المحمدية مثل كتاب الشفا للقاضي عياض) (4) . قال المقري (وفضائل هذا الكتاب لاتستوفى) (5) . لذا اعتبره نفحة ربانية (لا يمتري من سمع كلامه العذب السهل المنور في وصف النبي صلى الله عليه وسلم، ووصف إعجاز القرآن، أن تلك نفحات ربانية ومنحة صمدانية خص الله بها هذا الإمام وحلاه بدرها النظيم) (6) .

(4) ازهار الرياض 271/4 .
(5)ازهار الرياض 271/4 .
(6) ازهار الرياض 2/2/4 .

وبالرغم من أن عياضا لم يكن هدفه جعل " الشفا " من قبيل الرقي والتعاويذ، فإن هذه الصفة قد ارتبطت به . لذا بالغ الناس في تقديره والاهتمام به ، ونسج الأساطير والخرافات حوله . فقيل (لايقع ضرر لمكان فيه ، ولا تغرق سفينة تحمله ، وأنه إذا قرأه مريض أو قرئ عليه شفاه الله . ومن ألمت به نائبة أو هول أو فزع فرج الله عليه بعد قراءته . . . (7) فحثوا على ضرورة توفر كل خزانة على نسخة منه .

ومما يدعو إلى العجب أن بعض شراحه أو المهتمين به قد أقروا بذلك وقرروه . فالشهاب الخفاجي يقول (وأنا ممن جرب بركته ، وشاهدها ولله الحمد)(8) . وقال الخريشي في مقدمة شرحه له (وقد جربت نكثه لدفع الأزمات، وكشف الكربات)(9) . وأقر بذلك من المتأخرين الشيخ العدوي شارح الشفا، والفقيه المؤرخ عباس بن ابراهيم المراكشي (10) وغيرهم كثير. إذ لانريد الإطالة بالاستمرار في سرد هذه الشهادات .

وكان لهذه الاعتقادات أثر بالغ في الشعراء الذين مدحوا عياضا وقرظوا كتابه فقد ركزوا جميعا على مسألة الاستشفاء بالكتاب (11) . فكيف يمكن تفسير هذه الظاهرة ؟ هل بعنوان كتاب الشفا ؟ او بموضوعاته " تكريم النبوة "او بمنهجه المبتكر ؟ او بهذا كله ؟

أ) أما العنوان ، فالواضح أن عياضا لم يكن يقصد به مدلول الدواء، وإبعاد المرض وإنما كان يقصد دلالة البرهان والحجة . فالرأي الشافي هو الرأي القاطع ، الذي يشفي غليل الباحث عن الحقيقة وقد سلك منهجا نقليا في كثير من الأحيان، وعقليا في قليل منها، للتعريف بالنبوة – في شخص محمد– وتكريمها .

---

(7) شرح الشفا لمحمد بن عبد السلام البناني ص1 م .خ .ع .ر. رقم 811 ج . الاعلام لعباس بن ابراهيم 344/9 .

(8) مقدمة شرح الشفا للبناني

(9) الفتح الفياض ص 1 م . خ . ع . ر 578 ق

(10) الاعلام 345/9 .

(11) سنخصص الفصل الأول من الكتاب الثالث للشعر الذي قيل في سبعة رجال مراكش ومؤلفاتهم و منها الشفا .

ومع أنه لم يكن يقصد مفهوم الدواء فإنه ينتهي إليه، ذلك أن الحجج والبراهين على عصمة الأنبياء ، وحقوقهم واعجاز القرآن تؤدي إلى مداواة النفوس المريضة بالجهل والشك ، فتكتمل عافيتها بحب النبي وتوقيره . وإلى ذلك يشير عبيد الله بن أحمد الأزدي الرندي في تقييد له على نسخة للشفا (. . . وشفى بكتاب الشفا قلب كل مومن صادق كما كبت به قلب كل عدو منافق ، فإذا طالعه المومن استنارت في باطنه حقائق أنواره . . .)(12).

ب) وعند كثير من القدماء (إنما عظم الشفا في الصدور والعيون لما اشتمل عليه من المدح المصون الذي استغرق أنفاس مؤلفه المشكور . . . فتداولته أيدي الفقهاء وعظمته الصوفية بالتماس البركة بالمحبة والشوق والارتياح .. .)(13)

ج) وأسندت هذه العناية لما تميز به الكتاب من منهج مبتكر لوح إليه المؤلف نفسه في ختام كتابه (وقد سفرت فيه عن نكت تستغرب وتستبدع ، وكرعت في مشارب من التحقيق لم يورد لها - قبل - في أكثر التصانيف مشرع، وأود عته غير ما فصل وددت لو وجدت من بسط - قبلي - الكلام فيها) (14) .

ويزكي ابن فرحون عياضا في فقرته بهذه الشهادة عندما قال عن الشفا (ابدع فيه كل الإبداع، وسلم له أكفاؤه كفاءته فيه، ولم ينازعه أحد في الانفراد به ، ولا أنكروا مزية السبق إليه) (15) . إلا أن عياضا لم يكن وحده المبتكر والمبتدع - إن كان في الكتاب ابتكار وابتداع - لمنهج متميز في التأليف . فما أكثر المحاولات في هذا الباب (16) . ولم تحظ كتب أصحابها بمثل ماحظي به الشفا .

---

(12) أزهار الرياض 275/4 .

(13) الأعلام 339/9 .

(14) الشفا 312/2 . ط . دار الفكر بيروت ، د . ت . (الطبعة المعتمدة)

(15) الذيباج المذهب ص 170 ، ط . المعاهد بالقاهرة .

(16) عرض الأستاذ محمد المنوني بعض هذه الكتب في مقالته : طابع الحضارة المغربية في العصر الوسيط . مجلة كلية الآداب بالرباط عدد مزدوج 4/3 ، 1978 ص 81 - 96

وبهذا تبقى دراسة الكتاب كفيلة بالكشف عن الدوافع التي جعلته يحظى بالقبول والعناية من طرف رجال الحديث والتصوف على السواء(17).

- موضوع الكتاب و الغرض من تأليفه : والشفا ليس كتاب سيرة بالمفهوم المعروف والمتداول للسيرة ، ذلك لأن عياضا لم يهتم فيه بالخط الزمني المتبع في هذه الكتب : إرهاصات النبوة وعلاماتها ، المولد ومعجزاته ، الرضاع الطفولة، البعثة . . . وإنما جمع فيه مقتطفات من عيون السيرة (18) بقصد تحقيق غايات محددة أشار المؤلف إلى بعضها في مقدمة كتابه عندما قال : (حسب المتأمل أن يحقق إن كتابنا هذا لم نجمعه لمنكر النبوة نبينا (ص) ولا لطاعن في معجزاته ، فنحتاج إلى نصب البراهين عليها وتحصين حوزتها . . . بل ألفناه لأهل ملته الملبين لدعوته المصدقين لنبوته ليكون تأكيدا في محبتهم له ومنماة لأعمالهم ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم) (19)

لهذا أهمل الخط الزمني المتبع في كتب السيرة وأقامه على بناء آخر من شأنه تأكيد هذه المحبة والسعي نحو تجلية أبعاد الكمال النبوي وذلك في صيغة أقسام أربعة :

* الأول : في تعظيم العلي الأعلى لقدرالنبي المصطفى(ص) قولا وفعلا (توجه الكلام فيه في أربعة أبواب . وسبعين وتسعة فصول) .

* الثاني : فيما يجب على الانام من حقوقه صلى الله عليه وسلم (في أربعة أبواب وعشرين وثمانية فصول)

* الثالث : فيما يجب للنبي وما يستحيل في حقه أو يجوز عليه وما يمتنع أو يصح من الأحوال البشرية أن يضاف إليه (في بابين و عشرين و خمسة فصول) .

---

(17) حكى غير واحد - (منهم ابن جابر الوادي آشي أن عياضا أوقف شيخه أبا بكر بن العربي على كتاب الشفا ، فقال له : " بارك الله فيك يا أبا الفضل " و استحسنه جدا . أزهار الرياض4/272 .

(18) لهذا صنفه د . فاروق حمادة مع المصادر الفرعية للسيرة النبوية في كتابه مصادر السيرة النبوية و تقويمها . ط . دار الثقافة 1980 ، ص 103 - 104 .

(19) الشفا 1/246 .

* الرابع : في تصرف وجوه الأحكام على من تنقصه أو سبه صلى الله عليه وسلم (في ثلاثة أبواب وعشرين وخمسة فصول) .

واضح من هذه الأقسام أن الغرض من تأليف الكتاب تكريم النبوة والدعوة إلى توقيرها واحترامها ، أو بعبارة المؤلف نفسه : التعريف بحقوق المصطفى . وكان اتجاهه أكثر وضوحا وإلحاحا خلال إشارته في الكتاب أن القسم الثالث منه (فيما يجب للنبي صلى الله عليه وسلم وما يستحيل في حقه . . .) وهو سرالكتاب ولباب شهرة هذه الأبواب .وما قبله له كالقواعد والتمهيدات. .. وهو الحاكم على ما بعده .

فما الداعي إلى نهج هذا السبيل هل تم التطاول على مقام النبوة أو التنقيص من شأنها ؟ أم أن المؤلف يسعى بكتابه إلى التذكير بهذه الحقوق والتعريف بها فقط ؟

تقتضي الإجابة على هذا السؤال التعرف إلى التيارات العقدية التي عرفها عصر عياض وما قبله . ويمكن التذكير بإيجاز (20) بأن الصراعات المذهبية التي شهدها المشرق ابتداء من أواسط القرن الأول ، وبداية القرن الثاني انعكست على المغرب وانتقلت إليه في شخص الطوائف التي حلت به من خوارج وشيعة . . . أضيفت إليها فيما بعد مذاهب وديانات محلية منحرفة (برغواطة وغمارة) . وزادت الصراعات الخارجية الموقف تأزما وتعقيدا ، وهي صراعات الفاطميين بإفريقية ومصر ، والأمويين بالأندلس ، ومحاولاتهما التأثير في الأوضاع المذهبية بالبلاد .

هذه الصراعات المذهبية مزقت وحدة المجتمع المغربي وأفقدته التحامه ، وفتحت أبواب التفكك والانقسام على مصراعيها . وبذل المرابطون مجهودات في سبيل توحيد البلاد مذهبيا ، بإقرار المذهب المالكي ومحاربة عوامل التفرقة ومظاهرها ، تجسد ذلك في مواجهتهم للفرق الضالة وغلاة

---

(20) لأستاذنا د . عباس الجراري دراسات عديدة في الموضوع منها :

- الأمير أبو الربيع سليمان الموحدي ، ط . دار الثقافة 1974 .
- وحدة المغرب المذهبية خلال التاريخ ، ط . دار الثقافة 1976 .
- و انظر كذلك كتابنا : الدولة الموحدية ، ط . 1 - 1983 ، و ط 2 - 1985 . منشورات الجامعة .

المذاهب ويمكن القول بأنهم وفقوا في ذلك إلى أبعد الحدود . إذ أن حدة هذه الصراعات المذهبية قد خفت ، وصار المغرب سنيا مالكيا . وبرز علماء أعلام دافعوا عن المذهب وعززوه بتآليفهم وفتاويهم . ومن أشهرهم القاضي عياض ، أكبر فقهاء ومؤلفي عصره بالمغرب .

إلا أن الوضع لم يستمر طويلا على هذه الحال ، فقد حدثت تحولات جذرية كان لها تأثير على مستقبل المذهب ، أهمها :

- ما لوحظ من تحجر في عقلية بعض الفقهاء ، وميلهم إلى كتب الفروع والمدونات والتقوقع داخلها معرضين عن سماحة المذهب وأصوله ، ففقد الكثير من شعبيته .

- ظهور داعية جديد هو محمد بن تومرت الملقب بالمهدي، الذي نادى بمذهب التوحيد ، فاستطاع بدهائه وعلمه أن يضع اللبنات الأولى لدولة جديدة ومذهب جديد استقى عناصره من كثير من المذاهب والتيارات العقدية (21)

حمل ابن تومرت على المرابطين ومذهبهم ونعتهم بالتجسيد والكفر لعدم تأويلهم للمتشابه ونفيهم للصفات . . . وركزجهوده لتحقيق هدفين :

- الأول : مواجهة المذهب المالكي المرابطي وإظهار تناقضاته ، فاعتمد في ذلك على عناصر منها ما سبق ذكره ، كالقول بالتأويل والتوحيد ، والأمر بالمعروف . . .

- الثاني : تأسيس نظرية بديلة تكون خطا مذهبيا لدولة جديدة . وتقوم - إضافة إلى ما سبق - على القول بالمهدوية والعصمة والإمامة والجفر ...

وطبيعي ألا يقبل فقهاء المالكية هذه الآراء سواء ما تعلق منها بالتأويل (ورأي مالك فيه مشهور ومعروف) أو ما يتعلق بالتجرؤ على النبوة وادعاء مقام يضارعها في القول بعصمة الأشخاص ومهدويتهم ، إذ لا معصوم إلا الأنبياء ولا مهدي إلا عيسى ، وبهذا أدرجوا النبوة في نطاق الكمالات التي يمكن للبشر اكتسابها . ولعل هذه المسألة هي التي جعلت شيوخ المالكية يقفون

---

(21) انظر المراجع المذكورة .

في وجه اصحاب هذه الادعاءات : فقد سبق أن كتب القاضي عبد الجبار كتابه (تثبيت دلائل النبوة) في الدفاع عن مقام النبوة . و أسس نور الدين محمود الزنكي أول دار للحديث في دمشق ووضع لها منهجا يركز المذهب السني ويعارض أهواء الشيعة وباقي الطوائف المتعارضة في المشرق .دون أن ننسى ماظهر بعد هذه المرحلة – خاصة في سبتة – من اعتناء بالمولد النبوي ، تجسد في مؤلفات مثل (الدر المنظم في مولد النبي المعظم) لمحمد بن أحمد اللخمي العزفي السبتي(21م).

ووقف عياض في وجه الموحدين :

– **بقلمه** : فكتب مؤلفه الشفا لإعادة الإعتبار للنبوة والدعوة إلى تكريمها معرفا بحقوق المصطفى ، والجزاء الواجب في حق المتجرئين عليها . فكانت فصوله الطويلة : تعظيمه ، وما يجب على الأنام في حقه ، وما يستحيل . . . وانفراد الأنبياء بالعصمة إذ الخلاف قائم في عصمة الملائكة . وهذا يعني الا أساس لعصمة البشر . وجند المؤلف لذلك عددا من نصوص الكتاب والسنة ، واستعان بأساليب الجدال والمناظرة خاصة في القسم الثالث من الكتاب (القسم الأساسي). ومما يؤكد هذا أن عياضا كان يكتب الشفا سنة خمسمائة واثنين وعشرين للهجرة (22) وهي السنة التي احتد فيها الصراع بين المرابطين والموحدين وعرفت انتقال هؤلاء إلى مرحلة الهجوم والمواجهة .

– **وبسيفه** : في قيادته لسكان سبتة وتزعمه الثورة على الموحدين والتي انتهت – بعد هزيمتين – بنفيه إلى مراكش كما نعرف .

ويبدو أن السر فيما لقيه الكتاب من تقدير وعناية من كافة علماء ومتعلمي العالم الإسلامي راجع لا إلى ما فيه من أحاديث و تعريف بحقوق النبي بالدرجة الأولى ، ولكن إلى هذه المسائل بالذات :

(21م) م . خ . الاسكوريال رقم 1741 .

(22) أشار عياض في كتابه إلى تاريخ التأليف بقوله (والقرآن العزيز الباهرة آياته ، الظاهرة معجزاته ، على ما كان عليه اليوم مدة خمسمائة عام و ثلاثين سنة لأول نزوله إلى وقتنا . . .) وبما أن الرسول لم يهاجر إلا في السنة الثالثة عشرة لمبعثه ، و بداية نزول القرآن ، فإن تاريخ التأليف هو سنة اثنثين و عشرين و خمسمائة .

أ) أفرزه موقف شجاع صمد فيه صاحبه إلى النهاية ، ودفع حياته ثمنا له .

ب) تاريخيته : يعكس صراعا سياسيا مذهبيا ، كان له تأثير على الفكر والآداب في الغرب الإسلامي خلال قرون .

ج) وهو إسهام في تعميق اتجاه معين : السني المالكي ، ودحض ما سواه ، وهو الاتجاه السائد في كثير من مناطق العالم الإسلامي ، وخاصة الغرب الإسلامي . وهي المناطق التي أشادت به وناصرت صاحبه أكثر من غيرها .

د) في مناصرة الكتاب - المعظم للنبوة - والداعي بطريق غير مباشر إلى المذهب المذكور، حفظ لوحدة الأمة المذهبية والدينية وصيانة لها من التفرقة .

كتاب الشفا ، و التصوف :

بعدما تعرفنا إلى أسباب عناية العلماء والفقهاء بكتاب الشفا نسخا وقراءة وتدريسا وشرحا وتعليقا ، نحاول الآن التعرف إلى الدوافع التي جعلت الصوفية يولونه عناية مماثلة ، ويعتبرونه من المؤلفات المتصلة بعلمهم ، بل واعتبر بعضهم اهتداءه إلى تأليفه من أسرار القرب والولاية التي خص الله بهما عياضا . فقد نقل صاحب ازهار الرياض من خط أبي عبد الله محمد بن صعد التلمساني ما نصه (وتواليف القاضي أبي الفضل - رحمه الله - دالة على ما عنده عند الله من الكرامة و العناية . فمن تأمل انتفاع المسلمين بها شرقا وغربا ، علم ان ذلك من أسرار القرب والولاية ، وكتاب الشفا هو وسطى القلادة وبرنامج السعادة) (23)

لقد سبق أن قررنا أن الكتاب ليس كتاب سيرة بالمعنى الإصطلاحي للسيرة (لافتقاده لعنصر مهم من عناصرها هو الخط الزمني) . وإذا طبقنا عليه العناصر الأربعة المحددة لكل كتابة ، والتي ذكرناها في بداية هذا المبحث فإنه يمكن القول : بأن الغرض المتحدث عنه هو النبوة ، والمعجم المستعمل في أغلبه هو معجم الحديث . إلا أن القصد لم يكن كتابة السيرة وإنما تكريم النبوة لذا فهو أقرب إلى كتب الشمائل المحمدية منه إلى كتب السيرة النبوية . ولا يسير على وتيرة واحدة ،

---

(23) أزهار الرياض 279/4 .

ولا يعالج موضوعا واحدا في كل أقسامه ، إذ كثيرا ما يحدث تغيير في هذه الأركان :

- فالقسم الثالث المتعلق بالعصمة ، يغلب عليه طابع الجدل والكلام مبتعدا عن الصبغة النقلية الموجودة في باقي الأقسام .

- في حين نجد أنفسنا أمام موضوعات صوفية غرضا ومعجما وقصدا في بعض أبواب القسم الثاني من الكتاب حيث يتحدث عياض عن المحبة ، والزهد ، وتوقير النبوة وتعظيمها ، والتصليات وصيغها وثمراتها . . . إلى غير ذلك مما يدخل في أبواب التصوف أكثر من دخوله في أبواب الشمائل .

ولعل تعايش هذه المستويات من الكتابة داخل كتاب الشفا هو الذي دفع ببعض القدماء إلى التفكير في تلخيصه بالتركيز على الإشراقات الكلامية وتجنب المسلسلات الحديثية الطويلة (24) وبذلك يعكس بصدق شخصية عياض :

- **الفقيه** : رواية الحديث ، إثبات دلائل النبوة واحترامها . . . وتبرز هذه الشخصية في عدد من مؤلفاته .

- **الصوفي** : وتتجلى هذه الشخصية في القسم الثاني من الكتاب وعياض كما نعرف أحد رجالات مراكش الموسومين بالولاية والصلاح ، والمشهورين بالتصوف . وقد قال ابنه أبو عبد الله في كتاب التعريف : بأن والده كان ذاكرا لأخبار الصالحين وسيرهم وأخبار الصوفية ومذاهبهم . وأورد في فصل من "منتقى حديثه "كثيرا من رواياته عن الأولياء والصوفية و أحاديث في التماس المغفرة والشفاعة والحث على المداومة على الذكر والأدعية (25) .

---

(24) تلاخيص من كتاب الشفا . م .خ ابن يوسف رقم 26 .

(25) منها وصية الرسول معاذ بن جبل بالمداومة على قراءة دعاء (اللهم أعني على ذكرك وشكرك، و حسن عبادتك) وقد ورد سندها من الرسول إلى عياض فابنه (المؤلف) ص 28 – 29 من كتاب التعريف

وعياض هو تلميذ أحد الصوفية المشهورين : أبو بكر بن العربي (المتوفي سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة) . وكان له دور مهم في التصوف بالغرب الإسلامي ، إذ رحل مع والده إلى المشرق ولقي الإمام الغزالي و درس عليه . فأدخل التصوف المشرقي إلى الأندلس . وأخذت عليه جماعة منهم أبو يعزى وابن حرزهم وعياض . وتحفظ المصادر استحسانه لكتاب الشفا عندما عرضه عليه تلميذه قائلا له :(بارك الله فيك يا أبا الفضل)(26) .وأخذ عياض على صوفي آخر من أهل غرب الأندلس والمعروفين بالصلاح والتقوى والزهد ، وهو محمد بن خميس صاحب كتاب " المنتقى من كلام أهل التقى " .

قال عياض (سمعت منه بعضه من لفظه ، وجالسته كثيرا ، وأخبرني كتاب الرعاية للحارث المحاسبي) (27) .

هذه المعطيات كانت وراء ما نسب له من كرامات على غرار باقي الصوفية والأولياء داخل بيئاتهم ومجتمعهم (28). كما كان له تأثير في مؤلفه الشفا الذي عكس فيه حبه للرسول وولعه به ، ومداومته على ذكره وتعظيمه والصلاة عليه .

1 - **المحبة** : اعتبر الصوفية أول أودية الفناء ، و العقبة التي يتحذر منها على منازل المحو (29) ، واهتموا بتصنيفاتها ومقاماتها ومظاهرها . لذا لا نكاد نجد كتابا من كتب التصوف لايتناول الحديث عنها .

وقد استهل عياض حديثه عن المحبة بتقرير أهميتها بشواهد الكتاب والسنة :

- اعتمادا على قوله تعالى (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم . . . أحب إليكم من

(26) انظر هامش رقم 17 .

(27) الغنية 161 . ط . الدار العربية للكتاب ليبيا تونس 1978 .

(28) كدعاء السبتي له متى أبطا عن إجابة الملتجيء إليه : الصفوة لليفرني ترجمة عبد الرحمن التمنارتي ، و السعادة الأبدية 86/1 - 87 . و تعطير الأنفاس 88 - 89 . و أورد له صاحب الاعلام كرامات أخرى 368/9 . . . (29) محاسن المجالس 90 .

(30) سورة التوبة ، آية 24

الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره ، والله لا يهدي القوم الفاسقين) (30) . ففي الآية إبراز لأهمية حب الله ورسوله الذي لا يعد له إلا الجهاد في سبيل الله والتضحية بالنفس . كما أنها تدعوا إلى حب الله والرسول أكثر من حب الأهل والأولاد . . . وكل مظاهر"زينة الحياة الدنيا " بدليل نعت محب الأهل أكثر من الله ورسوله بالضال الفاسق. وبذلك يربط هذا الحب بالإيمان.

- وتركز الأحاديث على هذه النقطة بالذات ، فعن أنس أن رسول الله " ص" قال : (لايومن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين) . وعن أبي هريرة عن أنس أنه قال (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما) . وعن عمر بن الخطاب أن الرسول " ص " قال له (لن يومن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه)(31) .

والإيمان هو المقام الثاني من المقامات التي يقوم عليها الدين الإسلامي كما في حديث جبريل وهي : الإسلام ، الإيمان ، الإحسان . ولكل مقام بداية ، وتمكين ، ونهاية . ويتدرج المسلم من منزل إلى آخر متى صحت مقاصده ، ولم تعقه العوائق إلى أن يصل إلى أعلاها ، وهو منزل النهاية (المعرفة) من منازل الإحسان . وحب الله والرسول من الوسائل المساعدة على قطع الأشواط وسرعة التدرج فيها . وإلى هذا يشير ابن العريف في حديثه عن أنواع المحبة : (محبة العوام تنبت من مطالعة المنة ، وتثبت باتباع السنة . . .وهي في طريق العوام عمدة الإيمان) (32)

ويعقد عياض فصلا تطبيقيا يتحدث فيه عما روي عن محبة السلف والأئمة للرسول وشوقهم إليه تنفيذا للآية والأحاديث المتعلقة بذلك. و من هؤلاء أبو بكر، وعمر، وعلي، وعمرو بن العاص، وعبد الله بن عمر، وغيرهم (33) ..

وإبرازا لأهمية المحبة تحدث عياض عن ثواب المحب وجزائه ، وأورد عدة أحاديث تفيد ذلك مثل قوله (المرء مع من أحب) وقوله (من احبني كان معي في الجنة) (34).

---

(31) الشفا 2/18 - 19

(32) محاسن المجالس 91 .

(33) الشفا 2/21 - 23 .

(34) الشفا 2/19 - 20 .

الا ان المحبة الخاصة تكون بدون علة ولاسبب، فهي كما قيل (. . . لذة في المخلوق واستهلاك في الخالق، ومعنى الاستهلاك الا يبقى لك حظ ، ولا يكون لمحبتك علة . . (35)

وحاول المؤلف استقصاء علاماتها اعتمادا على الآيات والاحاديث ، ويمكن اجمالها كالتالي :

1) **الإقــتداء به** : واستعمال سنته واتباع أقواله وأفعاله وامتثال أوامره واجتناب نواهيه، والتأدب بآدابه (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) (36) وفي حديث مروى عن أنس أن النبي " ص" قال (من أحيى سنتي فقد أحبني) . وقال سفيان : المحبة اتباع الرسول " ص". وقالوا : المحبة الموافقــة ، ومعناهــا الطاعة له فيما أمر، والإنتهاء عما زجر، والرضا بما حكم وقدر (37) .واعتبروا الحب المفسر بامتثال الأوامر من قبيل الحب العام الذي يكون مخرجه من الصفات أي من المقامات المكتسبة . وذلك في مقابـــل الحب الخاص حب الذات عن مطالعة الروح . وهو اصطناع من الخالق للمخلوق ، واصطفــاؤه إيــاه . وهــذا الحب يكون من الأحــوال أي موهبـة ليـس للكســب فيهـا مدخل (38) .

2) **كثرة ذكره** ، فمن أحب شيئا أكثر من ذكره . وللذكر نتائج وغايات ، وإشارات الشيوخ في الإستغراق والفناء عائدة كلها إلى تحقيق مقام المحبة باستيلاء نور اليقين وخلاصة الذكر على القلب

3) **الشوق إلى لقائه وزيارته** ، فكل حبيب يحب لقاء حبيبه وفي حديث الأشعريين عند قدومهم المدينة أنهم كانوا يرتجزون :

وقيل المحبة إيثار المحبوب والشوق إليه (39) . ولها ظاهر وباطن : الظاهر اتباع رضـا

---

(35) التعرف للكلاباذي 109 .
(36) سورة آل عمران ، آية 31 .
(37) التعرف 109
(38) التصوف الاسلامي الخالص 140 .
(39) الشفا 29/2 .

المحبوب ، والباطن أن يكون مفتونا بالحبيب عن كل شيء ، ولايبقى له بقية لغيره ولالنفسه (40) .

وقد عبر الصوفية عن هذه الآراء قبل عياض . قال أبو علي القرشي :حقيقة المحبة أن تهب لمن أحببت كلك ولايبقى لك منه شيء . وعن أبي الحسين الوراق أن السرور بالله من شدة المحبة له(41). وعن الجنيد: المحبة أن يميل قلب الصوفي إلى الله وإلى ما لله من غير تكلف(42) .

4) توقيره عند ذكره ، وإظهار الخشوع و الإنكسار عند سماع اسمه . قال إسحاق التجيبي : كان أصحاب النبي " ص " بعده لايذكرونه إلا خشعوا ، واقشعرت جلودهم وبكوا ، وكذلك كثير من التابعين (43) . وإلى ذلك يشير الصوفية بقولهم (من تحقق بالحب الخاص لانت نفسه وذهب جمودها) (44)

وفي توقيره و تعظيمه تعظيم للخالق : ومحبة العبد لله تعظيم يحل الأسرار ، فلا يستجيز تعظيم سواه (45) .

5) محبة من أحب النبي : ومن هو بسببه من آل البيت وصحابته من المهاجرين والأنصار، وعداوة من عداهم ، وبغض من أبغضهم وسبهم . وذكر عياض أحاديث عديدة في حثه " ص " على حب آل بيته وأصحابه كما ذكر اقتداء السلف بالرسول بفعل ما كان يحبه ، واجتناب ما كان يكرهه حتى في مجال المباحات و شهوات النفس من أكل وشرب ولباس . . . (46) .

6) من علامات حب الله ورسوله الزهد في الدنيا وإيثار الآخرة (سنخصص للزهد نبذة مستقلة فيما بعد) .

---

(40) التصوف الإسلامي الخالص 145 .
(41) نفس المرجع 143 .
(42) التعرف 109 .
(43) الشفا 26/2 .
(44) التصوف الإسلامي الخالص 142 .
(45) التعرف 110
(46) الشفا 26/2 .

ويحاول عياض إعطاء تفسير لحقيقة المحبة بعيدا عن نصوص الكتاب والسنة لاعتقاده أن هذه الأخيرة أشارت إلى ثمرات المحبة دون حقيقتها ، أما حقيقتها فهي الميل إلى ما يوافق الإنسان وتكون موافقته له : اما استلذاذه بادراكه كحب الصورالجميلة والاصوات الحسنة والاطعمة والاشربة اللذيذة واشباهها

* أو لاستلذاذه بإدراكه بحاسة عقله وقلبه معاني باطنة شريفة : كحب الصالحين والعلماء وأهل المعروف المأثور عنهم السير الجملية . . .

* أو يكون حبه إياه لموافقته له من جهة إحسانه له وإنعامه عليه ، فقد جبلت النفوس على حب من أحسن إليها .وبناء على ذلك يقرر عياض أن الرسول " ص " جامع لهذه المعاني الثلاثة الموجبة للمحبة ، وهي :

* جمال الصورة والظاهر .

* كمال الأخلاق والباطن .

* إحسانه وإنعامه على أمته . (47)

2) تكريم النبي و تعظيمه : من دلائل حبه وتقديره وتعظيمه ، وهو سلوك عام يقتضي اتباع الأوامر واجتناب النواهي والخشوع ، والإحسان إلى النفس والناس . ويحدثنا عياض – كعادته – عن مواقف السلف في هذا الباب ، فقد كانوا كلما ذكر " ص " بحضرهم تغير لونهم وبكوا خشوعا وإجلالا . وكان جعفر بن محمد لايرى إلا على ثلاث خصال إما مصليا ، وإما صامتا ، أو يقرأ القرآن، ولا يتكلم فيما لايعنيه ، وهي الغاية المتوخاة من التعظيم والتكريم (48) فالمحب الحقيقي لله والرسول يكون مستغرقا في رؤية ما لله ، وما منه لا يهتم بالخلق ولا بالأسباب والأحوال ، وهذه هي محبة الوجد (49) .

---

(47) الشفا 2/28 –30

(48) الشفا 2/41 – 43

(49) التعرف 110 .

ونعرف أن عياضا إنما ألف الشفا لتكريم النبوة ورد الإعتبار إليها لما وقع من تطاول عليها في شخص مدعي العصمة والمهدوية . وقد علق على أبيات في هذا الموضوع بقوله (فما وقر النبوة ولا عظم الرسالة ولا عزز حرمة الاصطفاء ، ولا عزز حظوة الكرامة حتى شبه من شبه في كرامة نالها، أو معرفة قصد الانتقاء منها : أو ضرب مثل لتطييب مجلسه أو إغلاء في وصف لتحسين كلامه من عظم الله خاطره ، وشرف قدره ، وألزم توقيره وبره ، ونهى عن جهر القول له) (50) . ومن مظاهر الإجلال والتعظيم وشدة المحبة له مناصحته :والمناصحة أن نكون (مخلصين مسلمين في السر والعلانية)(51) عن تميم الداري أن الرسول "ص" قال (إن الدين النصيحة) (51م) وكررها ثلاث مرات ، فقالوا لمن يا رسول الله قال: (لله ولكتابه ولرسوله وأئمة المسلمين وعامتهم).قال أبو سليمان البستي: النصيحة كلمة يعبر بها عن جملة إرادة الخير للمنصوح له .و تناول عياض بتفصيل مظاهر نصح الله ورسوله وعامة المسلمين (52) . وبذلك يربط المحبة - وتعظيم النبوة من علاماتها - بالعمل والسلوك ، ويتجنب مجالاتها الفلسفية المعروفة عند الصوفية .

3) **الزهد** : من الموضوعات الصوفية التي اهتم بها عياض في الشفا فعقد عدة فصول من الكتاب لزهد الرسول حاثا على اتباعه والإقتداء بهديه .وقد اتبع نفس المنهج في تناوله للموضوع وهو عرض الأحاديث المروية عن عدد من الصحابة في الزهد : عائشة ، وأنس ، وعبد الرحمن بن عوف ، وابن عباس وغيرهم . . . ويبدو من خلالها زهده " ص " في الدنيا ونعيمها كما في حديثه مع جبريل (دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، قد يجمعها من لاعقل له)(53) ومن مظاهر هذا الزهد ما روته عائشة من أحاديث عن اعتداله " ص " في المأكل (54) وكان دائم الدعاء (اللهم

---

(50) الشفا 240/2

(51) الشفا 31/2 .

(51م) الشفا 32/2 .

(52) أورد عياض أحاديث و أقوالا في أهمية النصيحة ، الشفا 30/2 - 34 .

(53) الشفا 141/1 .

(54) الشفا 140/1 - 141. مما روي عن عائشة في اعتداله " ص" في مأكله ، قولها (ما شبع رسول الله ثلاثة أيام تباعا من خبز حتى مضى لسبيله) وقالت كذلك (كنا آل محمد نمكث شهرا ما نستوقد نارا ، ما هو إلا التمر والماء) الشفا 140/1 - 141 .

اجعل رزق آل محمد قوتا) (55) . ولو شاء أن يكون أغنى إنسان على وجه الأرض ، لسأل ربه ، ولكن زهده كان مقصودا . وقد أوضح ذلك في حديث طويل مروي عن عائشة (56) . ذلك هو الزهد الحقيقي الذي لايكون عن فقر وعجز و إنما وسيلة للتضرع والدعاء والحمد والشكر .وتحدث عياض في الجزء الثاني كذلك عن زهد الرسول في الدنيا ملبسها ومأكلها وتواضعه ومهنته نفسه في أموره، وخدمته بيته ، وتسويته بين الحقير والخطير لسرعة فناء أمور الدنيا وتقلب أحوالها) (57) .

وربط بين حب الله وبين الزهد في حديث رواه سهل بن عبد الله (علامة حب النبي حب السنة ، وعلامة حب السنة حب الآخرة ، وعلامة حب الآخرة بغض الدنيا ، وعلامة بغض الدنيا ألا يدخر منها إلا زاد وبلغة إلى الآخرة) (58) .

كما ربط بين حب الرسول والزهد في الدنيا، والتجرد من متاعها قائلا: ومن علامة تمام محبته، زهد مدعيها في الدنيا وإيثاره الفقر، واتصافه به . فقد قال"ص" لأبي سعيد الخدري (إن الفقر إلى من يحبني منكم، أسرع من السيل من أعلى الوادي أو الجبل إلى أسفله) (59). وفي حديث عبد الله بن مغفل، قال : قال رجل للنبي " ص" : يارسول الله إني أحبك فقال : انظر ما تقول. قال : والله إني أحبك (ثلاث مرات) قال : إن كنت تحبني فاعد للفقر تجفافا) ثم ذكر نحو حديث أبي سعيد بمعناه (60) .إن عياضا بهذه الأحاديث والأقوال يضع اليد على المنابع والأصول الأولى للزهد في الإسلام والتي كانت أساس الحركة الصوفية التي عرفها المشرق ثم باقي مناطق العالم الإسلامي مع ما واكب تطورها من انحراف عن هذه الأصول .

---

(55) الشفا 1/140 - 141 .

(56) و نص الحديث الذي روته عائشة قالت (قال لي إني عرض علي أن يجعل لي بطحاء مكة ذهبا ، فقلت لا يا رب أجوع يوما و أشبع يوما ، فاما اليوم الذي أجوع فيه فأتضرع إليك وأدعوك، و أما اليوم الذي أشبع فيه فاحمدك وأثني عليك) الشفا 1/141 .

(57) الشفا 2/250 .

(58) الشفا 2/28 .

(59) الشفا 2/28 .

(60) الشفا 2/28 . تجفاف : ما يوضع على الخيل من حديد او غيره في الحرب، ويقصد به الصلابة.

4) **التصليات** :التصلية هي الدعاء والإستغفار وحسن الثناء،وهي من أعظم العبادات وأشرفها لدلالتها على حب الرسول والإمتثال لأوامره والإقتداء به . وبذكرالخالق والصلاة على نبيه تطمئن القلوب ، وتطهر الأفئدة والإستغراق فيها يؤدي بالمسلم المخلص إلى الترقي في المعرفة الصوفية والفناء عن عالم الملك إلى عالم أرحب .وإلى ذلك يشير العلماء في قولهم (إن الصلاة على النبي " ص" إذا خلص شربها سطعت أنوارها في الباطن ، وصارت النفس مرآة لصورته " ص " لاتغيب عنها . وهو العلم اليقيني الذي لاشك فيه) (61) . وقيل (من عمر قلبه بالصلاة على مولانا محمد أطلعه الله بأنوارها على أسرار حقائق التوحيد . . . وأفاض عليه من الفتوحات والأسرار والمعارف والأنوار...)(62) .

وبالرغم من أن عصر عياض لم يكن عصر ازدهار للصلوات والأحزاب والأوراد – سيبدأ مع ابن مشيش والشاذلي وغيرهما – فإنه قد جمع أحاديث في ثمرات الصلاة على النبي وفضائلها وأحكامها ، إلى جانب صيغ كثيرة لعدد من التصليات، فيكون بذلك من السباقين إلى هذا الموضوع في المغرب . وستبقى هذه الموضوعات المطروحة في الشفا – على وجه العموم – هي نفس الموضوعات التي سيطرحها الصوفية فيما بعد، مع ميل إلى النقاش والتنظير، في حين أن عياضا آثر- كعادته- منهج سرد نصوص الاحاديث .

ويمكن إجمالها كالتالي : – اعتقاد عياض مع المالكية بضرورة الصلاة على الرسول وعلى أنبياء الله جميعا متى ذكروا اعتمادا على حديث رواه أبو هريرة (صلوا على أنبياء الله ورسله ،فإن الله بعثهم كما بعثني)(63)

– جزاء المصلي على النبي: تختلف الأحاديث التي تنص على جزاء المصلي على النبي وثوابه .ففي بعضها أن الصلاة عليه بعشر أمثالها (كالحسنة) رواها عبد الله بن عمر وأنس وغيرهما. وفي حديث مروي عن عامر بن ربيعة أن الملائكة تصلي على المصلي على النبي مقدار ما صلى، وفي آخر ان ثوابها المغفرة والشفاعة ،وإن عشر تصليات أفضل من عتق رقبة (64). ومع وجود هذه

---

(61)شمس المعرفة للحلفاوي 99 ، م . خاصة .

(62) ميزاب الرحمات لابن المؤقت 5 – 6 ، م . خاصة

(63) الشفا 81/2 .

(64) الشفا 74/2 – 76 .

الأحاديث فإن عياضا يرى أن الصلاة على النبي يجب ألا تكون رجاء الثواب وقضاء الحاجة ، وإنما حبا وإجلالا وتعظيما .

- **كيفية الصلاة على النبي وبعض صيغها :** من أهم مباحث هذا الفصل ، لأن عياضا يسوق فيه مجموعة من الصلوات المروية عن الرسول وبعض الصحابة وسيكون كثير منها أساس أحزاب وأوراد الصوفية فيما بعد .ومن نماذجه ما رواه ابن مسعود قائلا إن رسول الله كان يقول (إذا صليتم على النبي " ص " فاحسنوا الصلاة عليه فإنكم لاتدرون لعل ذلك يعرض عليه ، وقولوا : اللهم اجعل صلواتك ، ورحمتك، وبركاتك على سيد المرسلين ، وإمام المتقين، وخاتم النبيئين، محمد عبدك ورسولك ، إمام الخير ، وقائد الخير ورسول الرحمة اللهم ابعثه مقاما محمودا، يغبطه فيه الاولون والآخرون . . اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم انك حميد مجيد .اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على ابراهيم انك حميد مجيد (65).

- **حكم الصلاة على النبي :** وناقش عياض حكم الصلاة على النبي هل هي فرض عين أو فرض كفاية ، ووقت القيام بها ، وصحة الصلاة أو فسادها عند خلوها منها . فأورد آراء العلماء وأصحاب المذاهب في الموضوع . وفي رأيه أن الصلاة على النبي "ص " فرض على الجملة غير محدد بوقت ، لأمر الله تعالى بالصلاة عليه (يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه . . .) (66) . وحمل الأئمة والعلماء له على الوجوب ، وأجمعوا عليه (67) :

- فعند أبي جعفر الطبري أنها فرض مرة واحدة كالشهادة له بالنبوة ، وما عدا ذلك تحمل على الندب ، في حين أن أبا الحسن بن القصار يعتبرها واجبة على الإنسان مرة واحدة في دهره مع القدرة على ذلك . وهذا رأي مالك .

أما الشافعي فيرى أن من لم يصل على النبي " ص" من بعد التشهد الآخر ، قبل السلام، فصلاته فاسدة ، وإن صلى عليه قبل ذلك لم تجزه . . . وأنكر عليه بعض المتأخرين ذلك مثل الطبري، القشيري وغيرهما .

(65) الشفا 73/2 .
(66) سورة الأحزاب ، آية 56 .
(67) الشفا 61/2 .

- إلا أن أغلب العلماء أوجبوا إعادة الصلاة في حالة عدم الصلاة على النبي في التشهد . وعن آخرين أن كل الذين رووا التشهد عن النبي كابن عباس وأبى هريرة و جابر وأبي عمر وأبي سعيد الخدري والأشعري وعبد الله بن الزبير.. لم يذكروا فيه صلاة على النبي " ص" . إلا أن ابن مسعود يروي عن الرسول حديثا آخر ينص على ضرورة الصلاة على النبي في كل صلاة (من صلى صلاة لم يصل فيها على علي، وعلى أهل بيتي لم تقبل منه)(68).

والنتيجة التي يمكن الوصول إليها من خلال هذه الأقوال أن الصلاة على النبي فرض عين ، وأنها واجبة في كل صلاة ، إذ أنها جزء من التشهد الذي لاتتم الصلاة إلا به . ويستحب الإكثار منها وجريانها على اللسان والقلب بدون مشقة (69) .

<u>المواطن التي تستحب فيها التصليات</u> : أهمها حسب عياض

1- في تشهد الصلاة ، ففي أحاديث أن الدعاء والصلاة معلقان بين السماء والأرض ،فلا يصعد إلى الله منهما شيء حتى يصلى على النبي .

2 - عند دخول المسجد أو بيت من البيوت .

3 - الصلاة على الجنائز . 4 - الصلاة والسلام في الرسائل ، وما يكتب بعد البسملة ، وما تختم به الكتب (70) .

- <u>ويروي عياض أحاديث في ذم من لم يصل على النبي</u> ، فعن علي أن الرسول " ص" قال (إن البخيل كل البخيل من ذكرت عنده فلم يصل علي)(71)

- <u>معاني الصلاة والتسليم</u> : ترد الصلاة بمعنى الدعاء والترحم ، فعند القشيري أن الصلاة من الله تعالى لمن دون النبي " ص " رحمة ، وللنبي تشريف وزيادة تكرمة قال أبو العالية ، صلاة

---

(68) الشفا 2/61 - 64 .

(69) سنعود إلى هذا الموضوع في الفصل الثالث من هذا الكتاب . انظر ميزاب الرحمات 294 - 301 .

(70) الشفا 2/64 - 68 .

(71) الشفا 2 / 77 - 80 .

الله وثناؤه عليه عند الملائكة ، وصلاة الملائكة الدعاء ، قال القاضي أبو الفضل : وقد عرف النبي " ص" في حديث تعليم الصلاة عليه بين لفظ الصلاة ولفظ البركة ، فدل أنهما بمعنيين .

وأما التسليم الذي أمر الله تعالى عباده ، فقد قال القاضي أبو بكر بن بكير : نزلت هذه الآية على النبي " ص " (إن الله وملائكته . . .) فأمر الله أصحاب الرسول أن يسلموا عليه ، وكذلك من بعدهم أمروا بالسلام عليه عند ذكره أو عند زيارة قبره .وفي معنى السلام ثلاثة وجوه :

* الأول :السلامة له ، ومعه ، ويكون السلام مصدرا .

* الثاني : السلام على حفظه ورعايته متول له وكفيل به ويكون السلام هنا اسم الله .

* الثالث : السلام بمعنى المسالمة له والإنقياد لما قال (فلا وربك لايومنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم، ثم لايجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ، ويسلموا تسليما)(72) .<u>علمه " ص" بالصلاة والسلام عليه</u> : تناولت كتب التصلية قضية بلوغ الصلاة للرسول ، وعلمه بها . وقد أقروا بذلك اعتمادا على أحاديث صحيحة .ومنهم عياض الذي ذكر في هذا الصدد حديث أبي هريرة عن الرسول أنه قال (ما من أحد يسلم علي إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام) وحديثا ثانيا عنه كذلك أن الرسول " ص " قال (من صلى علي عند قبري سمعته، ومن صلى علي نائيا بلغته). وعن الحسن بن علي أن الرسول قال (حيثما كنتم فصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني) (73) .

هذه الأحاديث وأحاديث مثلها من الأسباب التي كانت وراء هذه التآليف الغزيرة في الصلاة والسلام على الرسول ، إلى جانب ما يروى من فضائل الصلاة عليه وثمراتها ، وما لذلك كله من أثر في تهذيب النفس وعلاجها وتصفية الفؤاد وتنقية السريرة .

---

(72) سورة النساء ، آية 65 . انظر الشفا 2/60 – 61

(73) الشفا 2/77 –78 .

خصائص الكتابة الصوفية من خلال الشفا

1 - وحدة القصد و تعدد الوسائل : قصد عياض من الشفا تكريم النبوة بإبراز ما يجب على الأنام من حقوقه ، ومايستحيل في حقه ، أو يجوز عليه و تعظيم الخالق لقدره "ص". . . والدعوة إلى تعظيمه ومحبته . وحاول تحقيق ذلك بعدة وسائل استعراض مراحل من سيرته " ص" ، الإستشهاد بالقرآن ، والحديث على الخصوص ، رواية كثيرمن أخبار الصحابة والسلف الصالح ، وعلاقتهم بالنبي وتنفيذهم لأوامره ، وتعلقهم به . وتدخل هذه المباحث المتصلة بالتصوف في هذا الباب . فقد جعل المحبة وسيلة من وسائل تعظيمه ، فهي جزء من الإيمان ومكملة له والزهد مظهر من مظاهر الإقتداء به في أقواله وأعماله ، والتصليات علامة من علامات محبته والتعلق به . فالقصد واحد وإن تعددت الوسائل .وهو نفس الهدف الذي عمل عياض على تحقيقه في شعره (تكريم النبوة) فتكون كتاباته في التصوف هادفة ، لاتحركها رغبة في تحديد المصطلحات، أو تتبع المقامات والأحوال، وسبل إظهار الكرامات إلى غير ذلك مما شغل كثيرا من الصوفية من معاصريه وغير معاصريه، وبمعنى آخر، حاول التوفيق بين الشريعة والحقيقة . . . وتأتي في هذا الباب انتقاداته وانتقادات شيخه ابن العربي لكتابات الإمام الغزالي بسبب ما أدخل فيها من أغراض صوفية ، فيها غلو إفراط وتطاول على الشرع لذلك دعا إلى الإقتصار على ما في الأحياء من خالص العلم (74) .ولعل هذا الموقف هو الذي جعل بعض المؤرخين يعتبرونه من الداعيـــن إلى إحراق الكتاب (75) .

2 - المصادر : المصادر المعتمدة في شفا عياض هي المصادر ذات الحجة البالغة التي لايمكن ردها كالقرآن والحديث . وقد أكثر عياض من إيراد الأحاديث لاتصالها المباشر بموضوع النبوة حتى أنه ليمكن اعتبار الشفا بحق من مصنفات الحديث إلى جانب الكتب الصحاح والسنن . . . كما اعتمد مؤلفات كبار الصوفية ومنها على الخصوص قوت القلوب لمكي بن أبي طالب الصوفي القيرواني ، والرسالة القشيرية ، ولطائف الإشارات للقشيري . إلا أن المصادر الأكثر ورودا في الكتاب هي الصحاح ، وكتب الحديث على وجه العموم (76) .

---

(74) التعريف 106 ، و في الشفا نقد عنيف للغزالي

(75) انظر ماقلناه عن عياض و مواقفه السياسية في الفصل الثالث من الكتاب الأول

(76) كتاب الشفا ، بدري محمد فهد ، مجلة المناهل عدد 19/488 - 535 . تحدث فيها عن المصادر .

3 - **الإستشهاد بالشعر** : لم يكن القصد منه إقامة الحجة والبرهان، لأنه لا يجوز الإحتجاج بما ليس بديني على ماهو ديني. فهو يتوسل بالمصادر السابقة الذكر لتحقيق هذه الغاية، وإنما يقصد به إثارة العواطف والمشاعر لمواكبة الغرض العام وخدمته . فما من شك أن للشعر قدرة على تحريك النفوس واستمالتها وتبليغها الخطاب المقصود بدون عناء. لهذا يستعين به الصوفية والوعاظ وكتاب الطبقات والتراجم. وقد استشهد عياض بعدة مقطوعات شعرية ، وعلى الخصوص في القسم الخاص بالتصوف(77). ولم يكن يهتم بذكر اسم الشاعر في الغالب، مع أن منها ما ينسب إليه كقصيدته التائية المشهورة الواردة في فصل (من اعظامه واكباره إعظام جميع أسبابه . واكرام مشاهده وأمكنته من مكة والمدينة) (78) .

4 - **الحكايات والأمثال**: وتنهض الحكايات والأمثال بنفس أدوار الشعر ، أي التأثير في المخاطب وتهييج وجدانه ، وتحريك مشاعره . فالحكايات المروية عن خشوع الصحابة والسلف الصالح وبكائهم عند ذكر النبي، وتضحيتهم بحياتهم وأهلهم في سبيل إرضائه واتباع سنته ، والتي تظهر مدى حبهم له وتعلقهم به . . . كلها أمثلة ناجعة، بليغة التأثير، وسهلة الحفظ والتذكر . وهي دلائل عملية وبراهين ثابتة على ما كان عليه المسلمون الأولون من تقديس للنبوة واحترامها جديرة بالإتباع . وقد اعتمدها في كل أقسام الكتاب ولما كانت الغاية منها خدمة الغرض المقصود من التأليف (تكريم النبوة) ، فإنه تحرى فيها الاعتدال ، فجاءت حتى في القسم المتصل بموضوع التصوف خالية من مبالغات حكايات الصوفية ، وكراماتهم، ونوادرهم، فسايرت بذلك الاتجاه العام لدى المؤلف القاضي بالملاءمة بين الشريعة والحقيقة .

5 - **تمحيص السند** : لم يكن الصوفية على وجه العموم يتحرون الصحة في استعمال الحديث النبوي ، بل كانوا يستدلون به مجردا من سنده لأن المغزى من ذلك عندهم هو أخذ العبرة والدعوة إلى العمل الصالح لهذا كان للفقهاء موقف خاص من الأحاديث الواردة في مؤلفاتهم لعدم مراعاتهم قوانين الإسناد والتحديث والتعديل . . .

---

(77) انظر بعضها في الجزء الثاني 9 - 10 - 22 - 23 - 58-59 .

(78) الشفا 56/2 - 59 . ومطلع القصيدة :

يا دار خـــيـــر المرسلين ومن بـه هُـــدى الانـــام وخـــص بـــالآيـــات

وقد خالف عياض المحدث هذا المنهج في الشفا ، وكان فيه أقرب إلى منهج الفقهاء والمحدثين بتمحيص السند وتتبعه والإعتناء به في أغلب فصول الكتاب . وذلك تثبيتا للشرعية ، ومراعاة لقوانين الإسناد . خاصة وأن الهدف من الكتاب كان أعمق من مجرد تقديم العبرة والإصلاح كما هو شأن كتب الصوفية .

وكان عياض يقحم نفسه في كثير من الأسانيد التي رواها عن شيوخه رغبة منه في التأثير والإقناع والتأكيد . ويحرص على ذكر طريقة الأخذ .وهذه أمثلة من الشفا (قسم التصوف) :

- إجازة ، كقوله : حدثنا القاضي أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الأشعري ، وأبو القاسم أحمد بن بقي الحاكم، وغير واحد فيما أجازونيه قالوا ...) (79) .

- أو قراءة كقوله : (حدثنا القاضي أبو علي رحمه الله بقرائتي عليه، قال حدثنا الإمام أبو القاسم . . .) (80) .

- أو سماعا ، كقوله : (حدثنا القاضي أبو علي الصدفي ، وأبو بحر الأسدي بسماعي عليهما) (81) .

- وقد يكون نفس الحديث مرويا عن شخصين، وبطريقتين مختلفتين، كما هو الشأن في قوله عند حديثه عن التصليات (وحدثنا القاضي أبو عبد الله التميمي سماعا عليه، وأبو علي الحسن ابن طريف النحوي بقراءتي عليه ...قالا)(82)

- كتابة ونقلا ، كقوله : (أخبرنا الشيخ أبو محمد بن أحمد العدل من كتابه و كتبت من أصله . . .) (83) .

---

(79) الشفا 2/40 - 41 .

(80) الشفا 2/64 .

(81) الشفا 2/37 .

(82) الشفا 2/69 .

(83) الشفا 2/47 .

ويتتبع عياض السند إلى أصله و منطلقه وهو الرسول " ص " وأغلب أحاديث الشفا مروية عن رواة اشتهروا بالصدق والثقة كأبي هريرة وابن عباس وابن عمر وأبي سعيد الخدري وعلي وعائشة وأبي بكر ، وغيرهم . وبهذا الأسلوب يدعم عياض مروياته ويؤكد صحتها فيقنع المخاطب المتلقي . وقد أشار الباحثون إلى منهج عياض الحديثي وطرقه في التحقيق والتدقيق والتقعيد ، فاعتبروه في تفاصيله منهجا فريدا لم يسبق إليه (84). وهذا لم يمنع السيوطي من إبداء كثير من الملاحظات على أحاديث الشفا و مروياته (85) .

6 - **تنوع أساليب الإستدلال** : تحقيقا للغاية من كتاب الشفا أي تعريف المخاطب بحقوق المصطفى ينوع عياض أساليب الإستدلال و مناهجه :

* فهو يعتمد منهج النقل و الوقوف مع النصوص والأخبار وإيراد طرق الإسناد وهو وقوف ضمني مع المنهج السني(86)

ويقوم على إيراد الآية وتفاسيرها المختلفة ، وقد يجملها أحيانا ويكثف معناها ، أحيانا أخرى يستعرض القراءات الشاذة أو المختلفة التي يتغير تفسير الآية بمقتضاها . وأحيانا أخرى يقدم تفسيرا شخصيا لها دون اعتماد على غيره .

ويأتي بالأحاديث المؤكدة لمعاني الآيات المستشهد بها ويقوم بعمل مماثل بالنسبة لهذه الأحاديث مفسرا غريبها وظروف قولها ، وكثيرا ما نصادف لديه مثل هذه العبارة (فصل في تفسير هذا الحديث) (87) .

---

(84) انظر على الخصوص مقالة د . يوسف الكتاني : عياض المحدث . دورة القاضي عياض 203/1 - 228 . منشورات وزارة الأوقاف 1981 . و انظر كذلك ج 17/2 أ - 130 .من نفس المنشور

(85) أخذ عليه السيوطي التكلف و اعتماد أحاديث ضعيفة أو موضوعة في : مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا . ط . 1276 هـ على هامش المدد الفياض للعدوي .

(86) مقدمة معاصرة لكتاب الشفا ، محمد الكتاني ، المناهل 1980/19 .

(87) الشفا 161/1 وما بعدها .

* ولايقتصر هذا المنهج على تقديم الآيات والأحاديث وتفسيراتها ، بل إن عياضا يدلي بآرائه ، ويناقش ويعلل ويقدم رأيا على آخر اعتمادا على الحجج المقدمة و على تحليله الخاص كما في فصل الإسراء ، وفي موضوع كراهية الصلاة على غير النبي ، كقوله بعد النقاش(والذي ذهب إليه المحققون وأميل إليه ما قاله مالك وسفيان رحمهما الله)(88) . وفي موضوع إمكانية رؤية الخالق، استعرض الآراء و ناقشها ، ورجح جانب القائلين بإمكانية الرؤية (وليس في الشرع دليل قاطع على استحالتها ... ولا حجة لمن استدل على منعها بقوله تعالى " لا تدركه الأبصار"(89) لاختلاف التأويلات في الآية)(90) .

والأمثلة كثيرة على مناقشاته وتدخلاته التي تجاوزت مجرد النقل .- وكتب عياض فصولا من الشفا بدون نقول ولا استشهادات ، وإنما اعتمد فيها على إنشائه ، وخاصة بداية الباب الثاني من القسم الأول : في تكميل الله تعالى له بالمحاسن خلقا وخلقا . . . وفصل المال ، والمتاع ، والعقل . . . (91)

- وتجلت في الكتاب بعض اهتمامات عياض وخاصة منها ما يتصل بالأدب والبلاغة فقد تحدثنا عن الإستشهادات الشعرية ، ونذكر الآن - التجليات والإشارات البلاغية في بعض الفصول كما في حديثه عن إعجاز القرآن ، وإعجاز النظم والأسلوب وتلميحه إلى ما في سورة الضحى من وحي وإشارة ، وهو أبلغ أبواب الإيجاز وما في الآية (يد الله فوق أيديهم) (92) من استعارة وتجنيس . وفي الآية (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) (93) ، من مقابلة اللفظ ومناسبته.(94) إلى غير ذلك مما يتضمنه الكتاب من إشارات و تلميحات تعكس اهتمامات عياض.

---

(88) الشفا 80/2 - 83

(89) سورة الأنعام ، آية 103 .

(90) الشفا 198/1 - 199 .

(91) الشفا 54/1 - وما بعدها .

(92) سورة الفتح ، آية 10.

(93) سورة الأنفال ، آية 17 .

(94) انظر هذه الموضوعات في الشفا 258/1 - 285 .

إن في تغليب المنهج النقلي محافظة على وحدة الأمة ، والتزام خطها (المذهب المالكي) الذي يهتم بالحديث والأثر أكثر من اهتمامه بالمناظرة والجدل خصوصا وأن الكتاب لم يؤلف لإقناع منكري نبوة الرسول ، ولا للطاعنين في معجزاته ، بل ألف لأهل الملة الإسلامية المصدقين للنبوة حتى تتقوى محبتهم ويزدادوا إيمانا مع إيمانهم .

7 - **المعجم** : يمكن الحديث عن عدة معاجم في الكتاب ، نظرا لتعدد موضوعاته . وإذا كان موضوع ألفاظ الحديث ومصطلحاته هو السائد في الشفا ، فإن المقدمة والأقسام الخاصة بالتصوف لم تخل من معجم صوفي واضح فقد جاء في مقدمة الكتاب :(وأما بعد ، أشرق الله قلبي وقلبك بأنوار اليقين ، وألطف لي ولك بما لطف بأوليائه المتقين ، الذين شرفهم الله بنزل قدسه ، وأوحشهم من الخليقة بأنسه ، وخصهم من معرفته ومشاهدة عجائب ملكوته ، وآثار قدرته ، بما ملأ قلوبهم حبرة ، وولّه عقولهم في عظمته حيرة ، فجعلوا همهم به واحد ، ولم يروا في الدارين غيره مشاهدا ، فهم بمشاهدة جماله وجلاله يتنعمون . . . وبالانقطاع إليه والتوكل عليه يتعززون) (95) .

ففي هذا الجزء القصير من المقدمة كلمات (الإشراق ، الأنوار ، اليقين الإلطاف ، الأولياء ، التقوى ، الإستيحاش ، الأنس المعرفة ، المشاهدة ، الملكوت ، الحبرة الوله ، الهمة ، الجمال ، الجلال ، الإنقطاع، التوكل ، الصدق . . . .) وهي مصطلحات خاصة بالصوفية ولغة يتخاطبون بها ، ويقتضي فك رموزها كلام طويل .

وما أكثر مثل هذه الفقرات خاصة في الفصول التي تحدث فيها عن المحبة وعلاماتها ومظاهرها ، والتصليات وثمراتها ونتائجها ، (وعبارات التصليات نفسها مكونة من معجم صوفي)، وتعظيم النبوة ، والزهد في الدنيا ومتاعها. . . .وتتردد في الشفا عبارات مثل : حكى عن بعض المريدين ، وحكي عن بعض المشايخ ، وعند الصوفية . . . وهكذا يتم التوافق المشار إليه بين الشريعة والحقيقة حتى على المستوى المعجمي العام .

(95) الشفا 1/3 - 4

خـــاتمـــــة:

يمكن القول بأن هناك تكاملا بين آثار عياض ، فمن تكريم النبوة وتدوين السيرة والشمائل المحمدية في قصائده المدحية الدينية ، إلى تكريمها ورد الإعتبار إليها والتعريف بحقوق المصطفى" ص" في كتاب الشفا. مع نفس الاهتمام والغرض ، تدوين السيرة وجمع الأحاديث . . . وهو في هذه الآثار كلها يوفق بين الشريعة والحقيقة فلا يسد الأبواب في وجه التيار الصوفي ، الذي كانت أسسه تمر بمرحلة التكوين في عصره ، ولا ينساق وراءها مندفعا بل إنه يأخذ من هذا وذاك بالمقدار الذي يضمن استمرارية وحدة الأمة المغربية ولايهدد كيانها . هذه الوحدة التي لم تتحقق إلا بعد حروب وانقسامات دامت قرونا . ومما جعله شديد التشبث بهذا المنهج التوفيقي ما شعر به من تهديدات لها مصدرها : تلك الدعوات الصوفية المتطرفة القادمة من المشرق والتيار المذهبي الموحدي المؤسس بالمغرب على يد ابن تومرت مهدي الموحدين . وسيبقى عياض مخلصا لمذهبه ومنهجه إلى آخر يوم في حياته .

المبحث الثاني - وسائل الجزولي و كتاباته

للجزولي مكانة بارزة في التصوف المغربي ، فهو مجدد الطريقة الشاذلية ، ومؤسس فرعها الذي حمل اسمه . ولقن الطريقة لعدد من الأعلام المشارقة والمغاربة ، فكان لكثير منهم تميز واضح وعطاء خصب في مجال التصوف ومع هذا اشتهر الجزولي بأحزابه وأذكاره وتصلياته (دلائل الخيرات) أكثر مما اشتهر بكتاباته في مجال التنظير الصوفي . ولعل هذا راجع لا إلى عدم اهتمامه بالكتابة ، وإنما إلى ضياع كثير مما كتبه ، الشيء الذي يجعل صياغة نظرية متكاملة لطريقته الصوفية من أصعب المهام

ويطمع هذا المبحث إلى تحقيق ذلك من خلال هذه الشذرات التي وصلتنا من كتاباته . وستكون مصدرنا الوحيد في هذه المحاولة .ويمكن تصنيف هذه الكتابات إلى ثلاثة أصناف :

- أولا : الرسائل : منها

1) عقيدة الجزولي ، مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط ضمن مجموع (96) .

2)رسالةالتوحيد،توجد أوائلها في خزانة ابن يوسف بمراكش(97)

3) كتاب الزهد ،توجد أوائله في خزانة ابن يوسف بمراكش (98)

- ثانيا : أجوبة ومراسلات ، في الخزانة العامة بالرباط (99) نموذج منها بعنوان (أجوبة في الدنيا والدين) وفي كتب الطبقات الصوفية والأسانيد بعض مراسلاته ، وكلامه .

---

(96) رقم 7245 ، من ص 24 إلى 36 .

(97) رقم 587 ، من 41 إلى 43 .

(98) ضمن مجموع رقم 587 من 43 إلى 44 .

(99) م . رقم 731 ق ص 15 - 16 .

ثالثا : المكاشفات ومناجاة الإلهام ، يقر الصوفية – بما في ذلك الجنيد والشاذلي والجزولي – بانتهاء المجاهدة إلى زوال الحجاب وحصول المكاشفة، فيشاهد الصوفي ما يشاهد، ويسمع مايسمع، ويقتبس من ذلك كله الفوائد والأقوال وهي ما أطلق عليه " مناجاة الإلهام " . وتختلف هذه المناجيات باختلاف المذاهب الصوفية، فالطرق السنية على وجه العموم (شاذلية، جزولية . . .) لاتقبل منها إلا ما وافق أحكام الكتاب والسنة .وهذا ما يجعل الأقوال التي ساقها الجزولي في باب المناجيات الإلهية جديرة بتكميل ما ورد في رسائله ومراسلاته من آراء .

وتتناول كتابات الجزولي الموضوعات التالية :

أ – التوحيد ومعرفة الذات الإلهية : اهتم الجزولي بهذا الموضوع اهتماما كبيرا فخصص له رسالة (التوحيد) وعقد فصلا من عقيدته تحت عنوان (في معرفة الله) وكان محور إحدى مراسلاته (أين الله) .وفي هذه الموضوعات يورد الآيات الدالة على التوحيد والتنزيه : ليس كمثله شيء (100) – قل هو الله أحد (101) – الله لا إله إلا هو الحي القيوم (102) . والتوحيد في نظره على أربعة أقسام ، هي :

– **الصفات الذاتية** : وهي الوحدانية، الوجود ، القدم البقاء ، القيام بالنفس، والمخالفة للحوادث

– **الصفات المعنوية** : العلم ، القدرة ، الإرادة ، الحياة ، الكلام، السمع ، البصر ، الإدراك لجميع المشمومات من غير شم، والملموسات من غير لمس . . . . فلا يعلم صفة الله إلا الله، ولا كيف هو إلا هو .

– **الصفات السلبية** : لاشبيه له، لا شريك له، لانظير له، لا ولد له، لا صاحبة له .

– **الصفات الفعلية**:الرحمن، الرحيم ، الرزاق، الخلاق، الباعث، الوارث(103) . وينتهي

---

(100) سورة الشورى ، آية 11

(101) سورة الإخلاص ، آية 1 .

(102) سورة البقرة ، آية 255

(103) رسالة التوحيد 41 – 43 . و عقيدة الجزولي 33

إلى أن الصفات والذات شيء واحد فالله عالم قادر بذاته ، متجنبا الوقوع في الجسمية (الصفات الزائدة على الذات) أو في التعدد (الصفات المستقلة عن الذات). مقتربا بذلك من فكرة التوحيد عند المعتزلة. وقد بنى جزءا من حزبه الكبيرعلى هذه الفكرة (التوحيد) (104) .

ويبدو أن هذه الرسائل والأجوبة وضعت للمبتدئين من المريدين ، والعوام ، لما اتسمت به من تبسيط وحوار : ففي موضوع معرفة الخالق يسوق الحوار التالي فإن قيل بم تعرف الله سبحانه ؟ فقل أعرفه بسبعة أشياء :الوجود و القدم و العلم والقدرة و الإرادة و الحياة والوحدانية .وفي الحديث من عرف نفسه فقد عرف ربه . أي من عرف نفسه بالنقصان ، عرف ربه بالكمال . ومن عرف نفسه بالحدوث والفناء ، عرف ربه بالقدم و البقاء . من عرف نفسه بأنها محل الدنس والعيوب والخيانة ، وخالف هواها في عبادة ربه، فإن ذلك يوصله إلى معرفة ربه ونظر العبد مابين الصانع والمصنوع يستدل به على أن لكل صنعة صانعا ومخترعا ومبتدعا . وهو" .الذي لايخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء (105) . ويختم حديثه عن معرفة الخالق بقوله : المعرفة أنوار تلمع في القلوب ، لأنها مهدة للإيمان . فمن عرف الله آمن به ، والإيمان محله القلب (106) .

ويجيب على سؤال العامة (أين الله ؟) بقوله تعالى (وهو معكم أين ما كنتم)(107). قريب من غير اتصال ، وبعيد من غير انفصال . وتطرح هذه الأسئلة البسيطة التي يوجهها العامة والمريدون المبتدئون إلى الشيخ بعض المشكلات الكلامية : فالقرب والبعد يتصلان بالمسافة . والمسافة في حقه تعالى محال . وفي القول بوجوده داخل الأشياء أوخارجها اعتراف بوجوده في جهة معلومة، لهذا يلجأ الجزولي إلى التأويل. فلا هو داخل الأشياء،ولاهوخارجها لقوله تعالى (ليس كمثله شيء)(108).والقول بوجوده في السماء يؤول بعلوه وجلاله و انفراده بصفة الكمال التي لاتدرك

---

(104) الحزب الكبير المسمى " سبحان الدايم"

(105) رسالة التوحيد 43 – 44 . و عقيدته 33 – 34 .

(106) رسالة التوحيد 43 – 44 . و عقيدته 33 – 34 .

(107) سورة الحديد ، آية 4 .

(108) سورة الشورى ، آية 11 .

بالعقل والقياس والقول بوجوده في الأرض يؤول بتعظيمه وذكره وهيبته ومحبته والإستئناس به في قلوب العارفين الذين لا يفترون على ذكره ، جل الملك الحق عن الحلول في القلوب والإستقرار والتمكين في المكان (109) . وفي هذا التأويل إقرار بوحدة الخالق وتنزيهه وتعظيمه . وقد دعا إلى جعل هذا التعظيم هدفا مقصودا بالعبادة قبل أي شيء آخر (لاتشتغلوا بالنفوس ولا بالقلوب ، واشتغلوا بتعظيم علام الغيوب . . . فمن اشتغل بمخالفة نفسه أو تصفية قلبه فليس بعابد لله تعالى) (110) .

والعناية بالله تسبق ما عداها (ليس العناية (كذا) من تعنى بالأموال والأولاد . وإنما العناية من تعنى برب الأرباب ، و ليس العزيز من تعزز بالقبيلة و بالأموال و الأولاد ، وإنما العزيز من تعزز بالله و صفته) (111) .

يجب أن ينظر إلى هذه الآراء على ضوء ظروف وملابسات قولها : ففي الإقرار بوحدانية الله و تنزيهه ابتعاد عما عرفته بعض المذاهب الصوفية من تقريب الخالق من المخلوق بالقول بالحلول والإتحاد . . . وفي تقديم العبادة و الإشتغال بتعظيم الله وذكره رفض للإتجاهات التي كانت تجعل التصوف غاية في حد ذاته لا وسيلة لمعرفة الخالق ، ثم مجاهدة النفس بعد ذلك ، و جعلها - أي العبادة - أساسا للعزة التي لا تعد لها عزة أخرى . و لعل المقصود هنا مناهضة ما كان يعرفه عصر الجزولي من تحزبات قبلية و منافرات لاسبيل إلى إزالتها إلا بجمع كلمة القبائل على صعيد واحد : عبادة الله والإخلاص له ليتم التدرج بعد ذلك في مدارج السلوك والطريق .

2 - المعرفة الصوفية : لم يخرج الجزولي عن مقولات الصوفية في المعرفة ، فهي حدسية بالمقارنة مع المعرفة الفقهية البرهانيـــة . تتميز بقوة اليقين، و كشف الحجاب ، و محو الشكوك والأوهام الشيء الذي يؤدي إلى الإقتراب من الله . و قد ميز بين علم الأرض - و هو علم الفقهاء - أو ما سماه بعلم الظاهر وهو المأخوذ من الأنبياء وأصله الوحي، و بين علم السماء أو علم الباطن وهو

---

(109) عقيدة الجزولي 33 ، أجوبة في الدنيا و الدين 15 .

(110) ممتع الاسماع 23 - 24 ، بادرة الإستعجال 51 ، إظهار الكمال257

(111) ممتع الاسماع 5 ، بادرة الاستعجال 50 ، اظهار الكمال 236 .

المأخوذ من الله تعالى بواسطة الإلهام و سواطع الأنوا ر (112) . مبينا أن علمه من النوع الأخير (الباطن) : (لا تقولوا رحمكم الله إني آخذ العلم من الأرض ، أو من السماء ، بل آخذه من غير أرض و لا سماء) (113) . بمعنى أنه يستمده مباشرة من الخالق . و في إحدى مناجاته إشارة إلى ذلك (و ألهمتك الإستماع مني) (114) و في هذا الرأي تقديم للأولياء على الأنبياء و العلماء لمعرفتهم الله عن طريق الشهود و العيان لا عن طريق الوحي و البرهان .

3 - الإسلام و الإيمان : أولى الجزولي في " رسالة العقيدة " لهذا الموضوع أهمية كبيرة ، و حلل فيها تفاصيل قواعد الإسلام و الإيمان مما يدل أنها كانت موجهة لعامة الناس والمبتدئين من المريدين.فهويسمي غيرالمسلمين"بالمجانين أعدا ءالله" ومن يبتغ غيرالإسلام دينا فلن يقبل منه(115) . ويوضح الجزولي معنى الإسلام بتفسير مبسط لأركانه الخمس محللا معاني وشروط الشهادة والصلاة والزكاة والصوم والحج . .

و يأتي الإيمان بعد الإسلام و مكملا له ، إذ أن أركان الإسلام تهم الظاهر فالعامل بها مسلم . إلا أن المسلم الحقيقي هو الذي : (يلبس حلة الإيمان على باطنه و قواعده المألوفة التي بين المؤمنين معروفة) (116) .

و يصنف الأركان أربعة أصناف :

- قسم يتعلق بالقلب و اللسان : الشهادة .- قسم يتعلق بالأبدان : الصلاة و الصوم .

- قسم يتعلق بالأموال : الزكاة .

- قسم يتعلق بالزمان و المكان : الحج (117)

---

(112) أجوبة في الدنيا و الدين 15

(113) ممتع الأسماع 6 ، بادرة الإستعجال 50 .

(114) ممتع الأسماع 26 ، إظهار الكمال 260

(115) سورة آل عمران ، آية 85 .

(116) العقيدة 25

(117) العقيدة 25 - 28 .

كما تناول ركائز الإيمان و قواعده و هي :

- الإيمان بالله إيمانا راسخا لا يقاربه شيء من التكذيب و الشك .

- الإيمان بالملائكة و بكونهم من خلق الله و عباده المكرمين .

- الإيمان بالكتب المنزلة بكلام الله القديم القائم بذاته القديمة ، المستحيل انتقاله عن محله العزيز النزيه المقدس .- الإيمان برسله الذين اختارهم من البشر لتبليغ وحيه و رسالاته - الإيمان باليوم الآخر أي ببعث الموتى و حشرهم يوم القيامة و وزن أعمالهم و جزائهم على ما قدمت أيديهم .

- الإيمان بالقدر خيره و شره ، حلوه و مره ، إيمانا كليا (118) .

و في حديثه عن هذه القواعد تبسيطات تدل على نوعية مخاطبيه، ففي حديثه عن الإيمان بالكتب أشار إلى أنه لايقصد الأرضية منها التي بين أيدي الناس كالمدونة، و مختصر ابن الحاجب ..

وفي حديثه عن الإيمان بالرسالة و الرسل ، ذكر أن كثيرا من الجهلة يقصدون بها رسالة ابن أبي زيد القيرواني الشهيرة .و يقارن الجزولي بين الإسلام والإيمان فيقرر ما يلي (119) :

الاســـــلام	الايمـــــــان
= هو الانقياد والامتثال	= هو التصديق
= عمل الجوارح الظاهرة	= عمل الباطن
= قول وفعل	= ليس بقول ولا بفعل
= محله الصدر	= محله القلب
= فرع	= أصل
= يزيد وينقص بزيادة الاعمال	لايزيد ولاينقص
= أعم	= أخص

(118) العقيدة 25 - 28

(119) العقيدة 34 .

وللإيمان دعائم و شروط و حقيقة و مراتب :

- دعائمـه : النظر إلى الأشيـــاء لقولــــه تعالــى (أفــلا ينظرون إلى الإبــل كيف خلقـت) (120).

- شروطه : منها التقوى لقوله تعالى (و اتقوا الله الذي أنتم به مومنون) (121) .

- حقيقته : المحبة ، لقوله " ص " لا يبلغ أحدكم حقيقة الإيمان حتى يحب لأخيه المومن ما يحب لنفسه .

- <u>وشـــروطـــه ثــلاثـــة</u>:

* علم دون جهل .

* اخلاص دون شرك ، و يقين دون شك .

* استواء الظاهر و الباطن .

<u>- و مراتبه أربعة : لكل واحدة منها قواعد</u>:

1 - الإسلام (بقواعده المعروفة) .

2 - السلامة .

3 - الإيمان (بقواعده المذكورة)

4 - الإحسان ، و معناه أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك حيث لا تراه .
وأصوله أربعة : الصبر / الشكر / الرضى / التوكل (122)

---

(120) سورة الغاشية ، آية 17

(121) سورة المائدة ، آية 88 .

(122) العقيدة 35

بعد الشروط التوضيحية لمفهوم الإسلام والإيمان وقواعدهما يلتقي الجزولي مع مضمون حديث جبريل الذي يجعل الدين قائما على ثلاثة مقامات ، هي الإسلام / الإيمان / الإحسان . إلا أنه لم يسلك مسلك بعض الطرق الصوفية في تحديد منازل كل مقام من هذه المقامات(بداية/ تمكين / نهاية) وتدرج المريد فيها لبلوغ الهدف المرغوب فيه:المعرفة الصوفية(123) .ومرد ذلك إلى أن هذه العقيدة وجهت إلى طبقة من المخاطبين كانت بحاجة إلى إدراك القواعد الأساسية للدين قبل الشروع في التربية الروحية .

– الـتـلقـــــين : إذا كانت الطريقة الشاذلية لم تشترط وجود شيخ يوجه المريد ويأخذ بيده للتغلب على صعوبات الطريق، و الخروج من متاهات المنازل ، و وكلت ذلك لجهوده الخاصة وسعيه الحثيث الدؤوب ، فإن الجزولي قد اعتبر الشيخ ضرورة لا بد منها ، بل لقد عانى بنفسه في سبيل الإهتداء إلى الشيخ المربي ، و زار الشرق و الغرب قبل مصادفة شيخه ومربيه بـ " تيط " . لذلك ورد في كتاباته (من شروط التائب أن يقتدي بشيخ عالم بالظاهروالباطن)(124).

ويعتبر السير إليه واجبا مهما كلف ذلك من متاعب ومشاق : (فعليك بالمشي إليهم و لو كان من بغداد ، المشي إليهم نور ورحمة و سر في القلوب) (125) . و هذه السير في حد ذاته بداية فعلية في التربية و جزء منها ويضعهم في مرتبة عالية تفوق مرتبة الأنبياء لأخذهم عن الخالق بلا واسطة (نظرية المعرفة) . فلا يأتي فوقهم إلا النور المحمدي (أقطاب هذه الأمة أنوارهم مع الصحابة رضي الله عنهم ، ليس فوقهم إلا نور المصطفى " ص ") (126) .

ويميز بين نوعين من الشيوخ :

– المقطوع : و هو الذي سلك طريق المجاهدة ، و لم يصل إلى طريق المشاهدة فرجع إلى الخلق يدعوهم إلى الله . فدعاؤه على الحقيقة إنما هو للمجاهدة فقط لأنه لم يصل إلى المشاهدة ، ومن تعلق به انقطع (127)

---

(123) الطريقة الساحلية مثلا ، انظر التيار الصوفي و المجتمع 294 .

(124) ممتع الأسماع 23 ، و إظهار الكمال 256

(125) ممتع الأسماع 6 ، بادرة الإستعجال 49

(126) ممتع الأسماع 5 ، بادرة الإستعجال 49

(127) ممتع الأسماع 24 ، إظهار الكمال 258 .

- الواصل : هو الذي وصل إلي مقام المشاهدة ، و غاب في أنوار الكمال ، و لم يشغله شيء عن الملك الحق ، و هو الذي إن رجع إلى الخلق رجع بأنوار و علوم و أحكام ، من تبعه تعلم وتنور، و فهم ما لم يفهمه غيره من أتباع المقطوعين.(128) فالمجاهدة مقام المبتدئين ، أما المشاهدة فمقام المنتهين الواصلين (129) . ويسميهم كذلك بالعارفين الشاربين المحبة و المكاشفة المقربة على بساط الأنس و المشاهدة (130) . و يصل الشيخ هذه المرتبة بعد التدرج في مقامات الطريق : الإخلاص ، التمكن، المشاهدة ، الفناء ، الأنس(131)... ويبلغ الذروة عندمايصل إلى ما وصل إليه الجزولي عندما قال في بعض مناجاته الإلهامية (اكتبوا ما سمعتم مني فإني واسطة بينكم و بين الحق: الحق يلهم ، والعبد يفهم. ومن ألهم إلى الصواب وجب عليه النطق، لأن فيه منفعة الغير)(132) . أي عندما يبلغ درجة المشاهدة و تكشف دونه الحجب لذلك كان يعتبر نفسه قطب الأقطاب (من لم يفتح له على يديك لا يفتح عليه أبدا) (133).

ولابد للمريد الراغب في سلوك الطريق من البدء بالتوبة . فعلى التائب أن ينتهي عما كان يفعله من شر ، و يقوم بأعمال الخير ما استطاع ، و يجتهد في ذلك . ويهجر الفجار ، ويحب الأخيار، و يتبع سنة محمد ، و يوالي أولياء الله ، ويعادي أعداءه ، و يداوم على ذكرالله و الصلاة على نبيه .ولايترك الصلاة في وقتها ، و لا يفسد العمل بالرياء ، ولا يعجب بنفسه في أعماله وأقواله وأفعاله ، و يكون كلامه حكمة ، و صمته تفكرا ، و نظره اعتبارا . و يتعلم العلم الذي يقربه إلى الله سبحانه (134) .

وكان الجزوليون يعتبرون التوبة حدثا مهما ، وخطوة في سبيل الاهتداء إلى طريق الله ، والالتزام بالجادة . لذلك دأب الشيخ وأتباعه من بعده على قص بعض شعر التائب اعلانا لتوبته

(128) ممتع الأسماع 24 ، إظهار الكمال 258 .
(129) أجوبة في الدنيا و الدين 15 .
(130) ممتع الأسماع 26 ، إظهار الكمال 260 .
(131) ممتع الأسماع 26 ، إظهار الكمال 260 .
(132) ممتع الأسماع 25 ، إظهار الكمال 258 .
(133) ممتع الأسماع 27 ، إظهار الكمال 261 .
(134) ممتع الأسماع 23 ، بادرة الاستعجال 50 ، إظهار الكمال 257 .

وقد انتقد الخروبي عند مجيئه إلى المغرب ذلك، ورد عليه أبو عمرو المراكشي وبعده أبو محلي (135) .و علامات التوبة تسعة : الحسرة ، الندامة ، الانابة ، الخشوع ، التواضع ، الابتهال، المداومة على الذكر ، الرضا بالقضاء ، و حسن الظن بالمولى .

و هناك سبعة أشياء تفسدها و تحول دون ارتقاء التائب وتحقيق هدفه، وهي : الحقد ، الحسد ، العجب ، الرياء ، الكبر ، حب المحمدة ، لذة الرياسة (136)

قال الجزولي : (و اعلم أن من كان في قلبه ثلاثة أمور و هو يدعو إلى الله بالتوبة فهو زنديق : الإفتخار بالعلم ، سوء الخلق، سوء الظن بالخلق) (137) . ويحدد الجزولي العلوم التي يجب على المريد أن يتعلمها وهي قبل كل شيء تلك التي تعرفه بخالقه ودينه ، وبعد ذلك ما يتصل بالتصوف و آدابه . لهذا تناول قواعد الدين بالدراسة و التحليل في عقيدته قبل غيرها من الموضوعات الصوفية . و هذه العلوم :- (. . . فإن العلوم الناجعة:العلم بالله وصفاته. ثم العلم بأحكام الله و بأمره :ثم العلم بآفات الأرواح والأسرار و النظر .ثم العلم بآداب المجالسة ، والمراقبة و المشاهدة ، و المحادثة ، والمكالمة ، و الاستماع،(138) .

فيكون البدء بمعرفة الشريعة أو علم الظاهر ، وهو العلم بما هو حلال وحرام . ثم معرفة الحقيقة و الطريقة أو علم الباطن وهو علم السلوك إلى الله ومعرفة أسراره و مواهبه في مخلوقاته. ولابد أن تعترض المريد عراقيل و عقبات لايتغلب عليها إلا باتباع إرشادات الشيخ و تعليماته . أهمها الشك ، والوسواس ، الذي يأتيه من مجالسة أهل السوء (139) .وقد وضع الجزولي آدابا تمكن المريد من تجاوز هذه الصعوبات والإستفادة من علوم شيخه المربي .

---

(135) لصاحب الممتع كلام طويل في الموضوع ص 17، و كذلك إظهار الكمال252 . و أورد الزروالي نص المراسلة بين الخروبي و أبي عمرو في شمس القلوب 82 ب 89 ب . م . خ . ع . د 3694 د .

(136) ممتع الأسماع 24 ، بادرة الاستعجال 51 ، إظهار الكمال 257 .

(137) ممتع الأسماع 24 ، بادرة الاستعجال 51 ، إظهار الكمال 257 .

(138) ممتع الأسماع 23 ، إظهار الكمال 257 .

(139) ممتع الأسماع 28 ، إظهار الكمال 257 .

5 - آداب المريـــــد : تحدد هذه الآداب علاقة المريد بشيخه وبغيره من المريدين ، وبعامة الناس ، وصدقه في سلوك الطريق والسبل المؤدية الى التدرج فيها :

أ) آدابه مع الشـــيخ : يجمع الصوفية على ضرورة احترام الشيخ والامتثال لأوامره وخدمته. ولانكاد نجد قطبا من الاقطاب لم يتفان في خدمة شيخه في انتظار أن يأذن له بالانصراف لفتح زاويته في مكان معين .

ويعتبر الجزولي تأدب المريد مع شيخه ، كتأدبه مع ربه لأن حرمته كحرمة النبي . قال(من تأدب مع شيخه ، تأدب مع ربه وحرمة الشيخ على المريدين كحرمة النبي مع الأصحاب)(140) . وقد كان الجزولي أكثر دقة بوضع قانون محدد لهذه العلاقة في مختلف أحوال المريد . بنوده عشرون :

- خمسة منها في حال الجلوس و هي : السكينة ، الوقار ، الهيبة الحياء ، الخوف ،

- خمسة في حال الغيبة ، و هي : المراقبة نحوه ، الافتقار إليه ، التواضع ، الاستمساك بعنايته ، المداومة على ذكر فضائله في قلبه بالتعظيم

- خمسة في حال ذكره ، هي : النظر إليه ، الرجاء فيه ، الاستبصار ببركته ، النظر فيما بينك و بينه من العقيدة .

- والخمسة التي في حال المحبة ،هي :مداومة الحب،مداومة الشوق والحمى نحوه ، والهيج ، و الانذهال من الاشتياق إليه (141) . وهذه الآداب تسهم في تربية المريد و تمكنه من تذوق المعاني الواردة في المنازل : كالإخلاص ، والإستقامة ، والصدق ، والصبر ، و الحب . . .

ب) المجالسة و المخالطة :ويحث الجزولي مريديه على اختيار الجليس . فما أفلح من أفلح إلا بمجالسة من أفلح . ولا هلك من هلك إلا بمجالســـة مـــن هلك (142) . لذلك فـإن في مجالســة

---

(140) ممتع الأسماع 27 ، إظهار الكمال 261 .

(141) ممتع الأسماع 27 ، إظهار الكمال 261 .

(142) ممتع الأسماع 27، إظهار الكمال 261 .

الأخيار نجاة و فوزا . وللجليس تأثير مباشر على التدرج في مقامات التصوف (فمن جلس مع الفجار قسا قلبه ، و من جالس الأبرار استنار قلبه) (143) . وينصحهم بتفادي العموم وعدم مخالطتهم في فترة التلقين لأن هذه المخالطة تذهب بنور القلب وهيبة الوجه . وعلى العكس من ذلك يدعوهم إلى الإجتهاد في مخالطة الخصوص ، ففي مخالطتهم فوز بثلاث خصال : اكتساب العلم ، وصفاء القلب ، وسلامة الصدر (144) .

وللمجلس في حد ذاته آداب يجب التقيد بها وخاصة عند انتهائه بأن يتلو القائم هذا الدعاء (سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك) (145) . فيتم ذكر الله و حمده عند الشروع في المجلس و عند الإنتهاء منه .

<u>ج) الصـــــــدق :</u> ولا يمكن لطموح المريد أن يتحقق ولا لجهوده أن تثمر بدون التزام الصدق في الحال و المآل ، و الإخلاص في كل عمل و حركة ، ويأتيان في المقام الثاني بعد التوبة والإستقامة ، و هما المفضيان إلى المراقبة والمشاهدة لدى الصوفية .

أما الجزولي فيعتبر الصدق نورا في لزومه فلاح و فوز ، و في تركه غفلة و خسران قال : (عليك بالصدق و الرعاية ، الصدق مع الله نور ، و المعرفة برهان ، و الإلتفات إلى غيره بهتان ، وضياع حقوقه حرمان ،والغفلة عن ذكره خسران) (146) .

<u>د) المداومة على ذكر الله و الصلاة على رسوله</u> : فبهما تطمئن القلوب و تعرف الطريق إلى الله (و سنعود بعد قليل إلى هذا الموضوع)

<u>هـ) خصال المريد الصادق</u> : لاحظ الجزولي أن في الكلب عشر خصال محمودة ينبغي أن تكون في المريد الصادق ، و قارب بين كل خصلة و مقام من مقامات الصوفية على الوجه الآتي :

1 - لا ينام من الليل إلا قليلا و ذلك من علامة المحبين .

---

(143) ممتع الأسماع 27 ، إظهار الكمال 262 .

(144) ممتع الأسماع 27 ، إظهار الكمال 262 .

(145) ممتع الأسماع 27 ، إظهار الكمال 262 .

(146) ممتع الأسماع 28 ، إظهار الكمال 262

2 - لا يشتكي من حر ولا برد ، و ذلك من علامة الصابرين .

3 - إذا مات لم يترك بعده ما يورث عنه، و ذلك من علامة الزاهدين

4 - لا يغضب و لا يحقد و ذلك من علامة المومنين

5 - لا يحزن قرينا و لا يحتمل عونا ، و ذلك من علامة الموقنين .

6 - إذا أعطي شيئا أكله و قنع ، و ذلك من علامة القانعين .

7 - ليس له موضع معلوم يأوي إليه ، و ذلك من علامة السائحين.

8 - أي موضع وجد نام فيه ، و ذلك من علامة الراضين .

9 - إذا عرف مولاه لم ينكره ، وإن ضربه و جوعه ، وذلك من علامة العارفين .

10 - لا يزال جائعا و ذلك من علامة الصالحين (147)

وترتكز هذه الخصال على الزهد في الدنيا و الصبر على الشدائد والرضى بالمحتوم ، وهي علامات الرغبة الصادقة في التطهير من علل النفس والروح .

6 - الذكـــــر : الذكر من أنجع وسائل التطهير و تصفية الفؤاد ، فبه تطمئن القلوب وترفع الحجب ، ويترقى المريد في مقامات التصوف . وقد عبر الجزولي عن هذه المعاني بهذه الصورة (القلوب أجنة ، و الأذكار أشجار، ومعرفة معاني الأسماء ماء ،ومشاهدة الجلال والجمال والكمال ثمار...) (148) . فثمار الذكر إذن هي بلوغ درجة المعرفة أو المشاهدة ، و هي أعلى المقامات . وآداب الذكر ثلاثة :

1) معرفة المذكور :و هو الخالق تعالى و يكون بالتدبر عند القراءة والذكر بالقلب لاباللسان .

---

(147) ممتع الأسماع 28 ، إظهار الكمال 263 .

(148) ممتع الأسماع 28 ، إظهار الكمال 262 .

2) الهيجان في الذكر : و الذي قد يبلغ حد الجذب .

3) التفكر في الغيب :ومن صيغ الذكر المعتمدة عند الجزولي : الهيللة ، الحوقلة ، الإستغفار والصلوات على النبي بصيغها وأنواعها . وهي التي جمعها في أحزابه و كتابه دلائل الخيرات .و للهيللة مكانة كبيرة بين صيغ الأذكار عند الصوفية لذا تحدثوا عن مزاياها و ثمراتها . ولعل مرد ذلك إلى الحديث الذي روى فيه علي تلقين الرسول له ذكر (لا إله إلا الله) .

و يقدم الجزولي – على غرار باقي الصوفية – بعض دلالات الهيللة وفوائدها فيقول : (إذا قلت " لا إله " اجتمع الوجود كله في هذه الهاء . وإذا قلت " إلا الله " طلعت من أعلى الموجودات إلى دنو الرب . قال الله تعالى : ثم دنا فتدلى) (149) . و عند الصوفية أن الهاء رمز إلى هوية الحق الذي هو عين الإنسان . فربطوا بين الهاء و الشكل الدائري ، و رتبوا على ذلك كون الإنسان في عالم المثال كالدائرة التي أشار إليها الهاء (150) .

– إذا قلت " لا إله " كنت فانيا عن جميع الموجودات ، فإذا قلت " إلا الله " كنت باقيا ببقاء ربك .

– إذا قلت " لا إله " رفعت الهمة الأولى إلى الرب ، و إذا قلت " إلا الله " غابت صفتك بصفاته ، و تحلت ذاتك بذاته ، فكنت فانيا فيما سواه .

– إذا قلت " لا إله " كنت متحيرا بوجودك لا تدري أين تمشي ، ولاأين تمضي، فإذا كنت على هذه الصفة ، أثبتت الصفة القديمة فتقول " إلا الله " نظرت إلى الله بعين البقاء ، فيكون ذكرا مستويا مع قلبك (151) .

ويلخص الجزولي بهذه الأقوال كثيرا مما قيل في الدور التطهيري للذكر، و خصوصا " لا إله إلا الله " التي كانت مقصد " من يرغب في رفع الستور ودوام الحضور"و نستنتج منها إشارته إلى أنواع الأذكار و تدرج المريد فيها :

---

(149) سورة النجم ، أية 8

(150) انظر ما قلناه عن الرمز الصوفي عند الغزواني ، الفصل الأول من هذاالكتاب .

(151) ممتع الاسماع 25 ، اظهار الكمال 259 .

- من ذكر اللسان مع انشغال القلب ، و هو البداية .

- إلى ذكر الجوارح الذي يؤدي إلى الفناء في الصفة أو الإسم و تسليم الأمر لله (أثبتت الصفة القديمة لله)

- إلى ذكر القلب :الذي يؤدي إلى الفناء و الإستغراق في الذات الإلهية ، وقل من يعرفه ، ويصير فيه الصوفي قادرا على المشاهدة . ويتم هذابتدرج المريد :

(*)من ذكر مع وجود غفلة

(*) إلي ذكر مع وجود يقظة

(*) إلي ذكر مع وجود حضور

(*) إلي ذكر مع غيبة عمل سوى المذكور فيصير الذاكر مذكورا، والطالب مطلوبا ، والواصل موصـــــولا ، وهو المقام الـذي يشير إليه الحديث (... كنت سمعه ا لذي يسمـــــع بـــه . . .) (152) .

وهي النتيجة التي وصل إليها عبد الرحمن بن محمد الفاسي في شرحه لأقوال الجزولي السابقة الذكر(...فحينئذ يكون من اهل الجمع المطلق، والاتحاد المحقق ومن اهل البقاء اذا مد بسره . فيكون ذاكرا ربــــه من غير شعور بوجوده ولا بكسبه ، وإنما يجري ذلك عليه)(153)

7) المقامـــــات : مراحل و محطات يسلكها الصوفي للوصول إلي مرحلة الفناء في الذات الإلهية بموت الروح الإنسانية من حيث طبيعتها الأصلية والعارضة و انبعاثها في الروح الالـــهي ، و بعبارة أخرى موت المـرء تدريجيا باعتباره الخاص و تحوله إلي وحدة ذاتية . و قد اختلف الصوفية في تسميتها وترتيبها وإعدادها إلا أنها تنتمي كلها بما يسمونه المعرفة الصوفية أو المشاهدة ، حيث تزال الحجب وتتجلى الأشياء.ولم يتناول الجزولي موضوع المقامات بتفصيل، ولكنها وردت عرضا في بعض مراسلاته ، نلخصها كالتالي :

---

(152) صحيح البخاري ، باب الرقاق 38 .

(153) ممتع الاسماع 26 ، اظهار الكمال 260 .

أ) **العـويـــــة** : فالمريد لابد له أن يبدأ بالتـوبة عـما بدر منه و ينتـهي عن الشر ويقدم علي فعل الخير ، و يصاحب الاخيار ، و يداوم على الذكر .

ب) **الزهـــــد** : لاتتم التـوبة إلا بدفع الدنيـا من القلب ، و لا تدفع الدنيـا إلا بالزهد الحقيقي . و لا يقوم الزهد و يرسخ في القلب إلا بالصدق الوافي .و الزهد الحقيقي يكون بعد وجود الدنيا ، فإذا كان القلب عـامرا بربه ، واثقا به ، متوكلا عليه ، لا يلتفت إليها إلا إذا أراد بذلها لله مخلصا. ويروي الجزولي أن طعام المريد لايكون إلا قوتا علي قدر الحاجة، و كذا الملبس والمسكن، ذلك لأن القلب لايجد شفاءه ولا دواءه في الاسراف في الطعام و بسط الجوارح .وإنما في الجوع (154) .

ج) **المجاهـــدة** : و الزهد هو بداية المجاهدة و محو الصفات المذمومة . و بالمجاهدة تتم مخالفة النفس و الهوى ، و اكتسابها للصفات المحمودة ، وتلونها بها صفة بعد صفة ، وترك الراحة وهجران الشهوات ، وموافقة السنة ، وكثرة البكاء علي ما فات ، وهو مقام المبتدئين (155) .

د) **المراقبــة** : هي حفظ الروح من ارتكاب الإثم، ويسمي الجزولي هذا المقام مقام الحياء والامتنـان، وهو مقـام المتوسـطين . وعنده أن المجاهــدة والمراقبة مقامان مكتسبان للعبد (156) . فيعطيهما مرتبة المقام كما ورد عند الصوفية و المتصف بالثبوت و الإستقرار ، لأن المريد يبلغه بجهده

هـ) **المشاهـــدة** : عبارة عن وجود الحق من غير ريبة ولا تهمة . . . وهي لأرباب التمكين ويعتبرها الجزولي مقام المنتهين ، و هي جذب ليس للعبد فيه اكتساب (157) .و هو مـا يدعـوه الصوفيـة " بالحال " أي هبة إلهيـة يهبها الله لعبيده تتخذ أشكالا بوسع السالك وحده احصاءها ووصفها .و يجمل الجزولي مفهوم السعي الصوفي ، أو السفر من مبنى الكون إلى معناه ومن الظاهر إلى الباطن (الظاهر المجاهدة والباطن المشاهدة) (158) .و هو الانتقال من مقام المبتدئين إلى مقام

---

(154) كتاب الزهد 44.

(155) أجوبة في الدنيا و الدين 15 .

(156) أجوبة في الدنيا و الدين 15 .

(157) أجوبة في الدنيا و الدين 15 .

(158) أجوبة في الدنيا و الدين 15 .

المنتهين بعد معاناة و جهود . و يعطي لهذه المقامات الثلاثة دلالات أخرى ، فيسميها :

1) مقام التوحيد :(أو علم اليقين) وهي تجريد الذات الالهية عن كل ما يتصور في الأفهام ، و يتخيل في الأوهام والأذهان .

2) مقام التفريد : (أو عين اليقين) اي الثبوت على التوحيد بالدليل والبرهان ،

3) مقام التجريد (او حق اليقين) الاستدلال بالصانع على المصنوعات وهو عبارة عن فناء العبد في الحق ، و البقاء به علما وشهودا وحالا ، لاعلما فقط (159) .و قد عبر الجزولي عن قطعه هذه المقامات ، وبلوغه الهدف المنشود في كثير من مناجياته ، كقوله (تهت ووصلت وصولا لم يصله أحد قط) وقوله (غبت في أنوار كماله و مشاهدة جلاله و جماله) و قوله (كماله قد أفناني عما سواه) (160) .

خـــــاتمـــــة : يكمن سر انتشار الطريقة الجزولية و تطورها في شكل فروع متعددة، في سنيتها وواقعيتها

أ) فهي لم تدخل في جدل فلاسفة التصوف : و إنما حافظت على كثير من أسباب التوازن بين الشريعة و الحقيقة : و من هنا كان تركيز الجزولي في مقالاته على تلقين المريد أحكام الشريعة ، معرفة الخالق و توحيده و الإسلام و أركانه و قواعده ، و الإيمان بشعبه و تطوره إلى مرحلة الإحسان . وتأتي بعد ذلك المعارف الصوفية التي صب اهتمامه فيها على المسائل الأساسية التي تعين المريد على طي المقامات و قطعها للوصول إلى الهدف المنشود ، فكان تركيزها على إبراز أشواطها : البداية - التمكين - النهاية . دون الدخول في التفاصيل و الآراء المحددة لها . و ضمن لنفسه المحافظة على وحدة الأمة بعدم الخروج على إجماعها (الاتجاه السني) .

ب) وتبدو الواقعية في الاهتمام بالجانب التطبيقي من التصوف أكثر من الاهتمام بالتنظير و المناقشة الفلسفية لهذا ركز أقواله و أجوبته على جوانب التلقين : توبة المريد وعلاقته بالشيخ المربي ، و آداب المجالسة ، وآداب المريد ، وأهمية الأذكار في تطهير النفس و الروح من

---

(159) اجوبة في الدنيا و الدين 15 .

(160) ممتع الأسماع 5 - 6 ، بادرة الإستعجال 49 - 50 .

العلل و العيوب والرقي بها في مدارج المعرفة الصوفية .و يتبلور هذا الاهتمام في كثرة الأحزاب والاذكار التي ألفها ، والتصليات التي وضعها و التي تشغل كافة أيام الأسبوع ومختلف ساعات النهار . وتبدو الواقعية كذلك في مراعاة ظروف المخاطبين من مريدي عصره (وما كان أكثرهم) بتبسيط دروسه إليهم إلى أقصى الحدود ليفهمها محدودو الثقافة ، والأميون منهم ، مع تخصيص الحديث عن المجاهدة و المراقبة والمشاهدة . . لأكثرهم ثقافة و أقدمهم تربية .و كان الجزولي يعيش أحداث عصره ، فأسهم في صنع تاريخه ، إذ لم تكن قضايا الطريقة لتحول بينه و بين ذلك ، فربط الجسور بين مجاهدة النفس ، و الجهاد في سبيل الله . و الواحد منهما مكمل للآخر ، و إن كان جهاد النفس أكبر و أعظم . فدعا مريديه إلى مناهضة الإستعمار الذي كان يعيث فسادا في منطقة سوس و يحتل بلاد الإسلام . و قد عبر عن ذلك في كتاباته عندما قال (و دولتنا دولة المجتهدين ، المجاهدين في سبيل الله القاتلين أعداء الله) (161) .

هذه الواقعية أعطت لتصوف الجزولي و طريقته نكهة خاصة و قربت بين مواقف مريديه ومواقف السلف الصالح في عبادة الله و نصرة دينه و أمته وهو ماكان ينقص كثيرا من الطرق الصوفية التي كانت ذاتية أكثر من اللازم ففقدت مصداقيتها و شعبيتها .

---

(161) ممتع الأسماع 5 – 6 ، بادرة الاستعجال 50

المبحث الثالث - كتاب النقطة و مراســـلات الغزوانـــي فـــي التصوف

تفرعت الطريقة الجزولية الشاذلية إلى عدة فروع أسسها تلامذة الجزولي ومريدوهم : كالسهلي ، و التباع ، و القسطلي . . . و يعتبر الفرع الغزواني من أشهر هذه الفروع و أكثرها ذيوعا . مؤسسه - كما نعرف - هو أبو محمد عبد الله الغزواني المتوفى بمراكش سنة خمسة و ثلاثين و تسعمائة ، و آخر رجالها السبعة . و قد تحدث عن شيوخها و تعاليمها و أهدافها في مراسلاته ورسائله التي جمعت في كتابه تحت عنوان (النقطة الأزلية في سر الذات الإلهية) (162) عنوان الكتاب : يبدو من العنوان أن الغزواني كان من القائلين بأن الرسول هو الإنسان الكامل و المثل الأعلى للأخلاق والحياة الصوفية . فأول شيء خلقه الله هو نور النبي " ص " (النور المحمدي) . ويعتبر أصحاب هذه النظرية الرسول صورة للتجلي الإلهي الازلي بعيدا عن الصورة البشرية المشخصة للنبوة و قد وصف الغزواني هذه النقطة الأزلية بأنها (لاتكيف ، ولا تنقسم ولايجوز عليها مايجوز على المستحيل من الفنا والعدم، فهي دائمة تزطم ذات الأولياء ، و تمتزج بها . . .) (163) . والتقارب بين النبوة والولاية معروف عند الصوفية ، فالأولياء ورثة الأنبياء ويستقون معارفهم جميعا من نفس المصدر، مع اختلاف في الطريقة .و تحدث الصوفية و علماء الحروف قبل الغزواني و بعده عن النقطة و أسرارها و علومها و ملخص أقوالهم أن النقطة الأزلية التي كانت أساس قيام الأكوان قاطبة ، و منها خلقت السماوات و الأراضي و الدوائر (إنسان - حيوان - معدن - نبات) تدعى نقطة الابتداء و هي للأحدية و الوحدانية . وعنها انشقت باقي النقط المكمل لها : نقطة الظل ، أو بذرة الكون أو مقام الأثنينية ، فنقطة الضياء أو مقام السكون . . . (164) .

(162) توجد منه عدة نسخ بالخزانات العامة و الخاصة ، و قد اعتمدنا نسخة خاصة بمراكش مع مقارنتها بنسخ . خ . ع . ر . 2617 ك ، 2002 د 1660 د .

(163) النقطة 26 .

(164) انظر التفاصيل في كتاب اثمد البصائر لابن عزوز المراكشي م . خ . ح 7686 . ص 45 وما بعدها .

<u>وحدة الهدف و تعدد الموضوعات و الأساليب</u> : الهدف من الكتاب التعريف بالطريقة الغزوانية الجزولية : سندها ، وأعلامها وتعاليمها ، وتم ذلك بوسائل متعددة ، و موضوعات مختلفة، أهمها :

1 - إبراز سنية هذه الطريقة، وتسجيل آراء أبرز أعلامها كالجزولي والتباع .

2 - التعريف بالمؤلف (الغزواني) ومراحل حياته ، وخصاله ، وزهده و لقائه بشيخه التباع ، و تلمذته عليه .

3 - تعاليم الطريقة و شاراتها : الشيخ وحقوقه ، المريد وآدابه ، المقامات و المنازل ، الأقطاب و الأغواث . . .

4 - و يحتوي الكتاب على آثار الغزواني نفسه : ديوان شعره الذي يشتمل على أزيد من ألفي و ثلاثمائة بيت أذكاره وأوراده في مختلف أوقات اليوم و أدعيته و أحزابه ، إضافة إلى ما سماه مناجاة الإلهام ، أو مكاشفاته .

5 - التفسير الرمزي لبعض الآيات القرآنية على غرار ما دأب عليه كثير من الصوفية .

6 - و يقوم الكتاب على دقة التبويب و التقسيم، فللرسائل عناوين و للقصائد عناوين ، تفرض نفسها في مطالع الصفحات ، و تنقل القارئ من موضوع إلى آخر ، مثل :

- تحبير الأجراس في تبيين الأنفاس .

- حكم الخليقة في إراثة أكمال القطبانية .

- المختصر الفريد لكل صادق و مريد . . .

ويقسم هذه الرسائل إلى أبواب و فصول محددا عددها : " وهي ثلاثة فصول " أو " في أربعة فصول " و كقوله " باب ما جاء في المريد " " باب ما جاء في المصافحة " .و داخل الباب أو الفصل يجمل الموضوع ثم يفصله و يعدد عناصره و يتتبعها بشكل دقيق . فقد قال - مثلا - في حديثه عن الولاية :(واقسامها ثلاثة : ولاية عموم ، وولاية خصوص ، وولاية خصوص الخصوص ،

ـ وولاية خصوص الخصوص على ثلاثة أقسام : ولاية الهام ، وولاية فهم ، وولاية كلام .و ولاية الكلام على ثلاثة أقسام . . . وقد تطول هذه التقسيمات مما يذكرنا بتفريعات النحويين و البلاغيين المتأخرين .

7 - و يعتمد استراتيجية السؤال و الإجابة عنه : فأغلب الأبواب والفصول مستهلة بقوله: سالني محقق ، سالني مريد ، و سالني بعض الفقراء. .. و نتج عن ذلك :

أ) كثرة السائلين الذين ذكر أسماء عدد منهم : كمحمد اللقاني مفتي الديار المصرية في عصره ، و المريد ابراهيم بن علي ، أو الحاج أبي بكر ، وأبي عبد الله التونسي ، و بعض الشرفاء الشيشيين و هم : عبد الله الطنجي ، وعبد الرحمن الشريف ، وأبي القاسم محمد بن الحاج الفقيه ، وعلي المؤذن .والملاحظ أن بعض الرسائل لم تدخل ضمن مواد هذا الكتاب و وصلتنا مستقلة كرسالة عبد الله بن محمد الهبطي إليه ، وجوابه عنها . وهي محفوظة بالخزانة الحسنيــة بالرباط(165) .

ب) وجود أسلوب حواري في أغلب الرسائل : فإن قلت . . . قلت ، وإن قيل لك . . . فقل . و إن قيل لكم . . . فقولوا .و هو أسلوب المناظرة والجدال و التعليم .

8 - الإهتمام بالتعريفات : لغة، شرعا، و اصطلاحا في كثير من الدقة ، و الإستقصاء .

9 - استخدام أساليب الإقناع و الإستشهاد : القرآن الكريم على الخصوص وقد حرص على إيراد أكثر من آية قرآنية (أحيانا سلسلة متتابعة منها) في ختام كل رسالة أو سؤال . . . وكذلك الحديث النبوي ومواقف الرسول ، كما يضرب المثل بمواقف الصحابة والسلف الصالح و سيرة الأولياء والأقطاب .وتأتي القصائد الشعرية المختلفة الأحجام للاستئناس والتوضيح ، و غالبا ما يعتمد شعره الذي وضعه بدون شك لهذا الغرض .

10 - و بديهي أن يعتمد المؤلف في تصنيف كتابه ، وتحضير أجوبته على مصادر ووثائق تكون أساس انطلاقه ، و بلورة أحكامه ، و يتم اغناؤها بعد ذلك بالمناقشة و التحليل والإضافة . إلا أن الغزواني لم يهتم بذكر هذه المصادر دائما . و قل ما بدرت منه إشارة إلى مصدر من مصادر التصوف المعروفة أو أسماء مؤلفيها .

(165) رقم 9467 . بها خروم في الاطراف

11 - ويبقى حكم القدماء على الكتاب جديرا بالعناية :فقد ذكروا أن كلام الغزواني غامض لايفهمه إلا من فتح الله عليه (166) . ولعل مرد هذا الغموض :

- إلى طبيعة التجربة الصوفية ، الذاتية التي تعجز اللغة عن تبليغها بكثير من الوضوح ، وكما يعيشها المتكلم المجرب .

- غزارة علم الغزواني وطبيعة تكوينه الموسوعي ، تجعله ينساق وراء الفكرة و يتناولها بكثير من التفصيل و التفريع ، مستعينا في ذلك بمحفوظاته وتحليلاتــه فيستشكـل الأمــر على القــارئ "المتتبــع" وقد قــال بــول نــويا (P . Nuiya) عن هذا : (إن مؤلفات الغزواني - " اعتبر نسخ النقطة مؤلفات - لتشهد له بعمق الأفكار وعلوها وتبرهن على تبحره في العلوم الصوفية ، ومقدرته على التعبير عنها ومصطلحات لاتخلو من غموض . ولا بد أن هذا الغموض كان مميزا لفكر الغزواني ، لأن المؤرخين أفردوه بالذكر) (166م).

- اعتبار كثير من كلامه من مناجاة الإلهام و مكاشفاته التي تلح عليه وتقذف في قلبه وعلى لسانه فلا يجد لها ردا ولا دفعا ، وإنما يسوقها كما وردت، وقد لايفهمها هو نفسه بعد ذلك.

- تحريف الرواة و النساخ ، إذ يبدو من كل نسخ النقطة أن الكتاب جمع بعد وفاة الشيخ ، و قد تبينت لنا خطورة هذا التحريف عند مقابلتنا لبعض نسخ الكتاب المحفوظة في الخزانات العامة والخاصة .

- الطـريقة الغزوانيــــة :

طريقة جزولية شاذلية جنيدية يحرص صاحبها على ربطها بجذورها السنية الممتدة إلى الرسول"ص"شيخا شيخا . . . (167) ويدعو إلى حفظها (اعلموا أن هذه الطريقة الشاذلية المسنودة من شيخ إلى شيخ إلى نبينا محمد " ص " بالتأييد و العزم و الاسراع والقوة و القدرة من صانهــا

(166) ممتع الأسماع 45 ، بادرة الإستعجال 59 ، السعادة الأبدية 2/78 - 79 .(166م) دراسات عربية و اسلامية مهداة الى إحسان عباس ص 268 .
(167) النقطة 7 - 9

وعظمها ، وحفظها كانت حكمته شائعة ، و نظرته ، وهمته نافذة .) (168) .أما الذي لايحفظها (فيكون من الذين أهانهم الله ، واستدرجهم على عقبهم وحجبهم عن حقيقة المشاهدة ، وسد عليهم باب الإلهام و الإبهام) (169)

و قد سبق أن تحدثنا عن سنيتها ، و سندها بتفصيل (170) . ونركز الآن على عنصر من أهم عناصرها الموروثة عن الطريقة الأم (الجزولية) ألا وهو مبدأ الجهاد في سبيل الله .

لقد سمى الجزولي الدولة السعدية " دولة المجاهدين " لقيامها بالجهاد وطرد الدخيل الأجنبي. وكان الغزواني في الصفوف الأولى مدافعا عن هذه الدولة، وحائلا دون سقوط عاصمتها مراكش في يد منافسيها، لذا فقد دعا في كتابه إلى الجهاد . فقال بعد حديثه عن الزهد والورع : (لايجوز الورع والزهد مع نوازل ظهور الجهاد ، لأن الجهاد سطوة وقوة وغلبة وانتهاض للحق الواجب مع موجبات الحقائق) . ويخاطب المريدين المجاهدين قائلا (فاتركوا الزهد والورع إلى أن تبلغوا بيوتكم وخلواتكم . . . وما أعظم كلمة الحق سبحانه ، ولا تبذر تبذيرا ، الآية . لا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم . . . و اصبروا إن الله مع الصابرين . . . (171) (171 م)

وفي تقديم الجهاد على الزهد (أي على الطريقة) إبراز لأهمية الجهاد الأصغر ، والذي يعد نتيجة من نتائج الجهاد الأكبر، الذي هو جهاد النفس و قمع أهوائها و رغباتها ، و معالجة عللها وأمراضها ، و تعويدها على محبة الله والرسول و الإمتثال لأوامر الدين . ولعل أسمى هذا الإمتثال التضحية بالنفس في سبيل عزة الإسلام و أهله ، و الدفاع عن كيانه .

-تعاليم الطريقة:

تهدف كشأن كثير من الطرق إلى الجمع بين الشريعة و الحقيقة ، لذا تهتم بإشكالية التوحيد و الإسلام و الإيمان قبل تلقين مبادئ الطريقة و قوانينها وطرق معالجة علل النفس ، والتدرج

---

(168) النقطة 20

(169) النقطة 20 - 21

(170) الفصل الثاني من الباب الأول .

(171) الآيات على التوالي من سورة الإسراء 26 / وسورة الأنفال 46.

(171 م) النقطة 72 .

في المنازل و المقامات لبلوغ الهدف المنشود ، والتعريف بمقاصد الولاية ، و درجات القطبية . . .

١ - التوحيد (الإسلام و الإيمان) : كما وجدنا عند الجزولي يجيب الغزواني على تساؤلات مريديه حول قضايا جوهرية في الدين . وغالبا ما يتوخى في هذه الإجابات التبسيط والوضوح ، و يتحاشى التفاصيل التي سنلاحظها عند تناول الموضوعات الصوفية .

أ) ففي رسالته الجوابية إلى عبد الله بن محمد الهبطي(172)، يعرف الإسلام بأنه لغة الانقياد ـ وشرعا انقياد مخصوص على حالة مخصوصة .

– وحقيقته ، انقياد بنقاد ذلك القائد المخصوص بجميع أجزاء جسمه ، و أخلاق نفسه ، وأحوال روحه ، وحقائق عقله .

– ومراتب الإسلام منازله التي ينزلها السالك إلى حضرة ربه . وهي خمس مراتب :

– الأولى ، مرتبة الأجسام .

– الثانية ، مرتبة النفوس .

– الثالثة ، مرتبة الأرواح .

– الرابعة ، مرتبة العقول .

– الخامسة ، مرتبة الحقيقة الكلية .و في كل مرتبة درجات كثيرة منها الإنقياد في كل مرتبة إلى مقتضى كل اسم من أسماء الله الحسنى الظاهرة ، وكذلك الانقياد إلى مقتضى كل اسم من أسمائه الباطنة

وتدرج الغزواني من التعريفات و المفاهيم الأولية إلى الحديث عن منـازل السالك ، وهي التي يطلق عليها الصوفية علل الجسم وعلل القلب (أو النفس) وعلل الروح والعقل .

ب) أما الإيمان ، فإنه لغة التصديق ، وشرعا تصديق مخصوص لخبر مخصوص وحقيقته الاطمئنان المسبق ، ومفتاحه الدعوة إلى النظر في الدليل من وجهه وأما إخلاصه ، فهو تخليصه من الشوائب التي لاتكاد تدرك بدليل قوله صلى الله عليه و سلم : الشرك في أمتي أخفى من دبيب النملة في الليلة الظلماء، على الصخرة الصماء .

(172) م . غ . ح . 9467

ج) و الإله هو الموجود الخاص بجميع المخلوقات ، المتصرف فيهم بجميع التصرفات . وحقيقته أنه الغني عما سواه ، والمفتقر إليه كل ما عداه ، وليس كذلك إلا الله عز و جل .و صفة ذاته، كل صفة يقع الوصف بها على العلم و القدرة ، و غير ذلك مما لا نهاية له . ومنها :

- نفسية كالوجود .

- و سلبية كالعدم.

- ومعنوية كالحياة .

- وفعلية كالخالق و الرازق .وهو غير داخل في العوالم ولاخارج عنها، إذ الدخول والخروج حقيقة من صفات الأجسام . وحقيقة معرفته العلم به على ماهو عليه ، ولا يعلمه على الحقيقة غيره ومعنى الوصول إليه ، الوصول إلى معرفته . ويصل العبد إلى ربه بكافة حواسه : فبروحه يصل إلى محبته ، وبعقله إلى معرفته ، و بجسده إلى خدمته . و لذلك شروط و مراحل ومنازل(173) .نلاحظ تردد بعض ما وجدناه عند الجزولي في كتاب التوحيد ، و هو مثله يميل إلى التبسيط المركز ، وعدم الدخول في التفاصيل والمناقشات الكلاميةالتي لم تعط نتيجة في نظره .ويمكن القول بأنه يصنف التوحيد إلى ثلاثة أصناف :

- التقليد و الإنقياد .

- التصديق و الإطمئنان بعد النظر في الدليل ، و الاستدلال بالمخلوقات على الخالق ، وبالمصنوعات على الصانع ، و بالمحدثات على القديم .

- التوحيد بالذوق ، و يتم بتوحيد الأفعال والصفات والذات ، وذلك بعد السفر عبر عدة مقامات وهو أرقى أنواع التوحيد . ونجده عند سالكي الطريق الذين تربوا على يد المشايخ .

2 - التربية والتلقين :تلزم الطريقة الغزوانية باتخاذ الشيخ لمساعدة المريدين على معالجة علل النفس واحتياج المقامات . وقد قيدته بشروط ، و ميزته بأحوال وعلامات ، صنفت على إثرها الشيوخ . وحددت آداب المريد و واجباته وحقوقه ، و ذلك تيسيرا لعملية التلقين و التربية وتسهيلا لمهمة الشيخ .

---

(173) نفسه

أ) الشيخ : يعطي الغزواني لعملية التربية أهمية كبيرة . و يعتبر الشيوخ قوما سخرهم الله لإصلاح الغير بعدما أصلحوا أنفسهم (إن الله اصطفى أقواما لإصلاح الغير بعد إصلاح أنفسهم . فأيدهم قبل الرضى والتسليم لاختيار بدائع حكمه و إرادته و قدرته و إحاطته لا لاختيار أحوالهم وحركاتهم وسكونهم من الخاصة ، و خاصة الخاصة ، فمكنهم بذلك جملة و تفصيلا) (174) وعن أحوال الشيخ يقول الغزواني : بأن أصل بدايته التوحيد ، وعلمه علم المناجاة ، وشهود وصفه وصف المحادثة . ونطق كلامه : كلام من غير " كاف " و لا "نون" .وسره : سر من يوجه ويؤول إليه . وبيانه : ما بان منه لعيان مشاهدة القبول (175) .

وأما ما يجب أن يعرفه الشيخ في نفسه ،فخمسة أشياء: 1 - فجر الهداية ، السمع والطاعة و الإستجابة لله و رسوله .

2 - فجر الإقتداء ، التسليم لا مر واجب على كل من تحقق و ندب إليه بأمر واضح (فاتبعوني يحببكم الله) (176) .

3 - فجر الأمداد ، التحلي و التسلي على حكم سابق الأزل .

4 - فجر الاشهاد ، لاخيانة شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط (177) .

5 - فجر الملك الودود ، تحكم أحكام الألوهية في حكم البشرية ظاهرا و باطنا فمن وعدناه و عدا حسنا فهو لاقيه (178) .ويميز الغزواني بين شيخ القدوة و الشيخ الكامل :

- أما شيخ القدوة فشروطه :

1 - أن يكون سالما من آفات الوجوب، والوجوب هو السمع والطاعة، وآفاته الغفلة والطمع .

---

(174) النقطة 50 .

(175) النقطة 70 .

(176) سورة آل عمران ، آية 31

(177) سورة آل عمران ، آية 18 .

(178) النقطة 59 .

2 - أن يكون سالما من آفات الجائز ، والجائز التسلية والمحادثة والأنس .و الخطاب ، وآفته الحرص و القلق .

3 - أن يكون سالما من آفات المستحيل . و المستحيل الحسد و الحقد والغيبة و النميمة التشوق لما لا يليـــق بجســـده لابجنســه . وآفته الكذب والخيانة (179) .

- والشيخ الكامل : أعلى مرتبة من شيخ القدوة ، لذا اشترطت فيه شروط : . ليس من يخاطبك برؤية الأوراق ، وإنما الشيخ من يمكنك بتمكن الأذواق . ليس الشيخ من يشوق نفسك إلى الأوراد ، و إنما الشيخ من يحيلك بتنوير أسرار الأمداد .. ليس الشيخ من يعلمك بكثرة الأقوال ، وإنما الشيخ من يهديك بحالة الأحوال .. ليس الشيخ من يجلسك على الرتب ، و إنما الشيخ من يخاطبك بتصريف أسرار القلوب .. ولا يلهيه تكوين التجريد ، و إنما يلهيه سرالتوحيد والتفريد(180) .

وعموما فإن تجربته و درجته تمكنه من مساعدة المريد على قطع المراحل و المقامات بهدوء ، مع تذوق حلاوة الوصول والمشاهدة ، وهو الأمر الذي يستعصي على شيخ القدوة والتربية.

ب) المريد و الإرادة : الإرادة هي تعويل المريد على قطع ثياب الجسم و النفس والروح إلى الله تعالى ، مفتاحها الشيخ الداعي إليها ، وشروطها كثيرة منها الملازمة ، و الصحبة ، وسلب الإرادة الخاصة.والقصد منها الخروج من جميع المرادات المرغوب عنها، إلى المراد المرغوب فيه (181).

والمريد هو السالك : له بداية هي التوبة ، و نهاية هي المشاهدة . أما المراد : فبدايته المشاهدة ، و لا نهاية له (182) .و قد حدد الغزواني للمريد الصادق آدابا نجملها فيما يلي :

1 - ألا يستحيي في أكله .

2 - أن يكون ناصحا .

---

(179) النقطة 53 .

(180) النقطة 75

(181) من رسالة الغزواني إلى الهبطي المذكورة 9467 .

(182) نفسه .

3- أن يكون فانيا في محبة إخوانه .

4- ألا يلهيه علم الأقوال عن تصريف حال الأفعال .

5- أن يكون مستغرقا في الأذكار و الأفكار .

6- أن تكون اسراره من أسرار شيخه .

7- أن يتحلى بمحبة النبي محمد " ص "، ويتخلق بأخلاق أهل السنة و الشريعة 183) .

ولابد للمريد الراغب في السفر و السعي أن يتزود بالزاد الكافي وهو

1 - الرجاء : وهو سر يمحو صاحبه من سوء كل ما توجه إليه .

2 - المحبة ، و حقيقتها نور خفي لا يعلمه الجسد قبل ظهوره ، إذا ثبتت تورث منها علم معقول و مسموع ، و مشاهد و محقق .

3 - الصدق ، ينبغي له ألا يغيب شيئا من أحواله ظاهرا و باطنا في أول مقصده لشيخ قدوة تهذيبه . فتصحبه الأشياء بصحبته له ، و إن لم يكن المريد هكذا فصحبته مذمومة في جذبته أو في سلوكه .

4 - الصبر ، يورث القناعة عن فضول الكلام و الجوع و التشوق لما في أيدي الناس .

- و ينبغي للمريد إذا تحرك شيخه تحرك معه ، و إذا سكن سكن معه و إذا سأله نطق بما عنده . فيشاوره ولو على شربة ماء. و إن خطر شيء بباله ظاهرا أو باطنا يرفع كل ما نزل به إليه ، لكي لا يقع في الإغترار أو الكسل أو الهزل . و لا يخالف أمره خيفة أن تصحبه الفتنة (184) .

وهناك موجبات نفي و إثبات لا بد من التحلي إثر أخذ المريد للعهد من شيخه و ذلك ببسط يد الشيخ على رأس المريد . وإذا لم تتحقق فسد السعي وخاب الرجاء .- فموجبات النفي عشر

(183) تفاصيل هذه القواعد في كتاب النقطة 77 - 82

(184) النقطة 17 - 18 - 70 .

خصال يجب تركها ، وهي :الكبر/الغضب / الرياء / الحسد / الضد / السلب / الوله / الشحناء / البغـي / الكـذب .- و موجبات الإثبات عشرون خصلة يجب التحلي بها ، وهي : العلم / المحبة / الأدب / الحياء / الإخناع / الإخلاع / التسليم / التفويض / الالتجاء / الرغبة / السكون / الطمأنينة/ الملاينة/ العهد / الرضا / السكيـنة / الوقـار / الوفاء / التعظيم / الهيبة (185). وفي رسالته " المختصر الفريد لكل صادق ومريد " يصنف المريدين من حيث سعيهم إلى ثلاثة أصناف: خاصة العامة/ والخاصة / والخصوص . ويحـدد لكل صنـف واجباتـه وشروط كمال سعيـه (186) .

ج) **علـل النفـس** : يلجأ المريد إلى الشيخ لتطهير فؤاده ومعالجة نفسه من عللها وأمراضها والتي تحول دون رقيه وبلوغه مقام المعرفة . ومن العيوب مايكون مرتبطا بالنفس كالشهوات الجسمانية ، وما يكون متصلا بالقلب كالعيوب النفسية (كبر /حسد/غضب/بخل/) وما يتصل بالفكر والروح كطلب الكرامات واستطلاع الغيب .

وقد قسم الغزواني النفس إلى ثلاثة أقسام :

1 - النفس السفلية : نفس العموم ، تتشوف إلى ما تراه في الأرض من الشهوات .

2 - النفس العلوية : نفس الخاصة ، تريد سماوات المعاني، وتبحث في خوارق العادات .

3 - النفس القدسية : لخاصة الخاصة ، وهم ينقسمون على ثلاثة أقسام ، عموم ، وخصوص ، فضلاء (187) .والنفس السفلية هي العليلة التي يسعى الشيخ للارتقاء بها لتصل مستوى نفوس الخاصة ، ثم خاصة الخاصة . ويكون ذلك بالمحبة والورع والذكر والتصلية . . .

د - **العهد و المصافحة** : وبداية ذلك كله هو العهد و المبايعة أو المصافحة . وهوالعقد الذي يجمع بأسرته بين الشيخ والمريد فيجتهد كل منهما للوفاء ببنوده ومقاصده . ويجب أن يبقـى

---

(185) النقطة 21 - 22 .

(186) النقطة 52 - 53 .

(187) النقطة 76 .

ويستمر .قال عنه الغزواني (اعلم ياسيدي أن العهد لاينقض ، والتوجه لايندثر، ولاتكونوا كالتي نقضت غزلهامن بعد قوةانكاثا(188)(189).

وتسمى عملية عقد العهد بالخرقة أو المشابكة أو المصافحة . . . ولها دلالات متقاربة ، إلا أن الصوفية يختارون التعبير عنها بالمصافحة اعتمادا على الحديث (من صافحني وصافح من صافحني إلى يوم القيام دخل الجنة)(190).

وعقد الغزواني بابا خاصا للمصافحة ،وقسمها إلى ستة أقسام :

1 - المصافحة بالقبول	2 - المصافحة باليد
3 - المصافحة بتوجه النفحة	4 - المصافحة بالهمة
5 - المصافحة بالحكمة الربانية	6 - مصافحة صاحب التصريف .

ويختلف كل قسم باختلاف مكانة الشيخ المصافح و درجته في الطريقة و قدرته على التوجيه والإرشاد (191).

هـ - **الذكر والتصلية** : وسيلة من وسائل معالجة علل النفس والتدرج بها نحو الهدف المنشود . أما الاذكار التي يتوسل بها إلى ذلك فكثيرة :

- يأتي على رأسها في هذه الطريقة القرآن الكريم ، فقد أشار الغزواني في رسالته إلى محمد اللقاني إلى عشرة أذكار معتمدة لديه من القرآن (192) .

- عبارة التشهد " لا إله إلا الله محمد رسول الله " ويجتهد فيها المريد للخروج من ذكر اللسان إلى ذكر القلب والجوارح .

(188) سورة النحل ، آية 92 .

(189) النقطة 22- 23

(190) المواهب القدسية ص 434 .

(191) النقطة 22- 23 .

(192) النقطة 4 .

- أحـزاب وأوراد خاصـة ، أورد الغزوانـي بعضهـا فـي كتـاب النقطة(193).

وفي كتب التـراجم أنه إذا رأى من تحرك في حلقـة الذكر، أو قـصر فـيـه ضربـه بعـصا لاتفارقه (194) .

- و التـصليـة على الرسـول نوع من الذكـر ، فـقـد نصح الغـزواني بعض الشـرفـاء قـائلا (فكثروا من الصلاة لأنها تنور القلوب ، وترفع الحجب ، وتسلب كل محبوب و عليكم بذكر " لاإله إلا الله " فإنها تجمع كل اسم فمن ذكرها سرا ذكره الله جهرا ، ومن ذكرها جهرا ذكره الله في الملأ الأعلى . . . وما نفحت قلوب العارفين إلا بشدة الذكر والحزم عليه في السر حتى يعلو على الظاهر فينشر فيهم الرحمة والحنانة والصفح والعطف والقبول)(195) .

والاستغراق في الذكر من الوسائل التي تؤدي بالصوفي المخلص إلى المشاهدة والفناء : من العالم الحسي المطلق (الملك) إلى عالم المعقولات المجردة (الملكوت) فعالم المجردات المطلقة والعالم الإلهي (الجبروت) وربما إلى عالم العزة أو البقاء .

لذلك قسم الغزواني القائمين بالعبادة و الذكر إلى خمسة أصناف :

1 - القائمون بعبادة الملك ، هم أهل حقيقة الأقوال و الأفعال .

2 - القائمون بعبادة الملكوت ، هم أهل حقيقة التفكر والاعتبار .

3 - القائمون بعبادة الجبروت ، هم أهل خل حقيقة سناء الأرواح .

4 - القائمون بعبادة السر ، هم القائمون بحقيقة المراقبة والتعظيم والمحبة والتفخيم .

5 - القائمون بعبادة سر السر، المنزهون عن النقائص والتغير والتقديس عن تجديد الإرادة والتدبير(196).ونظرا لأهمية الذكر وفوائده وثمراته ينصح الغزواني مريديه بالارتحال عن الارض التي لاتعطى له فيها اهمية (ارتحلوا من بلاد لم تكن فيها مودة ولامحبة ولاعـدل ولاعلم ولاحـلاوة

(193) النقطة 11 - 88 - 140 . وستكون لنا عودة إلى هذا الموضوع في الفصل القادم.

(194) ضرب أبا محمد الهبطي ، و هشم عظم حاجبه . دوحة الناشر 99 .

(195) النقطة 86 .

(196) النقطة 71

تعظيم ذكر الله . كان الله حيث كان ذكره) (197) .

9 - أهل الفرق والجمع : يصنف المريدون بحسب المقام الذي بلغوه في طريق السلوك :

- فأهل الفرق : تقف معرفتهم عند حدود الظواهر الطبيعية ، ولايشهدون إلا الصفات ، وهم محجوبون عن شهود الذات .

- وأهل الجمع : تجاوزوا ا شهود الصفات إلى الذات ، وهم أهل الجذب والفناء فالفرق بداية الارادة والجمع نهايتها

- اهل جمع الجمع، واهل جمع الجمع اعلى مراتب الجمع واصحابه، هم اهل الفناء عما سوى الله أي المرتبة الأحدية .

ولكل صنف من هذه الأصناف عالم ميتافيزيقي مجرد يتعلق به فكرها

1 - فعالم الملك ، أو عالم الشهادة أو عالم الشريعة هو مدرك أهل الفرق أو أهل الدليل والبرهان .

2 - عالم الملكوت : أي ما يدرك بالبصيرة ، وهو مدرك أهل الشهود أو الجمع .

3 - عالم الجبروت ، وهو عالم الأرواح ، وهو مدرك أهل جمع الجمع ، البالغون مقام فناء الفناء أو التمكين .و لكل من الفرق و الجمع درجات ، لايبلغها المريد إلا بعد مجاهدة النفس و إزالة كل ما يحجبه عن بلوغ المقصود . وقد تناول الغزواني هذه الدرجات والحجب بكثيرمن الدقة والتفصيل (198).

ز - الأحوال و المقامات : لم يتناول الغزواني الأحوال و المقامات بطريقة مباشرة ، و في موضوع قائم الذات ، و إنما وردت إشارات إليها في كتاب النقطة .

---

(197) النقطة 66 .

(198) لانريد الإطالة بتتبعها ، فيكفي أن نفهم قصده بأهمها أي الفرق والجمع وجمع الجمع .

انظر التفاصيل في كتاب النقطة 24/43/44/48/49/88 .

- فبعد الإرادة التي هي بداية حتمية للسالك .

- لابد من الزهد لأنه الوسيلة الممهدة للوصول ، فمن ترك الدنيا ، وزهد فيها صفى الله سره ونور قلبه .والزهد ثلاث درجات يتدرج عبرها المريد من زهد العامة ، إلى زهد الخاصة، فزهد خاصة الخاصة .أي من مجرد ترك الطعام إلى التنزه عما يشغل عن الحق وبالاشتغال بالحق وذكره تصفو القلوب ويغمرها الحب (199) .

- (والمحبة ، شهود الله في خلقه .فمن شاهد شيئا من ذلك شاهدت نفسه واطهرت من جميع الخبائث، فحل به الوجد العظيم الذي يسلبه عن كل المكاســب فيستحق به نوازل الجذب الربانـــي) (200) .

- و نهاية المحبة الجذب (و هو كشف الله لمن اجتباه من عباده من علم ذاته ثم عن علم صفاته ، ثم عـن علم أسمائه ، ثم عن علم حكمتـه ثم عن علـم جريان عبادته) (201) . والمحبة على ثلاث حالات :

1 - محبة العامة أو حالة ظهور سطوة الجلال ، وتتولد من مداومة الذكر وصفاء الود .

2 - محبة الخاصة أو الصادقين والمتحققين ، وتتولد من نظر القلب إلى عظمة الله وقدرته و علمه ، وانتشار جوده ظاهرا وباطنا ، و هي حالة دوام الجمال

3 - محبة خاصة الخاصة ، أو محبة الصديقين و العارفين ، وتتولد من معرفتهم لتقديم حب بلا علة ، وهي حالة ديمومية الكمال (202) .وفيها يبلغ المريد مقام التمكين أو مقام الرسوخ والاستقرار . وتتعدد عبارات تسميته : فناء الفناء ، والبقاء ، والمعرفة . . . وقد سماه الغزواني مقام الاصطفائية (203) . وفيه تنكشف الحقائق العرفانية .و قد أخبر التباع تلميذه الغزواني بعد سنوات

---

(199) النقطة 72

(200) النقطة 36 .

(201) رسالته إلى الهبطي .

(202) النقطة 19 .

(203) النقطة 19 .

من المجاهدة و الذكر أنه بلغ هذا المقام (204) . ففتحت له أبواب المكاشفة ومناجاة الإلهام ، وتحدث عن الولاية والقطبية .

- الولي والولاية : الولي في اصطلاح الشرع المومن المتصف بالتقوى والإستقامة والصلاح . وفي الاصطلاح العام هو العارف بالله وصفاته بحسب مايمكن المواظب على الطاعات ، المجتنب للمعاصي ، المعرض عن الإنهماك في اللذات والشهوات (205) .

وتطرح المعرفة الصوفية إشكالية العلاقة بين النبوة و الولاية : فعند الصوفية أن النبي يأخذ عن الخالق سبحانه بواسطة الملائكة في حين أن العارف صاحب الولاية لا يحتاج في اكتساب معارفه إلى واسطة ، لذلك كان البسطامي يقول في شطحاته (تالله إن لوائي أعظم من لواء محمد) (206) .

وقد اجتهد الغزواني في الجمع بينهما من خلال تفسير قوله تعالى (وننزل من القرآن ما هو شفاء و رحمة للمومنين) (207) . فقال ((الشفاء ظهور ذات الأنبياء ، والرحمة ظهور ذات الاولياء))(208) .

وعنده كذلك أن المعارف التي يقذف بها في قلب الولي نوع من الوحي ، فجعل حقيقة الوحي نوعين :

- وحي كلام : ما خصصت به ذوات النبيئين والمرسلين .

- وحي إلهام : ما استنارت به مقاصد حياة السالكين والمجذوبين إلى حضرة الامان (209) .

وتتفرع الولاية إلى أقسام و تفريعات ، أهمها :

---

(204) النقطة 154 .

(205) التعريفات 132 .

(206) شطحات الصوفية لعبد الرحمن بدوي [illegible]) أبو زيد البسطامي ص [illegible] . مصر 1949 .

(207) سورة الإسراء ، آية 82 .

(208) النقطة 29 .

(209) النقطة 57 .

- ولاية العموم / ولاية الخصوص / ولاية خصوص الخصوص .والأولى هي الولاية الظنية في حين أن الثانية هي الولاية القطعية . و ولاية خصوص الخصوص تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

- ولاية الإلهام / وولاية الفهم / وولاية الكلام .

ويستمر الغزواني في تفريعات الولاية و تقسيماتها مما لا يتسع المجال لعرضه . والهدف منها التمييز بين الاولياء في المرتبة .

4 - مراتب الأولياء : رتب الصوفية الأولياء مراتب ، وجعلوهم درجات ، و قد اعتمدوا في ذلك - حسب رأيهم - على قوله تعالى (و رفعنا بعضهم فوق بعض درجات) (210) . وعلى حديث نبوي أخرجه بقي بن مخلد في مسنده بسنده إلى أنس قال : قال رسول الله " ص" : دعائم أمتي عصائب أهل اليمن و أربعون رجلا من الإبدال بالشام ، كلما مات رجل أبدل الله آخر مكانه . أما أنهم لم يبلغوا ذلك بكثرة صلاة ولاصوم ، ولكن بسخاء الأنفس ، وسلامة الصدور والنصيحة للمسلمين) (211) .

وقد اختلف الصوفية في تحديد أسماء أصحاب كل درجة وعددهم ويوضح هذ الجدول تسميات كتب التصوف ورأي الغزواني في الموضوع(212). .(انظر الجدول في الصفحة التالية) . وكلما انتقل رجل يخلفه آخر من الطبقة الموالية في الترتيب ثم الى الأكثر من عامة المريدين :

---

(210) الزخرف آية 22 .

(211) الحديث في مسند ابن حنبل 112/1 . و انظر التشوف 17 .

(212) حديثه عن مراتب الأولياء في رسالته إلى الهبطي .

العـــــدد		التسميـــــة		المكـــــان		ملاحظات وتعريفات الغزواني
عند الصوفية	عند الغزواني	عند الصوفية	عند الغزواني	عند الصوفية	عند الغزواني	
300	300	اولياء	اولياء	المغرب	المغرب	
70	-	نجباء	–	مصر	المغرب	هم الذين استبدلوا من صفاتهم صفات محبوبهم .
40	40	ابدال	بدلاء	الشام	–	
-	24	–	اخيار	–	واحد في المغرب	
10/12	12	نقباء	نجباء	–	مصر	السابقون الى الله لنجابتهم
7	7	عرفاء	نقباء	سياحون	الشام	.
4	4	اوتاد	اوتاد	في زوايا الارض	في زوايا الارض	الراسخون في معرفة الله .
3	-	مختارون	–	–	–	
2	-	إمامان	–	–	–	
1	1	القطب	القطب	مكة	–	
		الغوث	الغوث	–	مكة	هو الذي يغيث من كل عوالمه بمادة لائقة به
		الجرس	الجرس	–	–	هو الذي يتلقى الامر جملة ثم يبين له فيوجهه الى ما اريد به .

والملاحظ أن الغزواني قد ركز اهتمامه على قمة الهرم أي مرتبة القطب والغوث والجرس ، وهي أعلى ما يمكن أن يبلغه الولي ، فأبان بأسلوبه الصوفي الفروق بينهم :

- فالقطب موصوف بتجليات العظمة والقهر والغلبة .

- والغوث موصوف بتجليات الحسن والمنة والإحاطة .

- والجرس موصوف بتجليات العز والعلا والحياة والدوام والبقاء .

- الأول نعت للجلال ، والثاني صفة الجمال ، والثالث خليفة في كل الكمال تنزيها وتقديسا و امتنانا .

- ومحل القطب الرضا ،ومحل الغوث الحمد ،ومحل الجرس الشكر.

- والقطب نور ، والغوث سر والجرس سر السر .

- القطب له مقام الإستواء على كل العالم ، والغوث له مقام التمكين على درة الأدب بعد الإستواء ، والجرس لامقام له . إنما المقامان في حق التداني، وهو لادنو له ، بل يتجلى كل شيء له خالصا قبل التخيير (213) .

ويشترط الغزواني في القطب بعد المجاهدة والوصول ستة أشياء إضافية :

1 - أن يكون سالما من البغي ، فالبغي إذا عظم صار حسدا .

2 - أن تكون فيه خصلة زائدة على الخلق ، أي انتشار كرامة القناعة تفضيلا من الله من غير خلق .

3 - أن تكون فيه حكمة الأشياء يعرف بها و لا يعرف بها غيره .

4 - أن يكون اسمه مما يذكر في كل شيء من غير استعمال .

5 - أن تكون همته قائمة بنفسه لابنفس غيره .

6 - أن ينسب إليه كل شيء ولاينسب هو إلى شيء (213).

(213) النقطة 16 - 17 .

وحضرة القطب على خمسة أقسام :

1 - صاحب القطب ومحبوبه ، نقله الله من حضرة الخديم إلى حضرة العلم و الحكم قائما بحقوق الصحبة و مجيبا عن قطب الأئمة (214).

2 - الخديم ، نقله الله من حضرة التلاميذ إلى حضرة السيادة والفراسة فناب عن سره في تصريف الكائنات على وقف الأبرار

3- التلميذ ، نقله الله من حضرة المريدين إلى حضرة حلاوة أنس الأذكار و انشراح بصيرة فؤاده بالانوار و الأسرار .

4 - والمريد ، نقله الله من حضرة الزائرين إلى حضرة المحبة و الأمان وإمداد الفضل والامتنان .

5 - والزائر ، نقله الله من حضرة العموم إلى حضرة خصوص العموم (215) .

فالزيارة علامتها الاستسلام لأنوار القطب ، ونيتها الانسلاخ عن كل وصف مذموم ، وقصدها كشف المشاهدة بعد فناء الذات ... ولكل من هؤلاء دوره وعمله في محاذاة القطب وخدمته. وقد كان الغزواني نفسه تلميذ التباع وخديمه قبل أن يبلغه باكتمال تربيته . كما كان التباع خديم السهلي . . . والسهلي خديم الجزولي . . .

وهكذا يتجلى لنا أن كتابة الغزواني جاءت مركزة على الجانبين النظري والتطبيقي للطريقة الجزولية الغزوانية ، من حيث تعاليمها وطرقها في التلقين والتربية ومجاهدة النفس، ومعالجة عللها والتدرج في المقامات قصد بلوغ أعلاها.

وقد انطلقنا من نصوص الغزواني نفسها للتعرف إلى نموذج خاص من الأدب الصوفي الذي وسمه القدماء و المحدثون على السواء بالغموض والتعقيد .

---

(214) كان سيدي مسعود الحاج صاحبا للسبتي ، وعلي شربة صاحبا لأبي عمرو القسطلي .

(215) النقطة 71- 72.

خلاصـــــة و استنتـــاج :

إن الهدف من هذا الفصل هو التعرف إلى أساليب الكتابة الأدبية الصوفية لدى بعض رجالات مراكش ، وآرائهم في قضايا التصوف على وجه العموم وتحديدهم بأسلوبهم الخاص للملامح العامة للطرق الصوفية المشتهرة في المدينة . وقد تبين لنا أن أغلبهم اهتموا بالجانب التربوي التطبيقي للطريقة دون جانبها النظري ، فخلفوا أورادا وأحزابا ، ولم يخلفوا رسائل وكتابات في الطريقة ذاتها .

أما أولئك الذين خلفوا هذه الكتابات فهم يكونون اتجاهين متباينين :

- <u>الأول – اتجاه الصوفي الفقيه المثقف</u> : وهو الذي تكون ثقافته الأساسية في ميادين غير التصوف كالحديث و الفقه . . . و تكون له مشاركة في التصوف و بالرغم من ممارسته له في حياته ، فإن الأمر لم يرق لديه إلى مستوى الأخذ بطريقة معينة ، و ظهور ملامح مدرسة متميزة تكونها هذه الكتابات . ويمثل هذا الاتجاه : القاضي عياض الفقيه الأديب الصوفي .

- <u>الثاني – اتجاه الصوفي المربي</u> ، وهو المتخصص في التصوف ، المعروف به دون غيره من الإهتمامات . وهو صاحب الطريقة الواضحة الأهداف والمقاصد ، والذي ندب نفسه لتربية المريدين وإرشادهم ومساعدتهم على مجاهدة النفس واجتياز المقامات .ويمثل هذا الاتجاه كل من الجزولي والغزواني .

وطبيعي أن نجد تمايزا بنيويا بين الكتابة الصوفية عند أصحاب الاتجاهين :

- فالكتابة الصوفية تأتي في الدرجة الثانية عند أصحاب الإتجاه الأول ، إذ أن الشفا هو كتاب حديث وسيرة قبل أن يكون كتاب تصوف بينما تكون لها الصدارة في الاتجاه الثاني : رسائل الجزولي، وكتاب النقطة للغزواني وحتى الموضوعات الأخرى التي يتضمنها هـذا الكتـــاب ذات طبيعـة صوفيـــة (شعر،مراسلات . . .) .

- **<u>اختلاف المضامين</u>** : في الوقت الذي ركز فيه عياض أحاديثه في الموضوعات المسايرة لاتجاه مؤلفه الشفا : تكريم النبوة عن طريق المحبة ، الذكر ، التصليات ، مع غياب الحديث عن الطريقة وتعاليمها . . . نجد الموضوعات الصوفية هي أصل بناء الرسائل والكتب عند أصحاب

الاتجاه الثاني ، مع التركيز على الطريقة الصوفية وشيوخها وأعلامها وتعاليمها وشاراتها . . . وبما يقتضيه الأمر من توضيح وتفصيل - وإذا كان الأسلوب - عند عياض - يسير على وثيرة واحدة ، لأنه موجه إلى طبقة متعلمة مثقفة ، فإنه مختلف ومتباين عند الجزولي والغزواني ، ما بين الرسائل والكتب ، إذ نجده ينزل الى أدنى المستويات ، ويدخل في محاورات جد مبسطة في رسالة العقيدة (للجزولي) ورسالة الغزواني إلى الهبطي . . . وأحيانا يرتفع من جديد ليناقش قضايا صوفية كثيرا ما يغلفها الغموض وتبقى ألغازا يصعب فك رموزها ، وخاصة عنـــد الغزوانـي الذي اشتهـر كلامه - حسب ما ردده الصوفية أنفسهم - بالغموض، إذ لايفهمه - كما يقولون - إلا من فتح الله عليه .

ولعل مرد هذا التباين الى مستويات المخاطبين المريدين ، فمنهم من وضع قدمه في طريق السلوك ، و منهم من قطع فيها أشواطا ومنهم من أدرك مقام الصحبة أو أكثر من ذلك . فطبيعي أن يخاطب كل فئة على قـــدر عقلهـا .- إلا أن ما يجمع الاتجاهين داخل بوثقة واحدة هو مجاهدة النفس والتقرب من الخالق ، مع :

* الحرص على اتباع السنة و المحافظة عليها : فقد كان كتاب الشفا من أوله إلى آخره في الإقتداء بالرسول وهديه وترك مخالفته . ويتجلى هذا الحرص عند الجزولي والغزواني في عرض الخواطر والمشاهدات على ميزان الكتاب والسنة ، و رفض كل ما كان مخالفا لهما اقتــداء بأقطـاب التـصوف السـني المشـاهير كالجنيد والشاذلي وغيرهما . . .

* التوفيق بين الشريعة و الحقيقة : في تكريم النبوة والدعوة إلى التوحيد ، ومحبة الرسول ، لذا نجد الرسائل تبدأ بالحديث عن الإسلام والإيمان قبل أن تتناول الطريقة والمقامات والأحوال ومراتب الصوفية . . . وقد نتج عن هذا عدم الاهتمام بالنظريات الفلسفية الصوفية كالحلول، ووحدة الوجود، والاتحاد ... وهنا يلتقي عياض بأصحاب الاتجاه الثاني للاتفاق حول توحيد الخلق ، وتكريم رسوله . ففي رفض هذه النظريات تأكيد للفروق بين الخالق والمخلوق ، للرسول والمرسل إليه ، وتكريم للنبي الذي شهد عصر عياض اخلالا بواجب احترامه .

* وفي هذا التوفيق محافظة على وحدة الأمة الإسلامية من التفرقة تزيدها تأكيدا تلك الروابط التي تفرضها تعاليم الطريقة من آداب التلقين واحترام الشيخ ، وآداب مجالسته والأخذ عنه

وطاعته، وآداب مجالسةالاخوان في الطريقة وقد قال اتباع الطريقتين الجزولية و الغزوانية بما نادى به أسلافهم الشاذلية من غوثية وقطبية ومراتب صوفية ، إمعانا في احترام رأيهم واتباعه علما بأن هنالك اتجاهات لا تميل إلى المبالغة في تعظيم الأولياء وإضفاء الأوصاف عليهم تأكيدا لهذه الوحدة .

* ومن مقاصد هذه الوحدة الحفاظ على الإسلام نفسه عندما يظهر في الأفق ما يهدد كيانه، لذلك نجد الصوفية و الطرقيين في مقدمة المناهضين للفتن (عياض) وللاستعمار بكافة أشكاله.وقد تزعم الجزولي وأتباعه من بعده حركة الجهاد ضد النصارى الذين كانوا يحتلون الشواطئ المغربية ، فنصوا على أن دولتهم هي دولة المجاهدين و أشار الغزواني ألا زهد مع الجهاد تقوية للمسلم . وضحوا بالطريقة في سبيل الدفاع عن كيان الأمة .

وقد ساعدت التنظيمات الطرقية الدقيقة (مريدون، تلاميذ، أصحاب، خدام . . .) وما يجب أن يتحلوا به من طاعة الشيخ واتباع رأيه ، وعدم مناقشته على تجنيد الاتباع ، و دفعهم إلى تحرير البلاد و توحيدها . و بهذا فإن الطرق الصوفية المغربية كانت طرقا اجتماعية ، نهضت بأدوار مهمة على الصعيدين المحلي والوطني ، ولم تكن ذاتية أو سلبية .إن هذه الأهداف والمقاصد هي التي أعطت للكتابة الصوفية أهميتها على مستوى التنظير ، وسنرى في الفصل القادم مدى أهميتها على مستوى التطبيق عندما نقف على أدب الأذكار التي كانت تربي المريدين ، وتساعدهم على معالجة علل أنفسهم وعيوبها ، وسلوك الطريق ليكونوا في مستوى تحقيق هذه الأهداف .

الفصل الثالث
- أدب الأذكار -

مدخل

المبحث الأول : حزب أبي العباس السبتي

المبحث الثاني : أذكار الجزولي

المطلب الأول : دلائل الخيرات

المطلب الثاني : الأحزاب

المبحث الثالث : أذكار الغزواني

خاتمة الفصل :

خاتمة الباب الثاني

أدب الأذكار هو المحور الثالث المكمل لمحاور الكتابة الصوفية و هي :

- الشعر الصوفي .

- المؤلفات و الرسائل .

- أدب الأذكار ، وهي صيغة جامعة لكل ما يتوسل به لذكر الله والتقرب إليه ومحاولة تطهير النفس وتصفية الفؤاد من العلل والأعراض : ومنها الأوراد والوظائف ، والأحزاب وصيغ التصلية والتهليل . . . وسنحاول في هذا الفصل التعرف إلى مضامين الأذكار وخصائصها الأسلوبية وأثرها في المريدين من خلال نماذج متنوعة لبعض رجالات مراكش .وسنقدم لذلك بمدخل عن الأذكار وأهميتها في الطريقة وأنواعها و انعكاساتها على جمهور المريدين والعامة .

مدخل إلى أدب الأذكار :

- أهمية الأذكار : الذكر ركيزة أساسية من ركائز التصوف ، فقد تستغني الطريقة عن الشيخ ، ولكنها لا تستغني عن الذكر الذي هو سلاح المريد لمواجهة علل نفسه و أهوائها . وقد استمدت الطرق أهمية الأذكار من الكتاب والسنة :

* فهنـــــاك آيات تحث على الإكثار من ذكر الله في كل الأوقات والأحوال (1) . وأحاديث تمجد مجالس الذكر و تزكيها ، وتجعله أسمى مقاما من الجهاد ، وسببا من أسباب الشفاعة وحسن الخاتمة وعلامة من علامات حب الله ورسوله (2) ، لهذا اطنبت كتب التصوف في الحديث

---

(1) الآيات التي تحث على ذكر الله كثيرة منها : (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا / الأحزاب 41) (واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون / الجمعة 10) (فاذكروني أذكركم / البقرة 152.) (الذين يذكرون الله قياما وقعودا و على جنوبهم ؟ آل عمران 191) .

(2) من الأحاديث التي تحث على الذكر (أنا عند ظن عبدي بي . . . فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي . . . الحديث القدسي في صحيح البخاري باب التوحيد 15 - 43 ر و في صحيح مسلم 3 /18 - 19 . أنظر أحاديث أخرى في نفس الموضوع في مقدمة كتاب الأذكار الطيبية ، ط . البارونية مصر 1324 هـ .

عن تصنيفات الذكر : من خفي وجلي ، فردي وجماعي ، من ذكر لسان ، وذكر قلب ، وذكر سر . وعن علاقته بالمقامات والأحوال ، والصيغ المستعملة في كل مقام ، وعن زمان الذكر وطرق تلقينه وآدابه و أنواعه . . . ونصوص الأحزاب والتصليات . إلى غير ذلك . . . مما يكون تراثا ضخما يستحق أن يكون موضوع دراسة مستقلة (3) .

وما يهمنا منه : تصنيف الأذكار - المقرر لدى الصوفية بحسب مقامات السلوك ومدارجه، و الأدب الخاص بكل مقام . فبه تتحدد أنواع أدب الاذكار و فروعه .و قد حددوا للذكر ثلاثة أهداف و مقاصد : أوله تطهير ، ووسطه تنوير ، وآخره تعمير (4) .

- التطهير ------------> إشارة إلى الإستغفار .

- التنوير ------------> إشارة إلى الصلاة على النبي .

- التعمير ------------> إشارة إلى التهليل، والتنزيه وذكر الإسم المفرد (الله)-

وبهذه الطريقة تم تكثيف التصنيف الخماسي للأذكار الذي نجده عند أغلب مشايخ التصوف (5) .

- التصنيف الخماسي للأذكار :

1) الاستغفار : أول ما يبدأ به المريد قصد التطهر من الأوزار ، والتعود على الذكر ، ويستمر فيه إلى حين الإنتقال من منزل التوبة ، ويرافقه التعوذ بالله ، والبسملة ، ويختم بالحمد والشكر . ومن الطرق ما يأذن بالانتقال مباشرة إلى المرحلة الثانية ، ومهما ينصح باتخاذ ورد خاص دبر كل صلاة قبل ذلك ، والالتزام به مدة ، إلى أن تثبت التوبة وتمحى الذنوب (6) .

---

(3) من الكتب التي تناولت أدب الأذكار و التصليات : مجموع الأذكار الطيبية وأفضل الصلوات للنبهاني ، وميزاب الرحمات لابن المؤقت المراكشي . وتحدث عنها محمد المنوني في مقالته مؤلفات مغربية في الصلاة والتسليم على خير البرية ، دعوة الحق ماي 1977 / ص 20-31 .

(4) منهج الإرتجال ص 135 .

(5) انظر تفاصيل ذلك مع أسماء الطرق في كتاب " الطرق الصوفية " م . خ ع . ر . 637 ك ، ونموذج الطريقة الساحلية في كتاب " بغية السالك في أشرف المسالك " م . خ . ع .ر . 2224 د

(6) انظر حديثا عن الأوراد ، تعريفها و أصولها ، في كتاب " الكوكب الوقاد " 24 و م . خ . ع . د 1592 ك ، و مرآة المحاسن 94 .

2) ذكر التصلية : واختصاصه ترسيخ تعظيم الرسول في النفس وتثبيت محبته والاشتغال بها ، أفضل من الاشتغال بالاستغفار بالنسبة للمطيع وعند الصوفية أن الصلاة على النبي يجب ألا تكون رجاء الثواب وقضاء الحاجة ، وإنما حبا و إجلالا وتعظيما (7) . وتبدأ من منزلة الاستقامة .

وساقوا كلاما طويلا في فضائل الصلاة على النبي وثمراتها لانريد الدخول في تفاصيله الآن ، ويكفي أن نذكر أن الاكثار من الصلاة والثناء على الرسول يرسخ تلك المعاني البديعة في النفس فتزداد محبته . والمرء مع من أحب ، والحب يوجب الإتباع ، والإتباع يوذن بالوصال . والصلاة على النبي إذا خلص شربها سطعت أنوارها في الباطن ، فصارت النفس مرآة لصورته صلى الله عليه وسلم لا تغيب عنها وهو العلم اليقيني الذي لا شك فيه (8) .

3) ذكر التهليل : فإذا تطهر القلب من أدناس الخواطر ، بإشراق أنوار الصلوات فيه، اشتعل بكلمتي الشهادة (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ، وذلك في سائر الأوقات ، إن كان راجح العقل ، معتدل المزاج ، ثابت القدم قويا في حاله ، لأن هذا الذكر قوي لايحمله إلا الأقوياء ، وذلك ان أنوار نيته محرقة لأوصاف العبد ومثيرة لحرارة طبعه . وإن كان ضعيفا فيؤخذ بالرفق و يجعل له فيها وردا معلوما ، حتى تأخذ عليه نفسه ، وتسري فيه القوة شيئا فشيئا ، وبعد ذلك يكثر من الصلاة على النبي لأنها كما قال أبو بكر أمحق للذنوب من الماء البارد للنار . (9) .

ويؤكد هذا الرأي ضرورة التحري عند الإنتقال من ذكر إلي آخر للتثبت من قدرة المريد على مواجهة متطلبات الذكر الجديد ، وتقبل نفحاته .وفي معرض المفاضلة بين الذكرين يفضل الصوفية التهليل على الصلاة على النبي :

* لأنه كلمة يحصل بها الاسلام ، ولا يحصل بالصلاة على النبي

* لأن التوحيد موجود في الصلاة .

---

(7) ميزاب الرحمات 244 – 245 –

(8) شمس المعرفة 99

(9) الطرق الصوفية 100 – 101 . الشفا 2/76 – 77

* و زاد من أهمية التهليل ، ما روي في الحديث أن الرسول قال : أفضل ما قلته أنا والنبيئون من قبلي "لا إله إلا الله "(10) وفي تفسير الصوفية

لقوله تعالى (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم) (11)، يقولون ان"الذي هوأقوم "هو لا إله إلا الله (12) .وعند أبي العباس السبتي ان الإكثار من التهليل يقوي اليقين بالله ، ويساعد على إدراك مقام الأولياء والصالحين (13) . وقد استمد من عبارة " لا إله إلا الله " علوما وأسرارا ، لم تعد كلها متداولة (14) .

4) ذكر التنزيه : فإذا ظهرت عليه ثمرة النفي و الإثبات ، وهي خروج النفس من رعوناتها وولوج الروح في بحار التوحيد ، فيشتغل بذكر التنزيه للتوحيد الخالص وهو (سبحان الله وبحمده) وهو ما يسمى بالذكر الحقيقي لقوله < ص > كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان (سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم)(15) .وتستهل بعض الطوائف هذا الذكر في المنزل الثاني من منازل مقام الايمان أي منزل الصدق بعدما يكون قد قطع كذلك منزل الإخلاص

5) الذكر المفرد ، للإستغراق في الله : فإذا ظهرت للمريد ثماره ، وتبينت لديه أسراره ، يصير أهلا للذكر المفرد فيقول (الله ، الله ، الله) ويداوم على ذلك . ومما يروى في أهمية الذكر المفرد قوله < ص > : سبق المفردون قالوا ، ما المفردون يا رسول الله ؟ قال : الذاكرون الله كثيرا والذاكرات . (16) . ويبدأ الذكر المفرد من منزل الطمأنينة آخر منازل مقام الإيمان ، ليستمر في

---

(10) الحديث وارد في عمل اليوم و الليلة للنسائي رقم 481 . وفي صحيح البخاري أحاديث عن فضل التهليل 106/8 ، ط . دار الجبيل وانظر كذلك مجموع الأذكار الطيبية . منها أفضل الذكر " لا إله إلا الله " سنن ابن ماجة ، أدب 55

(11) سورة الإسراء آية 9 .

(12) كنز الأسرار لابن عجيبة ص 130

(13) اثمد البصائر 46 ، والقصيدة جزء من الزايرجة المنشورة في تاريخ ابن خلدون 913/1 ومابعدها . ط. بيروت 1956 .

(14) الزايرجة المذكورة ، وكتاب اثمد البصائر 41 و 43

(15) ورد في صحيح البخاري في النذور و الإيمان ، وفي صحيح مسلم 70/8 . وعمل اليوم والليلة للنسائي ، حديث 830 .

(16) مقدمة مجموع الأذكار الطيبية ، و التعرف للكلاباذي 104

منازل مقام الإحسان .

- وجـوه الأذكـار : ستـــة :

* خمسة منها مفروضة على الأجسام أو مظاهر الذات ، وأوقاتها معلومة (صلاة ، صوم، حج . . .) كل واحد بوقته .

* والسادس مفـروض على القلب أوباطن الذات ، وليس له وقت معين . وأفضل وجوه الذكر الكلمة المفردة " الله " وبها تدرك المواهب وتكشف الاسرار، ويبلغ العبد منازل الأخيار . وهي الكلمة التي دعا إليها أبو العباس السبتي في لاميته :

سرى بها ناجي ومعـروف قبلـــه ... وبـــاح بـهـــا الحـــلاج فقوتـــلا
وكان بها الشبلي يـدأب دائمـــا ... إلى أن رقـى فـوق المريـدين و اعـتـلا
فصف من الأدناس قلبك جاهـــدا ... ولازم لـذكـرهـــا وصـــم وتنـفـــلا
هي السـر في الأكـوان لا شيء غيـرها ... هي الآيـــة الكبـرى فـحقق وحصـلا
تكون بها قطبا إذا جدت خدمـــة ... وتدرك أسـرارا من العـالم العـلا (17)

وتسمى كذلك بكلمة الله التامة ، والقول السديد ، والطيب من القول لقوله تعالى (وقولوا قولا سديدا (18) ،وهدوا إلى الطيب من القول ...(19) وهذا الوجه من الذكر أصله الصفا، وفرعه الوفا وشرطه الحضور، وبساطه العمل الصالح ،وخاصيته الفتح المبين . ولاتكمل نتيجة الذكر إلا إذا كان بالقلب لا باللسان . فعن العارفين أن من كان يذكر الله بلسانه و حلقه فلا مطمع له في سبيل المتقين وأولياء الله الواصلين . لأن ذكر اللسان ذكر العامة وذكر القلب ذكر الخاصة . طريق الاولياء هو طريق القلوب لاطريق الألسن. قال تعالى (واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة) (20) . وقال < ص > خير الرزق ما يكفي ، وخير الذكر الخفي . فإذا دامت القلوب على

---

(17) تاريخ ابن خلدون 1/953 .
(18) سورة الأحزاب ، آية 70.
(19) سورة الحج ،آية 24
(20) سورة الأعراف ، آية 205 .

الذكر تنورت و كشف لها الحجاب وبلغت المقاصد والأهداف .

إن هذه التقسيمات تحدد آداب الأذكار المؤلفة ، ويلتزم بعضها بالتقسيم في حين يضم المؤلف الواحد أحيانا عدة تفريعات : التصلية و التهليل معا ، أوالتهليل والإسم المفرد معا . . . أو أكثر من ذلك .

وحتى نتعرف إلى مضامين أدب الأذكار – الذي ينهض بهذا الدور المهم في التصوف – وإلى خصائصه الأسلوبية ، نعتمد ثلاثة نماذج متنوعة لأقطاب مراكش ، هم :

1) أبو العباس السبتي ، وحزبه من نوع الأوراد الممهدة للتصليات

2) الجزولي ، وكتابه " دلائل الخيرات " من أشهر كتب التصليات . والحزب الكبير ، يشتمل على التصليات و الإسم المفرد حزب الفلاح ، يجمع بين التصلية والتهليل .

3) الغزواني ، وظيفته و أحزابه تتمثل فيها كل التصنيفات . وسنخصص لكل واحد مبحثا .

المبحث الأول - حزب أبي العباس السبتي

تذكر المصادر أن السبتي كان يجتمع مع مريديه بمدرسة " حي مقبل " التي شيدها له الموحدون . يعلمهم بالنهار ، ويتلون القرآن والأذكار بالليل ، وغالبا ما كانوا يرفعون أصواتهم بهذه التلاوة، حتى تصل إلى أطراف الحي(21). أما الأذكار التي يتلونها فلا تخرج عن أوراد القادرية وأحزاب مشايخها ، وكذا حزب الشيخ السبتي .وهذا الحزب الذي يبدأ بقوله (اللهم أفضلت فعم أفضالك، وأنعمت فتم نوالك) (*)متداول معروف ورد عند أغلب مترجميه

ولما كـــان الهـــدف من الاحزاب هو التمهيـــد لأذكـــار التصليـــــات (أو مايسمى بذكر اللسان) بتأكيد التوبة ومحو الذنوب ، والتعوذ على الذكر فإن المشايخ قد اهتموا فيها بإبراز عظمة الخالق وقوته وكرمه وعدله .وفي نفس الوقت ضعف المخلوق ظلمه و طغيانه . و عن طريق هذه المفارقة وتكرار معانيها ، يلتمس المريد العبرة ، ويكف عن الذنب ويطلب العفو .

وهكذا فإن حزب السبتي مكون من أربعة محاور :

* القوة / الضعف . الإحسان / الإساءة . القرب / البعد . الأمل / اليأس .وبواسطة إظهار التناقض بين المحاور وبأسلوب أدبي لايخلو من صنعة وتأثير تتم معالجة المريد وإعداده للمرحلة التالية من الذكر .

<u>1) القوة / الضعف</u> : تتجلى القوة الإلهيـــــة في عدة مظاهـــر:

- يعتبر خلق الإنسان أسماها ، والإنعام عليه بعقل ، وتنويره بفهم وتوفيق ، وهدايته إلى السبيل السوي ، لذلك قرن التعبير عن قوة الخلق بالحمد والشكر والإجلال .

---

(21) تعطير الأنفاس 26 .

(*) الجمل التي بين قوسين (. . . . .) مقتبسة من حزب أبي العباس السبتي

- في وحدانيته المنزهة عن البداية ، وإلهيته المعظمة عن النهاية فهو الواحد والأول والآخر (سبقت السبق فأنت الأول) (22). وهو مُكتَفٍ بذاته ، ولاحاجة له إلى شيء آخر يعينه على البقاء والدوام (أنت الواحد لا من عدد ، والباقي بعد الأبد) . ودعم الشيخ هذه المعاني بإحالة قرآنية إلى سورة الإخلاص التي تتكرر في كثير من الأحزاب .

- أما الإنسان فإنه ضعيف لأنه مخلوق(وخلق الإنسان ضعيفا)(23) له بداية و له نهاية، وله إمكانيات محدودة ، فلا يمكنه أن يتجاوز خالقه أو يستغني عنه .

بهذا الطرح البسيط ينتهي السبتي إلى قضية العلم بالله ، ذلك أن الوصول إلى الله - كما يقول ابن عطاء الله - هو وصول إلى العلم به . و إلا فجل ربنا أن يتصل بشيء أو يتصل به شيء . فالمعرفة الصوفية التي انكشفت لها الحقيقة الأزلية ، لا تحيط بموضوعها الرئيسي ، وتكتفي بالوعي به ، لهذا قال : (كيف يحيط بك علم و أنت خلقته ، أم كيف يدركك بصر و أنت شققته ، أم كيف يدنو منك فكر وأنت وفقته ، أم كيف يشكرك لسان و أنت أنطقته) . وقد قال تعالى (ولايحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء) (24) فالعقل المخلوق قاصر عن شهود المكون ، وأسرار المعاني خارجة عن دائرته ، ومن تم كان عقال العقل الشريعة .و يجسد الصوفية هذه الحقيقة بالحوار الذي دار بين النوري ورجل سأله عن الدليل على الله . فقال النوري : الله . قال الرجل وما بال العقل؟ قال النوري العقل عاجز، والعاجز لايدل إلا على عاجز مثله . لما خلق الله العقل قال : من أنا ؟ فسكت، فكحله الله بنور الوحدانية، فقال : أنت الله . فلم يكن للعقل أن يعرف الله إلا بالله . (25) .

مثل هذه المحاورات وضعت لتقريب هذه المعاني من أذهان العامة .

- و من علامات ضعف المخلوق أن مشيئته متعلقة بمشيئة الله (فلا حول عن عصيانك إلا

---

(22) حزب ابي العباس السبتي .

(23) سورة النساء آية 28 .

(24) سورة البقرة ، آية 255 .

(25) التعرف للكلاباذي 63 .

بإرادتك ، و لا قوة على طاعتك إلا بإعانتك ،ولا ملجأ ولامنجى منك إلا إليك) .لقد ذهب الباحثون إلى أن تنزيه الخالق و تعظيمه كان من أسباب ميل الإنسان إلى التصوف لشعوره بالعجز إزاءه ، رغبته في التقرب منه ، فليس لديه من حيلة سوى التوسل وإظهار الضعف والحاجة . وبأسلوب معتمد على التقابل حتى يكون الحزب مؤثرا في القراء والمريدين :

- يـــا من بيـــده القلـــوب ----------> اصلح قلوبنا .

- يا من قلت في حلمه الذنوب ----------> اغفر ذنوبنا .

ويكون الدعاء أكثر تأثيرا وإقناعا عندما تتقابل أجزاؤه ، وتتآلف ألفاظه و تتناغم مخارجه . لذلك لا حظنا أن جمل هذا القسم من الحزب تشتمل على خاصية المناسبة و حسن نظم الكلام و فيها تكون الجملة مفرغة في قالب شبيه بقالب اختها :

- الجملة الأولى : لك / الحمد / على / عقل / ثقفته .

- الجملة الثانية : لك / الحمد / على / فهم / و فقته .

- الجملة الثالثة : لك / الحمد / على / توفيق / هديته .

ويبدو النظم في تكرار الشطر الأول من الجملة (لك الحمد على) واعتماد السجع في الشطر الثاني منها ، وإمكانية الجناس بين (ثقفته / وفقته / توفيق) .و شبيه بها قوله :

- الجملة الأولى : كيف / يحيط / بك / علم / وأنت / خلقته

- الجملة الثانية : كيف / يدركك / بصر / و أنت / شققته .

- الجملة الثالثة : أم كيف / يشكرك / لسان / و أنت / أنطقته .

يعتمد في هذه الجمل كذلك التناسب ، والنظم المبني على تكرار عبارات في أول ووسط الجمل هذه المرة (كيف . . . وأنت)والسجع في آخرها . وفيه التزامَ ما لا يلزم (خلقته / شققته / أنطقته) ، وسجع آخر في وسط الجملة (بك ، يدركك ، يشكرك) .

وينوع الإستعمال في مثل قوله :

- الجملة الأولى ، سبقت السبق / فأنت الاول .

- الجملة الثانية ، و خلقت الخلق / فعليك المعول .فبالإضافة إلى المناسبة و السجع في وسط الجملة و آخرها ، يأتي بجناس بين كلمتي الشطر الأول من كل جملة (سبقت السبق / خلقت الخلق)

و ينوع في أسلوب النظم باعتماد تكرار من النوع الذي يطلق عليه التصدير ، وبمقتضاه ترد الكلمة عند الشعراء في الشطر الأول ، فيعدونها في الشطر الثاني لإتمام المعنى أو تأكيده . وجاء حزب أبي العباس تأكيدا للتوسل ، وإبرازا له وإظهارا لعظمة الخالق ، وضعف المخلوق المحتاج إليه دوما

- يامن بيده القلوب / اصلح قلوبنا .

- يامن قلت في جله الذنوب / اغفر ذنوبنا .

- يا مصلح الأسرار / صف أسرارنا .

- يا مزيح الأكدار / عف أكدارنا .

فالمجانسة ترسخ المعنى في الذهن، وتنص على تقارب معاني الألفاظ، و تنبيء بوجود تشابه في المعنى والغاية . ويهدف من الإكثارمن التكرار إلى تحقيق غايات نفسية بتأكيد معاني الحزب حتى تنفذ معانيها إلى قلب الذاكر وتصبغ عليه نوعا من الطمأنينة والهدوء،فيتحول الذكرمن لسانه إلى قلبه .وهي الغاية من مرحلة الحزب ، أي ترسيخ التوبة والطمأنية في نفس الذاكر حتى يصبح أهلا لممارسة ذكر التصلية .

وتأتي المطابقة لتعميق ثنائية القوة / الضعف :

- بتأكيد عظمة الخالق المنزه (عن بداية) والمعظم (عن نهاية)

- نور السماوات و الأرض .

– و ضعف المخلوق و جهله لأنه يبيع ما يبقى بما يفنى فيكون الخاسر بالطبع . وهذه المطابقات تحدث نوعا من التوتر يكون مقصودا لذاته كي تستخلص منه العبرة، ويهتدي به المريد الذاكر.و إذا كانت هذه الأساليب البلاغية تخاطب مشاعر الذاكر وعواطفه وتؤثر فيهما فإن الأحاديث القرآنية قد اعتمدت في الحزب لمخاطبة عقله سواء عندما تذكر بنصها (سورة الإخلاص) أو عندما تحبك في نسيج الحزب .

– (لايحيط بك فهم / و لا يحيط بك علم) وفيه إحالة إلى آيات قرآنية كثيرة منها قوله تعالى (يعلم مابين أيديهم و ما خلفهم ولايحيطون بشيء من علمه) (26) ،

– (لا يدركك وهم / أم كيف يدركك بصر) إشارة إلى آيات أخرى تحمل نفس المعنى منها قوله تعالى(لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهواللطيف الخبير)(27) . وبذلك يتم الجمع بين مخاطبة العقل والعاطفة لإدراك غايات الحزب ومقاصده .

<u>2 – الإحسان / الإساءة</u> : إن ضعف الإنسان يؤدي به إلى الخطأ والإساءة إلى نفسه و إلى خالقه . وإحسان الخالق هو الذي يعطي للحياة معنى ، إذ لولاه لفقد المخلوق الأمل في كل شيء ، ولما سعى إلى التوسل و طلب العفو . وفي القرآن الكريم آيات تنص على إحسان الخالق وعفوه على المخلوق :

– وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ، و يعفو عن السيئات (28) .

– و لو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله ، واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما . . . (29) وأخرج الحاكم عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله "ص" (كل ابن آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون)

وقد أفادت بعض جمل الحزب هذه المعاني في مثل قول السبتي :

---

(26) سورة البقرة ، آية 255 .
(27) سورة الأنعام ، آية 103
(28) سورة الشوري ، آية 25
(29) سورة النساء ، آية 64 .

- (إذا تجمعت عظائم الجرائم كانت في جنس غفرانك قليلة) ولأهمية الإحسان والعفو في مسألة التوبة نجد الشيخ يبدأ به الحزب تطييبا لخاطر المريد ، وتهديئا لروعه خاصة وأن الأحزاب قد وضعت لتنهض بهذا الدور النفسي الإعدادي (اللهم أفضلت فعم أفضالك، وأنعمت فتم نوالك. .. وغفرت الذنوب ، وسترت العيوب) . وهو ما يبحث عنه المريد التائب : أن ينعم بأفضاله تعالى، وينال من إحسانه فتغفر ذنوبه ويصفح عن أخطائه ، وتتجاوز عيوبه .

وهذا التقديم المتفائل لم يمنع الشيخ من توجيه اللوم إلى المريد وتقريعه على مايبدر منه من إساءات وجحود إذ يقابل الخير بالشر ، والحسن بالقبيح ، وذلك في صيغ استفهامية تدل على استنكاره لمثل هذه الأعمال والتصرفات .

- كيف يناجيك في الصلوات من يعصيك في الخلوات ؟
- كيف يدعوك للمهمات من ينساك عند الشهوات ؟
- كيف سها عن خطابك من لا تعظه الرسل ؟

وبعد هذه السلسلة من الإستفهامات الإنكارية يبدي عجبه من الإنسان الجاهل الغر الذي :
- (يبيع ما يبقى بما يفني ، و إنما هي أيام قلائل . . .)
- يشكر من لا يقدر على شيء في حين يسيء الأدب مع خالق كل شيء ، بمثل هذا الخطاب الوعظي التأنيبي ينبه الشيخ المريدين إلى عيوبهم ويدلهم عليها عسى أن يتجاوزوها ، ويتوبوا توبة نصوحا .

ويمكن أن نستنتج من هذا الحزب بعض مبادئ مذهب السبتي في الإحسان والصدقة والكرم، فعنده أن الوجود ينفعل بالجود ، و أن الإحسان هو أصل الخير في الدنيا والآخرة ، فالصدقة تعاقد بين الخالق و المخلوق نتائجه مضمونة . لهذا كان يدور في الأسواق - كما نعرف - مناديا "درهم بعشرة " . وذكر في الحزب هذا الجود و الكرم الذي أصبغه الله على عباده (انهل جودك وتوالى، وجرى رزقك حلالا . ..)(وسبيل جودك سائل . . .)

ومع ذلك فإن الإنسان لم يلتزم بالتعاقد ، إذ أنعم الله عليه من خيره ، دون أن يجود بدوره على المحتاجين من إخوانه (عجبا . . . لأكف جمعت وقد استقرضتها ، هلا جادت بذلك . . . هل تنقصت اموال اقترضتها ، لا وحقك بل زادت. .).

وقد ذكر " القرض " الذي هو محور المذهب إلا أن الإنسان لا ينهض فيه بدوره و لا يلتزم بتعاقده . ويستمر الإعتماد على نفس الأسلوب أي صياغة هذه الثنائيات في قالب قائم على المناسبة وحسن نظم الكلام والتقابل و الترصيع لتكون أكثر تأثيرا و إقناعا، و قد تكون المناسبة ذات تركيب ثلاثي :

- الجملة الأولي ، جل / جلالك / و تعالى .

- الجملة الثانية ، انهل / جودك / و توالى .أوتركيب ربـــــاعي :

- الجملة الأولى ، غفرت / الذنوب / فتكامل / احسانك .

- الجملة الثانية ، وسترت / العيوب / فتواصل /غفرانك

و قد يكون أكثر من ذلك بحيث يركب من جملتين مترابطتين كقوله ،

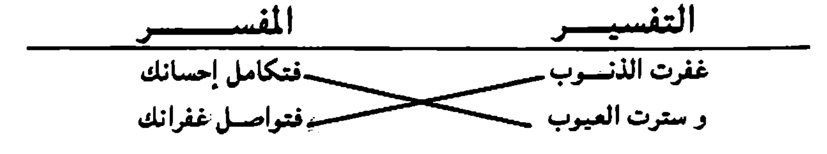
- الجملة الأولى ، كيف يناجيك في الصلوات / من يعصيك في الخلوات .

- الجملة الثانية ، أم كيف يدعوك للمهمات/ من ينساك عند الشهوات .والمناسبة تامة بين هذه الجمل : من حيث عدد الكلمات الموظفة، ومن حيث موقعها في الجملة (فعل أو اسم) مع مراعاة زمن الفعل وما قد يتصل به من سوابق أو لواحق . كما يراعي السجع مراعاة دقيقة، مع ملاحظة الإكثار من استعمال ضمائر المخاطب (التاء والكاف) وهذا له ما يبرره كما سنرى .وأحيانا ما يضاف الى هذا كله الاهتمام بالسجع أوالتكرار مثل: جل/ جلالك . توالى/تعالى. غفرت/غفرانك .

- ويلتــزم فيه أحيانــا بمـا لا يلـزم ، " الى " ------------> تعالـى / تـوالى . " انك " --------> إحسانك و غفرانك . " وات " --------> خلوات / شهوات .

ويبدو اهتمام السبتي بأساليب البلاغة في استعماله لما يسمى بحسن التفسير وغرابة التقسيم (30) . وفيه يورد الكاتب جملتين ويقابلهما بمثلهما فتفسر كل واحدة نظيرتها ، قال :

التفسيــر المفســـر



(30) بغية الرائد 197 .

وهكـــذا قابلت جملـــة التفسير الأول جملة المفســـر الثانـــي (تواصل الغفران) وقابلت جملة التفسير الثاني جملة المفسر الأول (تكامل الإحسان) وهو تقابل يتمم القصد من المناسبة وحسن نظم الكلام أي التأثير عن طريق تنغيم الكلام والمطابقة بين أجزائه .

والنص القرآني حاضر في كثير من مقاطع هذا الحزب ، فهو الحجة المقنعة و أسلوب من أساليب التأثير كذلك ، ففي حديثه عن جود الخالق و إحسانه إحالة إلى آيات تتحدث عن جزاء المحسن وأجره المضاعف (ان تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم) (31) مع استعارة بعض ألفاظ الآيـــة :اقتـــرض ، زاد . . .

3 - القرب / البعد : وينص الحزب كذلك على قرب الإنسان عن الذنب و الاثم و بعده عن خالقه الذي أحسن إليه ، و هذه إساءة وجحود لاتغفرهما إلا التوبة و طاعة الخالق . ويستعمل الشاعر صيغ التعجب والتفجع ، والنداء والاستفهام لاستنكار هذه التصرفات التي لا يمكن أن تصدر عن انسان عاقل :

- (عجبا لقلوب كيف استمرت على الأنس بسواك ؟)وهو تعجب مشروع إذ لا يتصور أن يأنس الإنسان المتدين العاقل بغير الإله ويعتمد عليه ويؤمن به . فلا يسعه إلا أن يتفجع على مثل هؤلاء و يرثي لحالهم ، ويأسف لضلالهم :

- (واها لقلوب مالت إلى غيرك كما أرادت ، و لنفوس تحب الراحة هلا طلبت منك واستفادت) .ويخاطب القلب - المضغة التي إذا صلحت صلح الجسد كله - لأن الإيمان الحق هو إيمان القلب ، والذكر الحق هو ذكر القلب (عجبا لقلوب . . . واها لقلوب) ويظهر المفارقة والتناقض بعد هاتين الجملتين بقوله :

(ياروح القلوب أين طلابك . . .) وهو دليل آخر على ضلال الإنسان الذي أغفل عن طلب روح القلوب و لم ينهل من معينه الذي لا ينضب .

---

(31) سورة التغابن ، آية 17 ، و وردت آيات بنفس المعنى في سورة الحديد آية 11 و 18 وسورة البقرة آية 245 ، و سورة المزمل آية 20 .

ويعبر عن إهمال الانسان و غفلته و عصيانه وخروجه عن جادة الطريق باستعماله سلسلة من النداءات و الإستفهامات .

- (يارب الأرباب أين أحبابك ؟ يا نور السماوات و الأرض أين قصادك ؟

- يا سبب الأسباب أين عبادك ؟)إنه أسلوب الوعظ الذي يبالغ في استنكار ابتعاد الناس عن الدين، وإهمالهم لواجب القيام باوامره ليتعظ من أراد ويتوب من أراد ، ويزيد المومن المتمسك بدينه إيمانا وتمسكا . وعواقب البعد عن الخالق وعصيان أوامره هو الخسران المبين ، أما نتائج القرب منه فهي السعادة و انشراح الصدر والطمأنينة :

- (من الذي جاءك بكربه فلم يفرح)

- (من ذا الذي لاذ بجنابك الكريم فاشتهى أن يبرح) .هذه الثنائية القرب / البعد تجعل المريد التائب يعي خطورة البعد عن الخالق ، ومغانم الاقتراب منه فيتعظ و يقبل على الله ودينه بقلبه وروحه وهي الغاية من الحزب .

و لانريد تكرار ما سبقت الإشارة إليه في الثنائيتين المذكورتين ، فالشيخ يعتمد نفس الأسلوب لتحقيق نفس الأهداف : المناسبة ، و اعتماد السجع و الترصيع مع ملاحظة إضافة جملة ثالثة إلى الجملتين المستعملتين ، و الاهتمام بالتعجب و الاستفهام و النداء و التخصيص . . . لإثارة الانتباه إلى فداحة أخطاء الإنسان و إهماله ، عسى أن يدرك المريد ذلك و يتجنبه ، ولم يخل حديثه كذلك من الإحالة التي يؤتى بها للإقناع و التأثير . ففي قوله : - أي صدْر صدَر عن بابك الكريم فلم يشرح ؟) إحالة إلى الآية (ألم نشرح لك صدرك) (32) . وهي إحالة لها دلالتها ذلك أن التائب المومن يشرح صدره و يرفع وزره كما شرح الله صدر رسوله الكريم . فمن مقاصد الإحالة احداث علاقات و وشائج بين النص المحيل و النص المحال إليه .

<u>4 - الأمل / اليأس</u> : هي الثنائية التي يعيش عليها المومن . مصدر اليأس ما يقترفه من ذنوب و آثام بسبب إهماله للواجبات ، وإقباله على المحرمات و النواهي . و مبعث الأمل إيمانه

(32) سورة الشرح ، آية 1 - 2.

بعفو الخالق و سماحته و كرمه . ويكون الاستغفار و تلاوة مثل هذه الأحزاب سبيلا من سبل تغليب جانب الأمل على اليأس ، و طمأنة نفس المومن ليقلع عن سلوكه السالف و يصلح أحواله ويعبد ربه

ويعكس الحزب هذه المشاعر المتناقضة التي يعيشها التائب بين أمن وخوف،أمل ويأس. . .

- أما الخوف و اليأس فقد عبر عنه برد كل شيء إلى الأقدار ، وهو أسلوب يقتل العزائم و يشجع على التواكل ، وترك السعي والاجتهاد في العمل ، و هذا ما أفادته بعض جمل الحزب (سبقت أقدارك فبطلت الحيل)

ولعل الجملة التالية أكثر وضوحا وصراحة في انقطاع الأمل ، وعدم جدوى العقل : (وجرى مقدارك فلم ينفع الأهل بل العمل) .فما قيمة التوبة والإستغفار لو اقتنع الإنسان بعدم جدوى العمل وبحتمية القضاء والقدر . وتزيدنا الجملة الأخيرة تأكيدا بجبرية الأفعال في نظر السبتي : (تقدمت محبتك لأقوام قبل خلقهم في الأزل) . ويترتب على ذلك :

- لا أمل للإنسان في الخلاص إلا بعفو الخالق وغفرانه مهما كان عمله إذ أن العمل وحده لايكفي .

- ولاسبيل للفوز بهذا الغفران الا بالتوسل . وفي التوسل أمل ورجاء لذلك خصص السبتي آخر حزبه لهذه الغاية ، فتكررت جمل التوسل والتماس التوبة و العفو و حسن الختام :

(قد آتيناك طالبين،	فلا تردنا خائبين ،
وجئناك تائبين ،	فاغفر لنا برضاك آمنين ،
وحضرنا ببابك سائلين،	فلا تجعلنا إلى غيرك مائلين ،
واصلح كل قلب قسا منا	فعسى أن يلين ،
واسلك بنا منهاج المتقين	والبسنا خلع الإيمان واليقين ،
وانقلنا من أهل الشمال	إلى أهل اليمين

وما يسعى التائب إلى الحصول عليه هو : غفران الذنب ، وتصفية الفؤاد و إصلاحه ، سلوك منهج الإيمان واليقين ، وهذا يقود إلى الغاية المعبر عنها في الأخير : أن يكون من أهل اليمين

الفائزين بالجنة .ساق توسله بنفس الأسلوب المتبع من أول الحزب : المناسبة وحسن التنظيم ، والتعادل بين أجزاء الجمل ، والمطابقة بين الألفاظ : أتى / رد . قسا / لان . الشمال / اليمين .

والاهتمام بالسجع الذي يلتزم فيه بعدة حروف (طالبين / خائبين / تائبين /و سائلين / مائلين / ومتقين / يقين) والجناس (خائبين / تائبين / سائلين / مائلين) وكلها وسائل لتركيز الحزب في الذهن واضفاء الموسيقية عليه حتى يكون سهل الترديد ، متناسق المخارج . . . و يضاف إلى هذه الوسائل تمييز هذا الجزء التوسلي بخصائص أخرى :

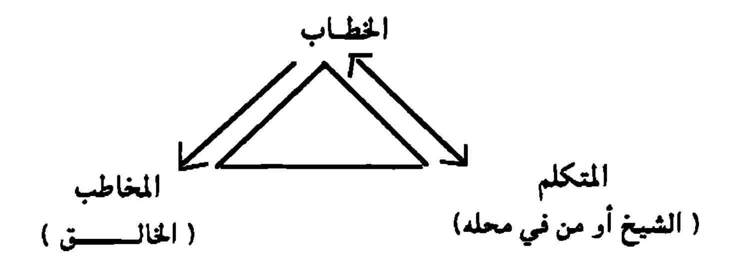
أ)الإكثار من المد المنتهي بحرف النون في كل جمل التوسل : ففي امتداد الصوت تعبير عن استطالة الآهات ، و في تكرار الياء و النون حكاية للأنين .

ب) استعمال ضمير المتكلم لأول مرة في الحزب : ذلك أن الضمير الأكثر تداولا هو ضمير المخاطب (الكاف ، التاء) .ومعروف أن اللغة وسيلة من وسائل التفاهم والتواصل بين المخاطبين ولكي تتم العملية لابد من جهاز ، يتكون من المرسل أو المتكلم أو الباث (ويقوم بعملية التركيب أو صياغة المفاهيم والمتصورات المجردة في نسق كلامي و مرسل إليه أو متقبل أو مخاطب (يقوم بعملية التفكيك) ، والرسالة أو الخطاب (محتوى الإرسال) ، وتستند إلى سياق (contexte) وتقوم على سنن (code) يشترك فيها طرفا الجهاز ، وتربط المتكلم و المخاطب قناة أداة الاتصال أو الصلة (contact) وكل عنصر من هذه العناصر يولد وظيفة في الخطاب تتميز نوعيا عن وظائف العناصر الأخرى : فالمتكلم يولد الوظيفة الانفعاليـــة ، والمخاطب الوظيفة الافهاميـــة، والسياق المرجعية، والسنن يولد الوظيفة المعجمية ، والصلة الوظيفـــة الانتباهيـــة ، والخطـــاب الإنشائيـــة (33) .

هذه النظرية تفترض تفاعلا بين المتكلم والمخاطب ، وهي مسلمة لايمكن تطبيقها على اللغة الدينية عموما ، ولغة الذكر على الخصوص فخطاب الذكر منعكس على قائله مع صاحبه الاتصال بالغيب ، لذلك نجد الوظيفة الانفعالية هي السائدة ، وتعتمد أساسا على توظيف عبارات التعجب، النداء، التأوه... وضمائر المخاطب الذي يعقد المتكلم معه الحوار و إذا علمنا أهمية المخاطب وعظمته

(33) انظر الأسلوب و الأسلوبية لعبد السلام المسدي 172 .

ودوره في الحصول التواصل أي انعكاس مضمون الرسالة على المتكلم ظهر لنا لماذا هذا التركيز والإلحاح على ضمائر المخاطب . فالله هو المحور و إليه النجوى و عنه يصدر العفوعلى ضمائر المخاطب . وعنه يصدر العفو و الرجاء . . . إلا أن الفقرة المخصصة للتوسل في آخر الحزب تحول الخطاب من موضوع يمكن أن يهم كل الناس ليصير خاصا بالمريد التائب الذي لم يكن مستهدفا منذ البداية ، فيوظف سلسلة من ضمائر المتكلم ليوجه الانتباه إلى محل انعكاس خطاب الذكر :



وتصبح اللغة بناء على هذا وسيلة للعلاج لا للتواصل والتبليغ ما دام المتكلم لا يقصد بها أن تنعكس على غيره و تحمل له رسالة ما ، وإنما أن تعود عليه نفسه بالنفع (الطمأنينة ، تصفية الفؤاد علاج علل النفس) أما المخاطب فلا يحتاج إلى رسالتنا ، و هو الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء .

<u>خـاتـمـة</u> : يمكن التمييز بين نوعين من الأحزاب و الأدعية :

<u>- الأول ، يتسم بالتعقيد اللغوي</u> ، وغموض المعنى والإفراط في استعمال المصطلحات والإحالات القرآنية وتكرار أسماء الله وذلك لإعطائها نوعا من الخصوصية والتميز لتبهر المخاطب ، وتخلف لديه الانطباع بوجود " أسرار " لا يستطيع الوصول إليها إلا عدد قليل من الناس . ونجد هذا النوع عند مشايخ التصوف الفلسفي على العموم .

<u>- الثاني ، يناقض الأول إذ يتسم بسهولة اللفظ</u> ووضوح المعنى وجزالته حتى لا يشكل على عموم المريدين (خاصة وأن الأمية كانت متفشية بينهم بشكل واسع) . فإذا فهموه و أدركوا معانيه عن طريق التلاوة والتكرار رقت مشاعرهم ، وصفت قلوبهم ، فيكون تأثرهم به أعمق من مجرد الانبهار ، وبواسطة دوران الحزب على الألسن يتم العلاج والتوبة ، والتهيؤ للمرحلة اللاحقة من

مراحل الذكر . وهذا النوع هو الغالب لدى شيوخ التربية كأبي العباس السبتي . فقد بنى الحزب على الوضوح التام للألفاظ مع الايجاز الشديد . واستعمل عدة أساليب للتأثير و الإقناع و ترسيخ معاني الذكر في ذهن القارئ :

- الإكثار من التقابلات اللفظية و المعنوية .

- تناسب الجمل و حسن نظمها ، من حيث عدد أفعالها وأسمائها وحروفها . والتزام السجع فيها ، و المجانسة بين الألفاظ والحروف ، مما يوحي بقرابة بين معانيها ، ويسهل مخارج حروفها . و تكرار الجمل و الألفاظ المحورية ، وركوب المبالغات لأن العقل البشري يميل إلى الاقتناع بمضامين الصيغ المبالغ فيها أكثر من الاقتناع بالتعبير الحقيقي و المباشر .

- استعمال صيغ الاستفهام ، كيف ، هل ، أين ، من ، أي ، وهي في الغالب لا تحتمل إلا جوابا واحدا : النفي . ولهذا الاستفهام البلاغي قيمة إقناعية قسرية لاتترك للمريد مجالا للشك او الارتياب .

- الاهتمام بإبراز المحاور التي يتكون منها الذكر ، والتي تقوم على أساس التناقض بين حالين :الخالق القوي العظيم ،والمخلوق الضعيف الخطاء المذنب . . . أكثر من الاهتمام بالدعاء والتوسل إذ لم يخصص لذلك إلا جزءا يسيرا من آخر الحزب .

و انعكس هذا على الأفعال المستعملة : فمن ثلاثة عشر و مائة فعل التي يشتمل عليها الحزب لم يرد إلا أحد عشر فعل أمر لإفادة الدعاء و الالتماس و خصصت باقي الأفعال للهدف المذكور. و عن طريق هذا التناقض تنفعل النفس للأوامر و النواهي فتبتعد عن الخلق الديني السيء، وتتصف بالخلق السني الحسن . و هذه هي التوبة النصوح التي تؤهل المريد للترقي في درجة الإرادة . بالتحول من ذكر الاستغفار أو الأحزاب ، إلى ذكر أعلى و هو ذكر التصليات فالتهليل .

المبحث الثانـــــــــي - أذكـار الجزولي

عندما يذكر الجزولي تتبادر إلى الذهن أذكاره و تصلياته و أحزابه الذائعة الصيت . وإن كثرتها و انتشارها يؤكد أن ما انتهينا إليه عند حديثنا عن الكتابة الصوفية لديه ، من ميله إلى الاعتدال و التوفيق بين الشريعة و الحقيقة . اهتمامه بالجوانب التطبيقية للظاهرة الصوفية و التوسل بها - عن طريق الذكر والتصلية - إلى علاج علل النفس و أمراضها .

ولعل أهم أذكاره في هذا الباب ، هي :

1 - دلائل الخيرات و شوارق الأنوار في ذكر الصلاة على النبي المختار "ص"

2 - أحزابه ، و أهمها :

- الحزب الصغير أو حزب الفلاح .

- الحزب الكبير أو حزب الشيخ (سبحان الدايم) .يمثل دلائل الخيرات ما سميناه من قبل ذكر التصلية ، ويكون الهدف منه ترسيخ تعظيم الرسول في النفس وتثبيت محبته . في حين يجمع الحزبان بين ذكر الإستغفار والتصلية ، والتهليل والتنزيه و الاسم المفرد . وهو النموذج الصالح لطبقة خاصة من المريدين .

وسنفصل الحديث عن هذا في مطلبين .

المطلب الاول - دلائل الخيرات

تتفق المصادر على أن الجزولي قد ألف كتابه دلائل الخيرات بفاس من كتب جامع القرويين (34) . إلا أنها لا تميز في الغالب بين رحلتيه إلى فاس :

- الأولى،وهي رحلته العلمية، وكان يعيش خلالها في شبه عزلة بمدرسة الصفارين – و الثانية ، إذ عاد إليها بعد مقام بالمشرق دام زهاء سبع سنوات ، كان يبحث خلالها على شيخ مرب .

وفي حالة الترقب والبحث هاته ، قبل أن يرشده الإمام زروق إلى الشيخ ، اشتغل الجزولي بوضوع التصليات ، وألف هذا الكتاب . وسنبرز بعض آثار الحيرة وعدم الإستقرار التي كان عليهما الشيخ عند دراستنا لأذكار الكتاب .

ولايمكن تحديد تاريخ التأليف لأن الوثائق لاتسعفنا بذلك وإن كنا متأكدين من أن ذلك قد تم في فترة شباب الجزولي وقبل أن يشتهر أمره في الطريقة ، و ككل عمل قيم جليل حكيت حول " دلائل الخيرات قصص أسطورية حول سبب تأليفه ، وكرامات قراءته أو حمله . . . فقد ردوا سبب التأليف إلى واقعة بسيطة بطلتها صبية (أوامرأة) تتمكن من إخراج الماء من عمق البئر إلى سطحه بكثرة الصلاة على الرسول (35) في الوقت الذي لم يجد فيه الجزولي سبيلا للحصول على ماء يتوضأ به.ومما يدل على خرافية الحكاية أن مثيلة لها رويت من قبل منسوبة لأبي مدين خلال إقامته بفاس (36) .كما أنها لم ترد مسطرة مع ماتذكره بعض المصادر من فضائل الصلاة على النبي وثمراتها ، وإن اعتمدت في ذلك على كثير من الأحاديث الضعيفة . (37) .

---

(34) الرياحين الوردية 41 ، إظهار الكمال 238 ، وتحفة الكرام في بعض مناقب غوث الانام 7 أم · خ · ع · ر . 925 د .

(35) إظهار الكمال 238 ، ميزاب الرحمات 341 ، و السعادة الأبدية 29/2

(36) - Sidi Boumdian et son maitre Eddaqaq . A . Bel Melanges R Basset . T . I . 31 - 68 . Paris 1923 .

(37) - بلغت هذه الثمرات أزيد من 50 ، انظر تحفة الأخيار للرصاع ، وأفضل الصلوات للنبهاني، وميزاب الرحمات لابن المؤقت .

وأغرب ما روي عن ملابسات التأليف قول بعض المؤرخين المتأخرين أن قاضي الجن "شمهروش" قد أعان الجزولي على تأليف الكتاب (38) .هذه الآراء تؤكد نظرة المؤلفين والمؤرخين السابقين والمتأخرين إلى دلائل الخيرات ، واعتباره مؤلفا عظيم الأهمية ، جليل القدر والفائدة ،يصعب على الإنس تأليفه وحده .وستترتب على ذلك نتائج أخرى و هي ثمرات و فضائل قراءته او حمله في السلم و الحرب ،إلى غير ذلك مما سيكون له تأثير كبير على عدة أجيال في مشارق الأرض ومغاربها ، وهذا حافز آخر يشجعنا على الوقوف وقفة خاصة عند صيغ التصليات و ألفاظها و حروفها . . .

واعتبارا لهذه الأهمية انتشرت نسخ الكتاب . فلا يكاد يخلومنه بيت في الحواضر والبوادي ، كما تحوي الخزانات العامة النسخ العديدة منه ، تختلف حجما وخطا وزخرفة ، منها مايعتبر من التحف الفنية النادرة (39)، كما تعددت طبعاته على الحجر و الحروف في المشرق والمغرب وأوروبا (40)

وتسابق العلماء والفقهاء والصوفية الى شرحه والتعليق عليه او السير على منوال تصلياته (41) .

وأهم نسخ دلائل الخيرات واصحها هي " النسخة السهلية " كتبها كبير تلاميذ المؤلف محمد الصغير السهيلي (42) وصححها الجزولي قبل وفاته بثمان سنوات(43) .

وكانت للسهلي نسختان عليهما خط المؤلف . الأولى وقع الفراغ من كتابتها في اليوم السادس من ربيع النبوي سنة اثنثين وستين وثمانمائة ، وتوجد بخزانة ابن يوسف بمراكش (44) .

---

(38) السعادة الابدية 32/2 .

(39) من هذه النماذج نسخة خ . ع . ر . رقم 120 ج .

(40) طبع بسترازبورغ سنة 1842 . وفي استانبوال ست طبعات بين 1264 و1314 هـ وفي دلهي عدة مرات بين 12881 و 1311 هـ . وفي القاهرة مرات عديدة بين 1256 و 1323 هـ . وفي فاس على الحجر بدون تاريخ .

(41) ستتاح لنا فرصة تناول هذا الموضوع في الباب الثالث .

(42) تحدثنا عن الصغير السهلي و طريقته في الفصل الثاني من الباب الاول

(43) النور الشامل 9 – 10 . و إظهار الكمال 277 ، وكشف الظنون 705/1 .

(44) رقم 377.

والثانية مؤرخة في عام ثمان و ستين وثمانمائة للهجرة وهي ضائعة .

وسنعتمد في دراستنا على النسخة الخطية المحفوظة بالخزانة المذكورة ، وطبعة عبد المجيد الشرنوبي المقابلة عليها (45) .

و يشتمل دلائل الخيرات على : مدخل و ثلاثة فصول .

- المـــــدخـــــل -

حدد فيه الغرض من تأليف الكتاب(فالغرض في هذا الكتاب ذكر الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وفضائلها ، نذكرها محذوفة الأسانيد ليسهل حفظها على القارئ وهي من أهم المهمات لمن يريد القرب من رب الأرباب . وسميته بكتاب " دلائل الخيرات و" شوارق الأنوار في ذكر الصلاة على النبي المختار " ابتغاء لمرضاة الله تعالى ومحبة رسوله الكريم) (46) . وهكذا فإن الجزولي :

أ) يعتبر الصلاة على النبي وسيلة من وسائل القرب من الخالق وابتغاء مرضاته ومحبة رسوله .

ب) أن ما قد أخذ عليه لم يكن سهوا ، وإنما قصدهُ قصدا ، أي تجريد التصليات من أسانيدها تسهيلا لحفظها .وهذه الملاحظة الأخيرة إذا أضيفت إلى ماذكر من تأليفه للكتاب من كتب خزانة القرويين تبين أن أغلب التصليات لم تكن من إنشاء الجزولي وإنما جمعها من كتب الحديث والأذكار والدعوات

- الفصل الأول - في فضل الصلاة على النبي:

عرض فيه المؤلف ثلاثة وثلاثين حديثا نبويا في فضل الصلاة على النبي والتحريض عليها ، والتنديد بالغافل والمعرض عنها . وخلافا لما سار عليه في التصليات اهتم الجزولي بأسانيد كثير من هذه الأحاديث .

---

(45) طبعت بمصر سنة 1322 ، و بهامشها شرح لغوي للكتاب " مناهج السعادات " .

(46) مقدمة الكتاب .

وتدور معانيها حول المحاور التالية :

أ) جزاء المصلي على الرسول : استمدّ الجزولي بعض مقاصده ، من تأليف الكتاب من هذه الأحاديث التي تفيد صراحة جزاء المصلي على الرسول والذي يتراوح بين عشر حسنات ، ودخول الجنة .

ويمكن تصنيف هذا الجزاء على الشكل التالي :

الشـــــرط	الجـــــزاء
- من صلى على الرسول مرة - من صلى على الرسول مرة - من صلى على الرسول عشر مرات - من صلى على الرسول مائة مرة - من صلى عليه يوم الجمعة مائة مرة	- صلى عيله عشر مرات - كتبت له عشر حسنات ومحيت عنه عشر سيئات - صلى عليه مائة مرة - صلى الله عليه ألف مرة و أدخله الجنة - غفرت له خطايا ثمانين سنة .
- من صلى عليه يوم الجمعة مرة - من صلى على الرسول عند الأذان - من صلى عليه	- جاء يوم القيامة و عليه نور - حلت له شفاعته . - قضيت حاجته / غفرت ذنوبه - لا يكون من أهل النار /فتحت له أبواب السماء .
- أكثر الناس صلاة على الرسول	- هم أولى الناس به - أكثرهم أزواجا في الجنة . - أكثرهم ورودا على الحوض .
- من صلى على الرسول - من صلى عليه في كتاب - لا يصلي أحد على الرسول	- صلت عليه الملائكة . - صلت عليه الملائكة ما دامت التصلية في الكتاب . - إلا صلى عليه سبعون ألف ملك . - وكان من أهل الجنة .

جزاء المصلي على الرسول

ب) عقاب الغافل عن الصلاة عليه : هو عكس مايكتسبه المصلي على الرسول ، أي النسيان و الإبتعاد عن الله و رحمته .

الشـــرط	العقاب او الوصف
- من لا يصلي على الرسول	- هو البخيل الحقيقي
- من نسي الصلاة على الرسول	- أخطأطريق الجنة .

عقــاب الغافـل عن الصــلاة

ج) ربط الإيمان الحقيقي بالصلاة على الرسول ومحبته أكثر من محبة الإنسان لنفسه وأهله

د) وصف مجلس الذكر و ما يغشاه بفضل الصلوات المترددة فيه من روائح المسك التي تبلغ عنان السماء .

ويعقد الجزولي هذا الفصل التمهيدي قبل الشروع في صيغ الصلوات لتبرير جمعه لها ، وتشجيع الناس على الإقبال على تلاوتها لما في ذلك من فضل كبير ، وخير عميم . و الملاحظ :

1) اعتمد المؤلف على عياض الذي سبق إلى جمع هذه الأحاديث في كتابه الشفا في حكم الصلاة على النبي ، و فضيلة الصلاة عليه ، وفي ذم من لم يصل عليه (47) و أورد فيها أغلب الأحاديث المعتمدة عند الجزولي .

2) أصبح عمل الجزولي في هذا الباب تقليدا متبعا في كتب التصليات التي كتبت بعده، إذ صار من اللازم أن يتناول المؤلف فضائل الصلاة عليه قبل الشروع فيها (48) .

3) و تعنى بعض هـذه المؤلفـات بتعداد فضائل الصلاة أو ثمراتها اعتمادا على هذه الأحاديث بالأساس و على غيرها . فتصل إلى خمسين فضيلة أو ثمرة .وكثيرا ما يتم تجاوز مضامين الأحاديـث ويضيـف إليها المؤلف من إنشائـه واجتهـاده كما عـند الرصـاع ، والنبهانـي

---

(47) 2 / 60 - 78 .

(48) سنتناول ذلك بتفصيل في الكتاب الثالث .

وابـن المؤقت مثـلا (49) .

4) وتهتم بأحكام الصلاة على النبي حسب المذاهب الأربعة و معانيها و مقاصدها والفروق بينها و بين قراءة القرآن ، و دورها في تحقيق الغايات واستدرار الفضل مع الحث على أن يكون الدافع الأول إليها محبته والتشوق إليه .

5) ترتب عن الإهتمام بفضائل الصلاة على النبي عموما اهتمام بفضائل صلوات بعينها مما سيخلق مع الأعوام - وغزارة المؤلفات في هذاالباب -أدبا خاصا يتميز بالطرافة. . .إذ ستحدد للتصليات قيم جزائية تقل أوتكثر بحسب أهمية التصلية وواضعها وظروف وضعها وشهادات قرائهاإلا أن بعض القيم تفوق التصور (50) .

6) ولا يعني ذكر هذه القيم أننا نومن بها أو ننساق وراءها . ولكن القصد من ذلك التأثير الذي ستخلفه على أدب التصليات من جهة ، إذ أن الجزولي نفسه لم ينج منه ، فأغلب تصلياته - كما سنرى - مركز حول " معاني العدد " لما له من أهمية في مضاعفة الجزاء و الفضل . وسيقع في نفس المزلق كثير من مصنفي الأذكار .

ومن جهة أخرى المخاطر المترتبة عن تسطير هذه الفضائل والثمرات على مستوى سلوك فئات المجتمع على العموم . فقد تم إهمال الكتاب و السنة وتدارسهما ، والإقبال على كتب

---

(49) انظر فصول فضائل الصلوات عندهم على التوالي في : تحفة الأخيار 2 ظ 10 و ، و أفضل الصلوات 18 - 56 ، و ميزاب الرحمات 21 - 50 و 87 - 124 .

(50) من التصليات ما يعدل قراءته عشرة آلاف صلاة ، و أربعة عشر ألف أو خمسة عشر ألف (ميزاب الرحمات 108 - 115 - 117 .) و منها ما يعدل مائة ألف صلاة ، كصلاة شمهروش ، وصلاة النور الذاتي للشاذلي (ميزاب الرحمات 77 - 87) و خمسمائة صلاة كالصلاة الكمالية (ميزاب 124) وستمائة ألف صلاة كصلاة السعادة (ميزاب 113) و مليون صلاة ! (ميزاب الرحمات 186) . و أغلاها جميعا صلاة أحمد البدوي التي توازي ثلاثا وثلاثين سلكة من دلائل الخيرات (ميزاب الرحمات 131 - 132).

التصليات والأذكار ، حتى أنه ليصعب حصر عددها و التعرف إلى هوية مؤلفيها . وهذا ما يفسر كون كثير من قراء هذه الكتب - و خاصة دلائل الخيرات - من العوام .

الفصل الثاني - في أسماء الرسول ، وصفة الروضة الشريفة :

استعرض فيه الجزولي مائتي إسم وإسم واحد . بعضها مما شرف به تعالى رسوله بما سماه به من أسمائه الحسنى ، ووصفه به من صفاته العليا (51) .منها ما هو مفرد مثل : محمد ، أحمد ، ماحي ، حاشر . . . أو مركب مثل : عروة وثقي ، صراط مستقيم ، نجم ثاقب .وما هو مضاف مثل ، عبد الله ، نبي الرحمة ، هدية الله ، دليل الخيرات .

وتبدأ بعض النسخ المخطوطة و الطبعات غير الموثوقة من الكتاب بأسماء الله الحسنى . إلا أن النسخة السهلية (المخطوطة) و النسخة المطبوعة المقابلة عليها لم تذكرها .

و الشق الثاني من هذا الفصل رسم فيه الجزولي صفة الروضة الشريفة : قبور الرسول ، وأبي بكر و عمر مع ذكر حديث عائشة عن الأقمار الثلاثة التي رأت أنها سقطت في حجرتها . واهتم نساخ دلائل الخيرات برسم الروضة الشريفة أيما اهتمام ورصدوا لذلك من المثلثات و المربعات والمكعبات والأصباغ ما جعل بعض النسخ عبارة عن تحف فنية رائعة (52) .

الفصل الثالث - في كيفية الصلاة على النبي :

هوالغرض من التأليف ، و آخر فصول الكتاب و أهمها . أورد فيه الجزولي سبعا و ثلاثين وأربعمائة تصلية ، مقسمة إلى سبعة أحزاب على عدد أيام الأسبوع ، إبتداء من يوم الإثنين ، وانتهاء بيوم الأحد .مع اختلاف عدد تصليات كل حزب . وتسهيلا لحفظ الكتاب يقسمه المؤلف إلى أربعة أرباع، وثلاثة أثلاث .

و في البدء " بيوم الإثنين تبرك بهذا اليوم الذي شهد ميلاد الرسول موضوع الكتاب ، وبالرغم من كثرة تصليات يوم الثلاثاء ، فإن أهم التصليات هي الواردة يوم الجمعة ، اليوم الذي حثت

---

(51) عقد عياض فصلا لهذا الموضوع في كتابه الشفا 1/235-246 .

(52) انظر النسخ المنوه بها سابقا ، و خاصة النسخة 120 ج م . خ . ع . ر .

فيهالأحاديث المريد على ذكر النبي والصلاة عليه ، ذلك أن تصليات الثلاثاء المذكورة قصيرة ومركزة على أسماء الرسول ، و لا تتجاوز في أغلبها أربع كلمات :

صيغة الدعاء - فعل الصلاة - اسم الرسول مفردا أو مضافا أو مركبا .وسيتضح الأمر أكثر عند تناول محاور التصليات .

الحزب	اليوم	عدد التصليات	صفحات الطبعة السهلية
الاول	الاثنين	50	من 22 الى 36
الثاني	الثلاثاء	138	من 36 الى 48
الثالث	الاربعاء	44	من 49 الى 62
الرابع	الخميس	45	من 62 الى 75
الخامس	الجمعة	57	من 75 الى 92
السادس	السبت	43	من 92 الى 110
السابع	الاحد	50	من 111 الى 131 .
المجمـــوع		437	

توزيع التصليات بحسب الأحزاب و الأيام .

أ - محـــاور التصليات و مصــادرها :

إن الإنطباع الأولي الذي يخرج به قارئ دلائل الخيرات أو المنصت إلى منشديه ، أن صلواته متشابهة مكررة ، ولكن القراءة المتمعنةللكتاب تبين تنوعها وإمكانية تصنيفها إلى عدة محاور وموضوعات :

أ - الصلاة الإبراهيمية و الصيغ القريبة منها :اتفق الصحابة ومن أتى بعدهم من العلماء و الصوفية ، ان صيغ الصلاة و الدعاء المعبر عنها بألفاظ فصيحة مقبولة قطعا مع حث الكتاب على الاحتفاء بألفاظها ومعانيها . فعن ابن مسعود أنه قال "(احسنوا الصلاة على نبيكم فإنكم لا تدرون لعل ذلك يعرض عليه) .وتبقى الصيغ المأثورة عن الرسول " ص " أفضل من غيرها بطبيعة الحال،

كما أن صيغ صلوات الصحابة و كبار الأئمة والاولياء تقدم على غيرها كذلك(53) .

لذلك نلاحظ أن الحديث النبوي و مصنفاته كانت أهم المصادر التي اعتمدها الجزولي في جمع صلواته من كتب جامع القرويين . كما أن الصيغة الواحدة المشهورة قد تكون محور و أساس عدد أكبر من الصلوات والأدعية قريبة منها مبنى ومعنى أما بزيادة ألفاظ أو نقصها ، تقديمها أو تأخيرها

وتعتبر الصلاة الإبراهيمية (54) من الصلوات التي صدرت عن الرسول بصيغ كثيرة (55) . وهي أكمل الصلوات و أفضلها :

- لثبوتها في كتب الصحاح و غيرها .

- لأنها جزء من التشهد الذي يردد في كل صلاة .

- فيها اعتراف بفضل إبراهيم وبرور به .

- ما رواه البخاري عن فضائلها و ثمراتها .لذلك جعلها الجزولي محورا لتسع و خمسين صيغة من صلوات كتابه . يمكن تقسيمها الى قسمين :

- الأول : خاص بالصلاة على النبي .

- الثاني : يضيف إلى الصلاة التبريك أو الترحم أو السلام .

ومن صيغ القسم الأول ما لا يتعدى ألفاظ :

---

(53) أفضل الصلوات 58 ، و ميزاب الرحمات 277 – 280 .

(54) نصها : اللهم صل على محمد و على آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل ابراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم و على آل ابراهيم في العالمين إنك حميد مجيد .

(55) وردت صيغ كثيرة منها في عمل اليوم و الليلة من الرقم 47 إلى 54 . و159 – 162 ، ومن 359 – 361 و 295 – 296 ، تحقيق فاروق حمادة . وكذا في الشفا ، وتحفة الأخيار للرصاع ، وأفضل الصلوات للنبهاني .

- الدعاء/ فعل الصلاة /اسم الرسول(56) .

- أو تضاف بعض الأوصاف، عبدك / رسولك / الأمي /النبي(57).

- ويضيف إلى أخرى الصلاة على آله وصحبه ، أوذريته وأزواجه وآل بيته .أما باستعمال حروف العطف ، أو تكرارالفعل (58) . ويطرح هذا القسم إشكاليتين لابد من إثارتهما :

- الأولى : إرفاق لفظ السيادة باسمه " ص" فهي مسألة أثارت - ومازالت تثير جدلا بين العلماء - ، فانقسموا إلى فئتين لكل واحدة رأيها المخالف. فالقائلون بتجريد اسمه من لفظ السيادة اعتمدوا على أحاديث صحيحة نهى فيها الرسول عن ذلك ، مجيبا مخاطبيه بأن السيد هو الله وأنه محمد عبده ورسوله ولايجب أن يرفع " ص" فوق المنزلة التي أنزله الله (59) هذا بالإضافة إلى أنه " ص" لم يتلفظ بلفظ السيادة عندما كان يعلم الناس كيفية الصلاة عليه ، ويلقنهم الصلاة الإبراهيمية .

- أما الذين يجيزون استعمال لفظ السيادة فيحتجون بقوله تعالى (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا) (60) . ويعتبرون نهيه عن استعمال اللفظ من باب تواضعه " ص" أما نحن فيجب علينا تعظيمه وتوقيره (61) .

وانعكس هذا الاختلاف في الرأي على نسخ دلائل الخيرات . فالنسخة السهلية ورد فيها لفظ السيادة " سيدنا " (مائة و ثمان مرات) في حين ورد في النسخ الأخرى المخطوطة والمطبوعة

---

(56) اللهم صل على سيدنا محمد) الصلاة العاشرة عند النبهاني علق عليها بأنها أفضل الصلوات عليه ألفاظا ص 63 من كتابه أفضل الصلوات .

(57) بعضها مروي عن أبي سعيد الخدري كما في الشفا 2 / 69 .

(58) اطنبت كتب التصليات عن هذه الثمرات:الشفا 2 / 72 ، وأفضل الصلوات 63 - 67 - 81

(59) عمل اليوم و الليلة ، أحاديث 245 إلى 250 ص 248 - 250 .

(60) سورة النور ، آية 63 .

(61) أورد النبهاني آراء القائلين بوجوب استعمال لفظ السيادة 56 - 57 انظر كذلك ميزاب الرحمات 303 - 305 .

حوالي (ستمائة مرة) . وبذلك تبين أن الجزولي قد وقف موقفا وسطا :

- أثبت الصلوات المروية عن الرسول بلفظها ، أي دون ذكر لفظ السيادة .

- و ذكر لفظ السيادة في الصلوات التي وضعها أو نقلها عن غيره من العلماء .

- و الإشكالية الثانية : التمييز بين الصلاة على الرسول مفردا ، وبين ذكر آله و أصحابه فقد ذهب الكثيرون إلى وجوب الجمع بين الصلاة عليه وعلى آله اعتمادا على الأحاديث الواردة عن الرسول في الموضوع (62) ، فتارك الصلاة على الآل تارك لفضيلة عظيمة .

أما الصلاة على الأصحاب فلم ترد في الأحاديث، و قد وقع الاتفاق على استحسانها بالقياس على الآل (63) . وانعكست هذه الإشكالية كذلك على صيغ صلوات الجزولي إذ ورد أغلبها بلفظ محمد أو النبي أو الأمي . واقترنت أخرى بلفظ الآل و الذرية و الأهل ، في حين قلت الصيغ التي أثبت فيها لفظ الصحب كما يظهر لنا من خلال هذا الجدول الإحصائي :

---

(62) عمل اليوم و الليلةحديث 59 ص 164 ، و وردت في الكتب الصحاح كذلك .

(63) ناقش ابن المؤقت الموضوع في ميزاب الرحمات كذلك 302 – 303 .

الموضوع	اللفظة وترددها	حزب الاثنين	حزب الثلاثاء	حزب الاربعاء	حزب الخميس	حزب الجمعة	حزب السبت	حزب الاحد	مجموع
الاسماء	محمد	88	72	58	56	98	53	48	473
	النبي	14	3	10	30	8	6	15	86
	الرسول	14	1	12	14	4	5	9	59
	الامي	1	2	2	6				11
+ الاهل	آله	37	12	20	22	26	35	34	186
	ذريته	5		2	1			3	11
	أهل بيته	4	1	1	3		1		10
+ الاصحاب	أصحابه	2	2	8	2	1		4	19
	قرب/مقربون	1	1	2	6	2	2	3	17

محور الصلاة الابراهيمية (القسم الاول) .

أما صيغ القسم الثاني (من محور الصلاة الإبراهيمية) فذات أشكال متنوعة :

أ) فعل الصلاة على محمد . . . / فعل الصلاة على إبراهيم . . . مجردا عن الأوصاف و النعوث أو مرفقا بها . و تختم كعبارات التشهد بالدعاء :"إنك حميد مجيد " . و بذلك تتوسع الدائرة من الصلاة على النبي أهله وذريته إلى الأجداد .و قد استمدت هذه الصلوات اسمها من ابراهيم باني البيت ، نبي الله و خليله (و اتخذ الله إبراهيم خليلا) (64) .

ب) فعل بارك + محمد / فعل بارك + إبراهيم .مختوم بالدعاء " إنك حميد مجيد " .

ج) وتجتمع الصورتان معا في بعض صيغ هذه الصلاة ، فتصبح كل واحدة منهما شطرا

(64) سورة النساء ، آية 125 .

من صيغة واحدة :فعل صلى + محمد + إبراهيم/ فعل بارك + محمد + ابراهيم فتكتمل بذلك صيغة الصلاة الإبراهيمية التي هي المحور الأساس الذي تدور حوله هذه الصيغ جميعها و التي تكون صيغة التشهد بحسب اختلاف الرواية من راو الى آخر كما سنرى .

د) فعل سلم + محمد / فعل سلم + إبراهيم .و السلام هو التحية كما قال تعالى (تحيتهم فيها سلام) (65) .

هـ) الجمع بين الصورتين في صيغة واحدة وهي :فعلا صلى وسلم + محمد / فعلا صلى وسلم + إبراهيم .و قد ناقش العلماء هذا الجمع وأجاز بعضهم أفراد صورة عن الأخرى بدليل أن تعليم التسليم سابق على تعليم الصلاة ، في حين نص آخرون على ضرورة الجمع والاقتران لورود آيات بهما ، وهذا رأي الإمام النووي و الجمهور (66) . وحاولوا الكشف عن سر تقديم عبارة الصلاة على عبارة السلام كما في القرآن الكريم ، فقالوا :

- لأن الصلاة خاصة بالأنبياء ولاتكون لغيرهم إلا تبعا ، بخلاف السلام

- لأن السلام من الله تعالى زيادة تكرمة و انعام على التكرمة .

- فلو ابتدأ بالتحية المشتركة لم يحصل التمييز فقدمت التحية الخاصة (الصلاة) على المشتركة (السلام) (67) وفي صلوات الجزولي يراعي هذا التقديم مع الجمع .وقد دعا العلماء إلى إضافة صيغة التوكيد (تسليما) :

- اقتداء بالقرآن الكريم .

- تمييزا لها عن سلام العامة (68) . وقد ورد هذا التوكيد في بعض صلوات الجزولي :

---

(65) سورة يونس ، آية 10 ، خصص عياض فصلا في جزاء من سلم على الرسول الشفا 79/2 - 80 .

(66) ميزاب الرحمات 283 .

(67) ميزاب الرحمات 285 .

(68) ميزاب الرحمات 286 - 287 .

و) فعل ترحم أو تحنن + محمد/ فعل ترحم أو تحنن + إبراهيم

ز) جمع أفعال الصلاة و المباركة والسلام . . . في صيغة واحدة ، مقترنة ومنفصلة عن بعضها وتتجلى أهمية هذه التراكيب من خلال إحصاء الوحدات المتكررة فيها :

الكلمة	حزب الاثنين	حزب الثلاثاء	حزب الاربعاء	حزب الخميس	حزب الجمعة	حزب السبت	حزب الاحد	مجموع
محمد	88	72	58	56	98	53	48	473
ابراهيم	28	9	7	5	1	6	4	60
صل / صلاة	69	161	96	53	84	88	77	628
سلم	13	5	31	19	33	37	9	147
بارك	21	6	10	9	1	6	6	59
ترحم / ارحم	12	5	4	17	5	5	5	51
تحنن	3							3
العالمين	2	3	7	5	5	2	4	28
حميد	14	7	5	4	2	5	2	39
مجيد	14	5	4	3	2	3	2	33

محور الصلاة الابراهيمية (القسم الثاني)

وتعود هذه الفروق في استعمال الصيغة الإبراهيمية إلى توارد ها على لسان الرسول " ص" متنوعة الصيغة من جهة ، وإلى وضع بعض الصحابة وكبار الصوفية والأولياء صيغا مستمدة منها تداولها مريدوهم وتلامذتهم وحافظوا عليها- فصيغ الصلاة على محمد من مرويات ابي سعيد الخدري(69) .

(69) الشفا 2/69 ، و أفضل الصلوات 6 - 63 - 66 - 67.

- والصيغ التي اضيفت اليها الذرية والأهل . . . من تصليات أبي الحسن البصري ، و بعضها قريب من روايات الساعدي (70) .

- وصيغ الصلاة على محمد وإبراهيم من رواية مالك عن ابي مسعود الأنصاري.

- وصيغ المباركة من روايات علي بن أبي طالب ، و زيد بن خارجة الأنصاري

- أما روايات الجمع بين الصلاة و المباركة فعديدة يطول حصرها ، وهي واردة في أغلب الكتب الصحاح ، منها روايات أبي هريرة وعقبة بن عمرو ، وأبي مسعود الأنصاري ، وعبد الرحمن بن بشر وغيرهم (71) .

- والصلوات المركزة على أفعال الصلاة و السلام والترحم . . . رويت عن أبي بكر محمد بن جبر ، عن أنس بن مالك ، وأخرى عن جبر بن عمر(72) .فمصادرصلوات الجزولي في هذا المحور الأول هي كتب الحديث على وجه العموم .ولم يكن له من فضل سوى جمعها في كتاب .

2 - أدعيـــــة نبويـــــة :

وردت بعض صلوات دلائل الخيرات في شكل أدعية نبوية ذات صيغ مختلفة مركزة أساسا على بعض آيات القران ونصوص الحديث ، و قد بلغ مجموع صلوات هذا المحور ثمانية و أربعين :

أ) طلب الوسيلة و الفضيلة : دعا الله المومنين إلى ابتغاء الوسيلة إليه في قوله (ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله و ابتغوا إليه الوسيلة) (73) . وعند المفسرين أنها كل ما يقرب إليه من واجبات ومستحبات .

---

(70) الشفا 72/2 ، و أفضل الصلوات 67 – 68 – 73 .

(71) عمل اليوم و الليلة للنسائي 159 – 162 ، و الشفا 70/2، و أفضل الصلوات 58 – 59 – 60 – 115

(72) أفضل الصلوات 60 - 65 – 70 - 71 .

(73) سورة المائدة ، آية 35 .

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر عن النبي " ص" أنه قال (إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا علي فإنه من صلى علي مرة صلى الله عليه عشرا ، ثم سلوا لي الوسيلة ، فإنها درجة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله ، و أرجو أن أكون أنا ذلك العبد ، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه شفاعتي يوم القيامة) (74) .وفي صحيح البخاري عن جابر عن النبي " ص" أنه قال: (من قال حين سماع الآذان، اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمد الوسيلة والفضيلة ، والدرجة الرفيعة ، وابعثه المقام المحمود الذي وعدته ، إنك لا تخلف الميعاد حلت له شفاعتي يوم القيامة) (75) .واستجاب الجزولي لمقتضيات الآية و الحديثين فجعل مضامينهما أساس صلواته خلال أيام الأسبوع سواء في وقت الآذان أو في غيره . وراعي معانيهما وألفاظهما ، فجاءت الصيغ في شكلين مختلفين :

- الصلاة على محمد + إلتماس الوسيلة والفضيلة .وتختلف صيغها طولا وقصرا بإضافة بعض الاوصاف والنعوت او تركها ، ويستعمل فعل " اعطى " في هذا الشكل الأول :

- التماس الوسيلة والفضيلة والمقام المحمود دون اعتماد صيغ الصلاة و ذلك سيرا على منوال الحديث الثاني :آت محمد / ابعثه . . . ووظف أفعالا لها دلالات مماثلة : آت / بلغ / ابلغ / ابعث . . . تضاف إليها مجموعة من الأوصاف والنعوت .ومصدر هذه الصلوات هو الحديث كما هو واضح من هذه المقارنة وقد ذكرها صاحب الأحياء ورغب في قراءتها (76) .

ب) تعظيمه "ص" : ومن مقاصد الصلوات تعظيم الرسول صلى الله عليه و سلم و تكريمه و الدعوة إلى احترامه و التوسل به ، لذلك انصبت بعض تصليات الجزولي على هذا المحور متناولة الموضوعات التالية :

---

(74) عمل اليوم والليلة للنسائي ، حديث 45 ، ص 158 ، مروي في صحيح البخاري وصحيح مسلم . انظر كذلك كتاب الأذكار للنووي ص 30 ، قال الغزالي في الاحياء : حديث متفق عليه عن ابي سعيد الخدري 1 / 130

(75) الأذكار للنووي ص 30 ، من أحاديث صحيح البخاري ، انظرالتوسل لابن تيمية 43 - 48 .

(76) احياء علوم الدين 1/130 ، ط . عثمانية مصر 1933 .

- تعظيم شأنه و برهانه .

- ابلاج حجته و تبيين فضيلته .

- رفع درجته و إكرام مقامه .

- تقديمه على كل العباد في الأولين و الآخرين .جاءت بعضها مسبوقة بصيغة الدعاء والصلاة ، في حين اقتصر في البعض الآخر على صيغة الدعاء وورد أغلبها في كتاب الشفا (77) ، وفي أفضل الصلوات (78) .

ج) أدعية الترضية و الرحمة : تتركز الأولى على الدعاء الذي علمه الرسول لأم المومنين جويرية بنت الحارث والوارد في صحيح مسلم وفي كتب الصلوات على العموم وهو(اللهم صل على محمد ...عدد خلقك ورضا نفسك وزنة عرشك ،ومداد كلماتك)(79) وكعادته يستمد منه الجزولي عدة صلوات : يخصص بعضها " لزنة عرشك "وبعضها " لرضا نفسك " ويؤكد تعلقه بالصلاة التي ترضى الله ورسوله و يرضيان بها عن المردد لها .وتسمى بعضها صلوات " نور القيامة "(80) . وركز الثانية على عنصر " الرحمة " التي ينالها كل من صلى عليه ، وهو ما سمته كتب الصلوات

---

(77) كتصلية (اللهم اجعل فضائل صلواتك . . .) مروية عن سلامة الكندي 70/2 - 71 ، وتصلية (اللهم داح المدحوات) التي كان يعلمها للناس ، الشفا 71/2. و تصلية (اللهم افسح له في عدنك) رواها سلامة الكندي عن علي ، الشفا 70/2 . و تصلية (اللهم تقبل شفاعة سيدنا محمد) مروية عن طاوس عن ابن عباس 72/2 .

(78) (اللهم عظم برهانه . . .) ص 72 . سماها بالصلاة المأثورة و أخرجها ابن ابي عاصم في كتاب الصلاة ، و هي من أذكار الغزالي . و تصلية (اللهم اجعل فضائل صلواتك) ص 72 . وتصلية (اللهم ابح المدحوات . . .) ص 69 - 72 .

(79) أفضل الصلوات 74

(80) و هي التي تبدأ بقوله (اللهم صل علي سيدنا محمد و على آله بحر أنوارك . . .) سميت بذلك لكثرة ما يحصل لذاكرها بذلك اليوم من النور . انظر عمل اليوم و الليلة ، حديث 161 الى 164 . و أفضل الصلوات 78 ، و ميزاب الرحمات 116 .

بثمرات الأدعية . وبعضها من أدعية الصحابة و العلماء (81) .ويمكن تبين أهمية محور " الأدعية النبوية " من خلال المعجم المكون لصلواتها و مدى تردد ألفاظه وتكررها بحسب الأيام .

موضوعات المحور	اللفظة	حزب الاثنين	حزب الثلاثاء	حزب الاربعاء	حزب الخميس	حزب الجمعة	حزب السبت	حزب الاحد	مجموع
(أ) طلب الوسيلة	اعط / آت	3		5	5	5	2	2	22
	ابعث	1		3	2	1	1	3	11
	بلغ / ابلغ	1	2	4	4	1		3	15
	اجز / جزاء	3	1	5	9	2	2	3	25
	الوسيلة / الفضيلة	8	2	12	15	4	6	12	59
	الدرجةالرفيعة	3		2	8		3	2	19
	المنزلة		1	3	6		2	2	14
	المقام المحمود	1		3	5	2	2	3	16
	وعد/وعدت			1	1	1	2	5	10
(ب) تعظيمه (ص)	ابلج				2	2			4
	الحجة	1	1		2	2		1	7
	شرف /تشريف			4	2	2			8
	بنيان					2			2
	بيّن / تبيين	1		1	1	2			5
	رفع / ارفع	1		2			1		4
	احشر/ حشر				1	1	1	2	5
	اشفع/شفاعة	1		4	7	2	6	5	25
(ج) ادعية الترضية	رضا نفسك	7	5	19	6	3	6	4	50
	مداد كلماتك	3	1	6			1	1	12
	رحمة	12	5	4	17	5	3	5	51
	زنة عرشك	3	2	2		4	1	1	13
	نور عرشك		1					1	2
	حملة عرشك	1		1	1	3	1	1	8

(81) منها ادعية وهيب بن الورد . كما في الشفا 2/72 – 73 .

وهكذا فإنها لم تكن مخصصة ليوم دون آخر ، و انها متفاوتة الأهمية مع تميز ادعية الرحمة و طلب الوسيلة و الفضيلة للرسول . ونعيد ما قلناه في مصادر صلوات هذا المحور ، انها مستمدة من الأحاديث النبوية ، ومحيلة اليها مع نماذج محدودة من انشاء بعض الصحابة .

3 - تصليات الاستحقاق : اختلف العلماء حول أفضل الصلوات على النبي وأكثرها جزاءً ، و اغزرها نفعا ، فذهبوا في ذلك مذاهب . ولعل في تنويع الجزولي لصيغ الصلوات دليل على الحيرة و رغبة في ان تصادف إحداها أو مجموعة منها الهدف المقصود .

وقد حاول البعض (82) إثبات اهمية تصليات الإستحقاق لعموميتها وصلاحيتها المستمرة والدائمة . كعبارات (اللهم صل على محمد كما هو اهله ويستحقه)او (اللهم صل على محمد. . . افضل صلواتك) او(اللهم صل على محمد. . . كما ينبغي له) (83) وقد اورد الجزولي صلوات مماثلة لنفس الغاية ، وجاءت قصيرة في حجمها موحية في دلالتها ، لاتخرج عن أحد التراكيب التالية :

- صيغة الدعاء + فعل الصلاة + محمد . . . + صيغة الإستحقاق .
- صيغة الدعاء + فعل الصلاة + محمد + الأهل + صيغة الإستحقاق.
- صيغة الدعاء + فعل الصلاة + محمد +الأهل + الجزاء + صيغة الإستحقاق .

وجزء منها مبني على احدى صيغتين بعد الدعاء والتصلية والاسم الشريف وهما :

- كما أمرتنا ان نصلي عليه .
- او كما ينبغي ان نصلي عليه وهي من صلوات الإمام الشافعي المحببة الى نفسه (84)

---

(82) مثل الإمام الشافعي و القاضي الحسين ، و البارزي و غيرهم .

(83) افضل الصلوات 57 - 58 .

(84) قيل أن بعضهم رأه في المنام فسأله ما فعل بك ربك ، فقال غفر لي بهذه الصلاة ، افضل الصلوات 79 .

وعبر عن فكرة الإستحقاق السابقة الذكر بعبارة اخرى هي قوله " حق قدره و مقداره " او " قدر عنايته وجبه " ، فألحقها بصيغ الدعاء والصلاة والإسم الشريف .

و خلافا لصلوات التحاور السابقة المستمدة من الحديث ، نجد صلوات هذا المحور من انشاء الصحابة و أئمة المسلمين الذين كانوا حريصين على تعظيم الرسول و إبراز مكانته .

4 - **محور التعدد والإستمرارية** : اختلف العلماء حول تعداد الصلوات بين قائل بضرورة تلاوة العدد كله (85) ، ومعتقد بان مجرد النطق بالعدد الاجمالي مرة واحدة كاف لحصول ثوابه (كقولنا اللهم صل عليه الف مرة) بدل الصلاة عليه عمليا الف مرة .و جاء في الأحاديث ما يفيد حصول ذلك الثواب المرتب على العدد المذكور (86) منها حديثه صلى الله عليه وسلم مع أم المومنين جويرية عندما مر بها وهي في المسجد تدعو ثم عاد اليها قريبا من نصف النهار ، فقال لها : ما زلت على حالك قالت نعم . قال ألا اعلمك . وذكر كلمات تقولهن هي : سبحان الله عدد خلقه ، سبحان الله رضى نفسه ، سبحان الله زنة عرشه) (87) .ومنها حديثه مع ابي أمامة الباهلي عندما مر به وهو يحرك لسانه فسأله عما يقوله ، فأجاب بأنه يذكر . فقال له الرسول : ألا اخبرك بأفضل او أكثر من ذكرك الليل مع النهار ، و النهار مع الليل ؟ ان تقول " سبحان الله عدد ما خلق ، سبحان الله ملء ما خلق ، سبحان الله عدد مافي الأرض والسماء ، سبحان الله ملء ما في الأرض و السماء ، سبحان الله ملء ما خلق ، سبحان الله عدد ماحصى كتابه ، وسبحان الله ملء كل شيء . وتقول الحمد لله مثل ذلك " (88) .

وسيكون لهذين الحديثين وأمثالهما تأثير في أدب التصليات عموما ، و صلوات الجزولي خصوصا . و برز هذا التأثير لديه في شكلين مختلفين :

(85) لهذا كان ابو طالب المكي يحدد اقل الإكثار وهو تكرار صيغة الصلاة 300 مرة ، في حين كان الشعراني يرى أن أقل الإكثار من الصلاة عليه هو 700 كل يوم ، ومثلها كل ليلة . انظر التفاصيل في ميزاب الرحمات 282- 283.

(86) ميزاب الرحمات 272- 273 .

(87) عمل اليوم و الليلة ، للنسائي 214 .

(88) عمل اليوم و الليلة ، للنسائي 214 - 215 ، و ورد في مسند احمد 249/5 .

- تعداد الصلوات .

- امد فعاليتها .

أ) التعداد : انطلق الجزولي من صيغ هذه الأحاديث ليجعلها أساس تصليات اخرى . وقد أعمل فكره و خياله ليذكر أكبر عدد ممكن يقدمه في صلواته قصد الفوز بثوابه . وبقدر ما يرتفع العدد يتضاعف الثواب والجزاء ويمكن تصنيف أهم هذه الصيغ كالتالي :

- ما يتصل بالمخلوقات :

اللهم صل على محمد . . . عدد خلقك

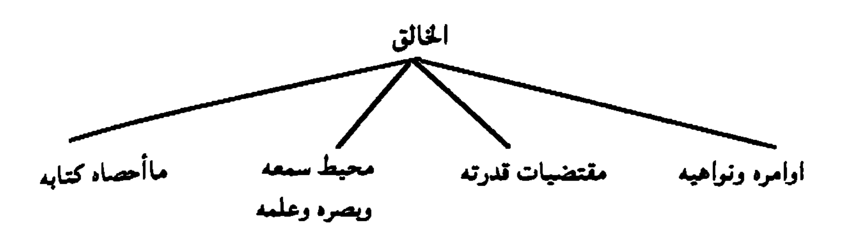
اللهم صل على محمد . . . عدد المخلوقات /او عدد الأنفاس / اوعدد الأحياء والأموات . . .

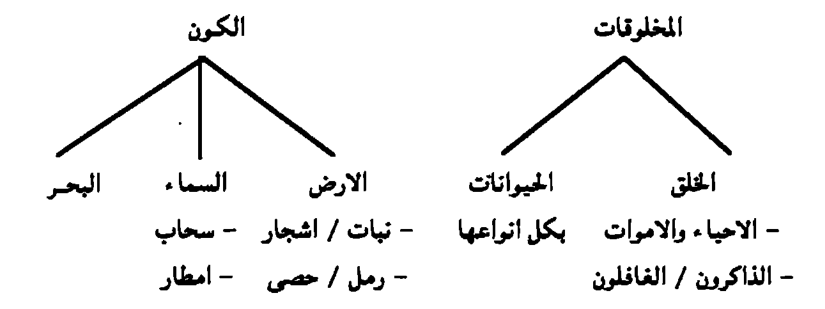
ويكرر نفس الصيغ تقريبا مركزا آخرها على الذكر والصلاة : عدد من صلى عليه / او عدد من لم يصل عليه / عدد من ذكره / او عدد من أغفل ذكره

- ما يتصل بالطبيعة :

اللهم صل على محمد . . . عدد ماأظلم عليه الليل و النهار / او عدد البحار / وقطرات الأمطار / عدد الرمل و الحصى / او عدد السحاب / او عدد النبات و الأشجار .- ما يتصل بالخالق ركز هذا الصنف على مخصصات الإرادة الإلهية اوامره تعالى و نواهيه / عدد مانفذت به قدرته / عدد ماأحاط به بصره وسمعه وعلمه / عدد ما أحصاه كتابه .

و بهذا يحاول استقصاء ما هو موجود في الكون ليحصل على مقدارة ثوبة و جزاء كما هو واضح من الترسيمة التالية :





و يبلغ مجموع هذه الصلوات خمسا و ستين صلاة ، مستمدة كما قلنا من حديثي أم المؤمنين جويرية ، و ابن أمامة . و أما مصادرها :

- فأغلب صلوات تعداد الخلق مروية عن أصحاب السنن ، و هي من الصيغ الواردة عند النبهاني (89) .

- وصلوات " الذاكر و الغافل " من انشاء الإمام الشافعي ، نقلها تلميذه المازني ، وهي في مجموعها او في أجزاء منها من التصليات الواردة في كتب الصلوات و الاذكار (90) .

- وتسمى بعض الصلوات المتعلقة بقدرة الخالق وعلمه و سمعه " بصلوات السعادة " (91) .

(89) الصلاة 21 ، ص 74.

(90) جزء من الصلاة 28 ص 79 من أفضل الصلوات .

(91) ميزاب الرحمات 113.

ب) أمد فعاليتها : يلاحظ أن كثيرا من الصلوات المشتملة على صيغ الاستمرارية اسند اليها ثواب كبير سواء من ذلك ما روي عن النبي ، او ما روي عن شيوخ التصوف .فقد اجلس الرسول "ص" في المسجد رجلا بينه و بين ابي بكر ، فاستفسر الحاضرون عن ذلك متعجبين ، فأفادهم ان جبريل عليه السلام أخبره بان الرجل كان يصلي عيله صلاة لم يصلها احد قبله (92) . وفي هذه الصلاة معنى الاستمرارية و تنتهي بصيغة " الى يوم الدين " .وفي رواية اخرى ان امثال هذه الصلوات حينما تردد في الصباح والمساء تهدم الذنوب ، وتمحو الخطايا ، وتديم السرور ، وتقوي الأمل (93) . و بعضها من إنشاء شيوخ كبار مثل : عبد القادر الجيلاني ، و هي مختومة بصيغة " الدوام "ـــــــــــــ" دائمة بدوامك ، أو بدوام الله " .ووذكر أن لها توابا عظيما ، رتسمى صلاة السعادة (94) .

جمع الجزولي مجموعة من هذه الصلوات في كتابه لإضافة مفهوم الاستمرارية الى مفهوم العدد السابق الذكر ، و يمكن تصنيفها الى عدة أصناف :

- الدوام :اللهم صل ... صلاة دائمة بدوامك / او دائمة موصولة ..

- الأبد : اللهم صل... صلاة لا تنقطع أبد الآباد / او أبد الآبدين..

- يوم الدين : اللهم صل . . . صلاة تتردد الى يوم الدين .ومنها مايفيد الاستمرارية عن طريق الكناية - واغلبها من انشاء الجزولي - كأن يجعل الصلاة مسترسلة دائمة : ماطلعت الشمس / ما تألق البرق / ما دارت الأفلاك / ما سبح الرعد / ما هبت الريح . . . و عدد التصليات التي تفيد الاستمرار بكل أصنافها أربعة و عشرون . استمد بعضها من أحاديث نبوية و صلوات المشايخ ، وأنشأ بعضها الآخر انشاء (95) .

(92) الصلاة واردة عند النبهاني 62 .

(93) أفضل الصلوات 68

(94) كل واحدة منها حسب ما قيل بعشرة آلاف صلاة ؟ (النبهاني 82) أو بستمائة ألف (نفسه 149) .

(95) انظر حديث ابن ابي امامة في عمل اليوم و الليلة . حديث 166 ، و باقي الصلوات في أفضل الصلوات 68 - 82 - 149 . . . و أنشأ الجزولي الصلوات المبنية على مظاهر الطبيعة .

ج) **بين التعداد و الاستمراوية** : يجمع في صلوات كثيرة بين التعداد والاستمرارية للاستفادة من توابها بشكل مضاعف ، و لا يكاد يختلف هذا الصنف عن الصنف السابق في مضمونه وشكله . وإيثارا للاختصار وتوخيا للوضوح ، نضع هذا الجدول :

الموضوع	التعداد	الاستمرارية
المخلوقات	أ) عدد الخلق عدد كل شعرة في أبدانهم عدد انفاسهم و ألفاظهم عدد خطاهم	من يوم خلقت الدنيا الي يوم القيامة (كل يوم الف مرة)
	ب) عدد من سبح و صلى و هلل عدد من لم يسبح ولم يصل	" "
	ج) الجن والإنس و الملائكة عدد ما خلقت منهم عدد طيرانهم عدد صفوف من صلى منهم	" " " "
	د) عدد ما خلقت من بهائم عدد ما يمشي على الأرض عدد الطيور وخفقانها	" "
الكون	أ) عدد ما خلقته على الأرض وفي باطنها عدد الرمل والحصى عدد الرياح و الأغصان عدد نبات الأرض سهلها و جبلها	" " " "
	ب) ملء السموات و عددها عدد القطر و الأمطار عدد السحاب الجارية عدد النجوم	" "
	ج) عدد ما خلقت في بحارك لا يعلم علمه إلا انت،من امواج واضطراب مياه	" "

لعل أدق الآلات الحاسبة لا تستطيع إعطاء مجموع محدد لأعداد هذه الصلوات . واعتبارا لحديثي جويرية و ابن ابي امامة المقررين لحصول الثواب بحسب النطق بالعدد يتبين أن تواب الناطق بهذه الصلوات عظيم و كبير لايعد ولا يحصى . وقد جعل الرسول ألف صلاة كل يوم موجبة لدخول الجنة(96) وهذا سبب من أسباب إقبال المريدين والقراء على تلاوة دلائل الخيرات يوميا في مساجد معينة بمراكش ، وأسبوعيا في ضريح الشيخ ، وفي المناسبات الدينية والوطنية ، وفي الاحتفالات الخاصة والعامة . وهذا القسم من "الدلائل" مفضل على غيره، و يلاحظ أن قراءته تتم على الخصوص يوم الجمعة تنفيذا لحضه "ص" الناس على الاكثار من الصلاة عليه يوم الجمعة (اليوم الأزهر،والليلة الغراء)، وجعل جزاء ذلك غفران الذنوب ودخول الجنة(97) . وعدد هذا الصنف تسعة وأربعين صلاة .

ويتضح توزيع صلوات هذا المحور من خلال هذا الجدول التفصيلي :

الموضوع	حزب الاثنين	حزب الثلاثاء	حزب الاربعاء	حزب الخميس	حزب الجمعة	حزب السبت	حزب الاحد	مجمـــوع
التعداد	7	26	8	3	8	10	3	65
الاستمرارية		4	5		3	1	11	24
التعداد والاستمرارية معا					32	16	1	49
المجموع	7	30	13	3	43	27	15	138

توزيع مجموع صلوات محور التعداد والاستمرارية

وتحدد طبيعة موضوعات هذا المحور نوعية المعجم المستعمل . و يتبين من خلال جدوله (الصفحة اللاحقة) أن المؤلف يدعو الى الصلاة على النبي عدد كل مظاهر الكون و المخلوقات بكل

(96) الفصل الأول من دلائل الخيرات ، و أفضل الصلوات ص 21 .

(97) الفصل الأول من دلائل الخيرات ، احاديث في الشفا 79/2 ، و في الفصل الأول من دلائل الخيرات .

أصنافها و أشكالها محققا بذلك وحدة وجود من نوع خاص (وان من شيء إلا يسبح بحمده و لكن لاتفقهون تسبيحهم) (98)

ويبقى يوم الجمعة هو اليوم المفضل للتلاوة و الذكر سواء تعلق الامر بعدد الصلوات أو عدد الكلمات المتلوة فيها ، و ذلك بناء على الأحاديث السابقة الذكر ، التي تجعل جزاء ذلك مضاعفا

الموضوع	اللفظة	حزب الاثنين	حزب الثلاثاء	حزب الاربعاء	حزب الخميس	حزب الجمعة	حزب السبت	حزب الاحد	المجموع
الخالق	احاط/محيط	1	4	3			2	1	11
	علم	5	10	15	2	12	18	1	63
الكون	ليل		1		1	3	3	7	15
	نهار		1	1	1	4	2	6	15
	ارض	2	4		2	23	10	4	45
	سماء	3	2		4	14	11	4	38
	بحر/بحار			2	1	6	4	1	14
	نجوم	1		1	1	2	1	1	7
	شمس				2	2	1	1	6
	قمر				1	2	1	2	6
	كواكب/فلك					3	1	2	6

5 – محور التعد د والاستمرارية (يتبع)

(98) سورة الاسراء ، أية 44 .

الموضوع	اللفظة	حزب الاثنين	حزب الثلاثاء	حزب الاربعاء	حزب الخميس	حزب الجمعة	حزب السبت	حزب الاحد	المجموع
الكون	جبال /سهول					11	5		16
	رياح/سحاب		4		3	9	4	3	23
	امطار	1	2		2	9	3	2	19
	اودية/عيون					8	7		15
	رمال/حجر		1			4	2		7
	امواج		1	1		2	1		5
	شجر/غصن		2	1	1	8	5		17
	نبات/ثمار		2	1		6	7		16
المخلوقات	خلق	13	1	20	5	44	38	6	127
	نفس/انفاس	2	1	3		1	3		10
	اجساد					2	5	1	10
	انس					3	3		6
	جـن					4	3		7
	شياطين					2	1	1	4
	ملائكة	4	2	2	4	3	5	3	23
	دواب/بهائم		4			1	2	4	11
	طـيور					2	3	1	6
	حشرات						2		2
التعداد والاستمرارية	عـدد	12	24	8	2	49	62	11	168
	دام / دوام	3	3	9	10		5	6	36
	ابـد		4	4					8
	يوم/الدين	4	2	4	3	88	41	4	146
	الف مرة					18	15		33
	مجموع	51	75	77	45	345	276	72	941

محور التعدد والاستمرارية (تتمة)

5 – محور الأسماء و الألقاب : أشار الرسول " ص" الى أسمائه ، فجعلها خمسة في

بعض الأحاديث (. . .أنا محمد و أنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر،وأنا الحاشر الذي يحشرالناس على قدمي وأنا العاقب)(99).وعشرة في أحاديث اخرى بإضافة : رسول الرحمة ،رسول الراحة،رسول الملاحم،المقفى ،القيم (100) وفي القرآن ألقاب عديدة لقب بها الله رسوله : كالنور والسراج المنير ، المنذر ، النذير ، والمبشر البشير. . . ووردت ألقاب اخري في الكتب السماوية ، والأحاديث النبوية ، وإطلاق الامة : الطاهر المصلح خليل الله ، خليل الرحمن ، صاحب الحوض المورود، صاحب التاج و العراج (101) .

وعقد عياض فصلا في تشريف الله تعالى لرسوله بما سماه به من أسمائه الحسنى جمع فيه ثلاثين اسما منها : حميد ، محمود ، رؤوف ، رحيم ، الحق ، المبين (102) .

وقد جمع الجزولي في الفصل الثاني من دلائل الخيرات أغلب هذه الأسماء والألقاب ، فيغلب عنده مائتي اسم وإسم . وكان لها تأثير واضح في تصليات الكتاب ،إذ بلغ مجموع المركز منها على الأسماءوالألقاب سبعاوتسعين صلاة مصنفتفي ثلاث صيغ مختلفة :

1) الدعاء + فعل الصلاة + اسم مفرد .

2) الدعاء + فعل الصلاة + اسم مضاف و مضاف اليه .

3) التوسل بالاسماء : الدعاء + فعل السؤال + الاسم او مجموعة الأسماء + صيغة التوسل .

---

(99) الحديث بسنده في الشفا 228/1 - من أحاديث البخاري 225/4

(100) الشفا 231/1 - 232 .

(101) الشفا 231/1 - 235 .

(102) الشفا 235/1 - 243 .

وتختلف هذه الصيغ تركيبا و ترددا و تلاوة :

الصيغة	حزب الاثنين	حزب الثلاثاء	حزب الاربعاء	حزب الخميس	حزب الجمعة	حزب السبت	حزب الاحد	مجمـــوع
الصيغة الاولى	4	31	18	13	1	2	22	91
الصيغة الثانية		27	2				14	43
الصيغة الثالثة	1	1		2	11	10	23	48
المجموع	5	59	20	15	12	12	59	182

ويسمح هذا المحور بابداء الملاحظات التالية :

1) في تركيز الصلوات على الأسماء و الألقاب تعظيم للخالق - إذ لم تتح كثير من الفرص لذلك في دلائل الخيرات - و تكريم وتشريف لرسوله بإطلاق بعض أسمائه عليه من جهة ، والتوسل بها اليه من جهة ثانية .

2) حاول ترديد اغلب الأسماء والألقاب الواردة في المصادر وفي الفصل المذكور من كتابه ، فبلغت حوالي مائة و خمسين اسما (من اصل مائتين وواحد) .

3) و من اسباب تكريمه صلى الله عليه و سلم الصلوات المبنية على المعجزات و القريبة في موضوعها من صلوات الأسماء والألقاب : عددها ست عشرة صلاة تتناول كل واحدة معجزة من معجزاته المشهورة مثل : انشقاق القمر له ، بكاء الجذع عليه ، ظللته الغمامة,و هذه الصلوات قصيرة الحجم متشابهة التركيب :

- صيغة الدعاء + فعل الصلاة + لفظة " من كان " + المعجزة .

4) و تتميز هذه الصلوات بالقصر ، و هي بذلك شبيهة بالصلوات المشتقة من الصلاة الإبراهيمية المسماة " بأكمل الصلوات " .

5) تتردد ضمن الصلوات اليومية مع اهتمام أكثر بيومي الثلاثاء والاحد اي بالثلث الاول و الاخير من دلائل الخيرات و ذلك من باب التنويع .

6) مصادرهُ في هذا المحور هي القران و كتب الحديث ومجموعاته وشروحه (103) .
وإذا كانت صلوات الصيغتين الاولى و الثانية قصيرة ومباشرة، فإن صلوات الصيغة الثالثة تتميز بالإبداع و الذاتية ، إذ كثيرا ما يتجاوز فيها مجرد الدعاء والتكريم الى التوسل الصادق الذي يبوح فيه بمكنون ذاته وبما يعانيه في بيئته من مظاهر الظلم و الاستبداد (واسألك باسمك العظيم ، التام الكبير ، ان لا تسلط علينا جبارا عنيدا ، و لا شيطانا مريدا و لا إنسانا حسودا ، ولا ضعيفا من خلقك ، و لا شديدا ، و لا بارا و لافاجرا) (104) .

ويلتمس الغفران أثناء هذه التوسلات لقارئ الدلائل (و ان تغفر لعبدك قارئ هذا الكتاب المذنب الخاطي الضعيف ، و ان تتوب عليه) (105) .

6) محور الملائكة والانبياء : تناولت كتب السيرة والحديث مسألة الصلاة علي غير النبي: فذهب اغلبها الى عدم جواز الصلوات علي غير الانبياء ، في حين جعلوا الصلاة على نبي – غير محمد – مكروهة . وفسروا التصلية على آل محمد وذريته بانها صلاة علي محمد نفسه . وعقد عياض فصلا في الاختلاف في الصلاة على غير النبي (106) عرض فيه الآراء المختلفة في الموضوع لينتهي فيه الى حديث مروي عن ابي هريرة قال فيه الرسول " ص" (اذا صليتم علي فصلوا على انبياء الله ورسله ، فإن الله بعثهم كما بعثني) . وتتضمن بعض الاحاديث و الصلوات تطبيقا لذلك ، كالصلاة الإبراهيمية والصلوات المقتبسة منها .ففيها صلاة على نبي الله وخليله ابراهيم وعلى النبيئين والصديقين علي وجه العموم و يتخذ الجزولي – كدابه في مثل هذه المسائل – موقفا يجسده في صلواته ، فقد بنى بعض دعواته على الصلاة علي الأنبياء والمرسلين والملائكة ، ونظمها في ثلاث صيغ مختلفة :

(103) منها الشفا 1/238 – 243 .
(104) حزب يوم الاحد ص 129
(105) حزب يوم الجمعة ص 84 – 85 .
(106) الشفا 2/80 – 83 .

1) الصلاة على الانبياء و المرسلين عموما دون ذكر اسمائهم .
2) ذكر اسماء الانبياء المصلى عليهم .
3) الصلاة على الملائكة .و قد يمزج بين العنصرين او كل العناصر في الصلاة الواحدة.

أما اسماء الانبياء والملائكة الواردة في هذه الصلوات على وجه الإجمال فهي :

الموضوع	الاسماء	حزب الاثنين	حزب الثلاثاء	حزب الاربعاء	حزب الخميس	حزب الجمعة	حزب السبت	حزب الاحد	المجموع
محمد	محمد	88	72	58	56	98	53	48	473
	نبي/الانبياء	14	3	10	30	8	6	15	86
	الرسول	14	1	12	14	4	5	9	59
الانبياء	ابراهيم	28	9	7	5	1	6	4	60
	آدم			1	2	2	2	1	8
	موسى	2		1		1	2		6
	عيسى	1		1		1	2		5
	الياس	1				1	1		3
	نوح			1		1	1		3
	شعيب					1	2		3
	داوود					1	2		3
	سليمان					1	2		3
	زكرياء					1	2		3
	يحيى					1	1		2
	صالح					1	1		2
	يونس					1	1		2
	ايوب					1	1		2
	هارون					1	1		2
	اسماعيل					1	1		2
	هود					1			2
	يعقوب						1		1
	اسحاق						1		1
الملائكة	جبريل			1	1	1	1	3	7
	اسرافيل			1	1	1	1		4
	ميكائيل			1	1			1	3
	عزرائيل			1					1

محور الملائكة والانبياء

1) ويبدو تأثير الصلاة الابراهيمية واضحا في تردد اسم ابراهيم في الأذكار بالمقارنة مع باقي اسماء الانبياء .

2) جاءت موزعة على كافة ايام الاسبوع مع بعض التركيز على ايام الإثنين و الجمعة والسبت .

3) اما الموضوعات التي تناولتها هذه الصلوات ، فهي :

أ) الصلاة على الأنبياء و الملائكة على غرار الصلاة علي النبي .

ب) الدعاء للرسول بان يجعله الله أعلى درجة من سائر الانبياء وأفضلهم مقاما .

ج) الدعاء لأهل بيت محمد بان ياتيهم الله افضل ما أتى به احدا من اهل بيوت المرسلين و الانبياء .

د) التوسل بأسمائهم و مكانتهم و مقامهم عند الله .

4) مصادر الجزولي في هذه الصلوات هي الحديث النبوي الشريف فبعضها مروي عن ابي هريرة، وبعضها عن سلامة الكندي (107) ، ومنها ما أنشأه المؤلف كالصلاة المعروفة بصلاة " اولي العزم " (108) .

7 - أدعية توسلية : هناك ما يميز هذه الادعية التوسلية عن الصلوات الواردة في المحاور السابقة :

فهي في أغلبها ادعية توسلية و ليس القصد منها الصلاة على النبي ، وانما التوسل الى الخالق استدرارا للرحمة ومحوا للذنوب .

---

(107) الشفا 2/ 81 ، و افضل الصلوات 68.

(108) (اللهم صل على سيدنا محمد و سيدنا آدم ، و سيدنا نوح ، و سيدنا ابراهيم ، و سيدنا موسى ، و سيدناعيسى ، و ما بينهم من النبيئين و المرسلين ، صلوات الله و سلامه عليهم اجمعين . قيل بان قراءتها ثلاث مرات تعدل ختم دلائل الخيرات . ذكر ذلك شراح الكتاب انظر النبهاني في افضل الصلوات 149 .

2) ليست في اصلها احاديث نبوية من إنشاء بعض الصحابة والأولياء ، و إنما هي في اغلبها من إنشاء الشيخ الجزولي .

3) ويترتب علي هذا انها اكثر التصاقا بمعاناته ومقاصده وقضايا عصره و مجتمعه .

4) تختلف هذه الأدعية فيما بينها حجما وتركيبا وموضوعا :

أ) منها ما لا يتعدى السطر الواحد ، ومنها ما يغطي الصفحة بكاملها .

ب) منها ما بني على صيغة الصلاة ، وما هو مبدوء بصيغة السؤال (اسألك ، اني اسألك . . .)

ج) وموضوعاتها متنوعة :- بعضها من قبيل الأدعية المشهورة المتداولة " كالصلاة الابراهيمية " . (اللهم صل على محمد صلاة تنجينا بها من جميع الاهوال والآفات ، وتقضي لنا بها جميع الحاجات ، وتطهرنا بها من جميع السيئات . . .) (109) .والدعاء المشهور بدعاء " الورد " وأوله (اللهم ببركة الصلاة عليه ، اجعلنا بالصلاة عليه من الفائزين ، و على حوضه من الواردين الشاربين ، وبسنته وطاعته من العاملين) . التوجه المباشر الى الخالق : فموضوع دلائل الخيرات الصلاة على النبي " ص" وإبراز فضائله ، ويخالف المؤلف ذلك في هذه الأدعية التي يوجه الخطاب فيها الى الخالق سبحانه طالبا منه :

- مساعدته على معرفته حق المعرفة .

- تنوير قلبه بالعلم ، و تنشيط بدنه للطاعة .

- ملء قلبه بمحبته و توحيده . اللجوء اليه التماسا للعفو ومحو الذنوب و الصفح عن الأخطاء

---

(109) اعتبرها شيوخ التصوف كنزا من كنوز العرش ، و ذات اسرار عظيمة ، تقضى بها الحاجات و تنجي من الغرق و الطاعون ... افضل الصلوات 76 – 78 . و ميزاب الرحمات 88 – 90 .

العصمة من الخلق وشرورهم .

- وهنالك ادعية توسلية يوجه فيها الخطاب الى الخالق، ولكن في موضوع الرسالة والنبوة، من موضوعاتها :

- ان يجعل الله محمدا دليل المؤلف الى جنة النعيم بلا عناء .

- ان يمكنه من رؤيته في الجنة بعدما آمن به دون رؤية .

- ان يجعله من ملازمي ملته ، و من المتمسكين بسنته .

- ان يسقيه من كاس محبته .

5 - لا تخرج هذه الادعية عن موضوعات التوسل على وجه العموم والتي يتم المزج فيها عادة بين طلبات دينية ودنيوية ، وتثار فيها قضايا تعكس الهموم الذاتية والجماعية للمتوسل ، والخوف الأزلي من الموت والفناء والحساب :

- اما الهموم الذاتية : فهي الشعور بالذنوب وثقلها والرغبة في التخلص منها عن طريق التماس المغفرة والشفاعة . . . خصوصا وان هناك أحاديث تجعل النبي نفسه - و هو المعصوم من الخطا - لا يدخل الجنة بعمله الا ان يتغمضه الله برحمته . فما شأن الانسان الخطاء الظالم لنفسه . وكذلك الرغبة في تنقية القلب وتصفية الفؤاد من مظاهر الحقدوالحسد والطمع . . .

- اما الهموم الجماعية : فتعكس دعوات الجزولي عدم الإستقرار الذي يعرفه مجتمع القرن التاسع الهجري بالمغرب من اضمحلال السلطة و الصراع بين المرينيين و السعديين و انتشار الفتن والحروب .و قد زاد الامر تعقيدا وسوءا استعمار الأجانب لبعض الشواطئ المغربية و قد عبر الجزولي بصدق و صراحة عن هذا كله في مثل توسله :

- (اللهم اعصمني من شر الفتن : و عافني من جميع المحن)(110)

---

(110) من حزب يوم الإثنين .

- (اللهم ارحمني من زماني هذا واحداق الفتن و تطاول اهل الجراة علي واستضعافهم إياي)(111) .و جعله هذا الموضوع يخشى الخلق على العموم :(اللهم اجعلني منك في غياذ منيع ، وحرز حصين من جميع خلقك حتى تبلغني أجلي معافى) (112) . وخاصة من عرف منهم بالتسلط والعناد والظلم: (أسألك باسمك العظيم التام الكبير أن لا تسلط علينا [illegible]نيدا و لا شيطانا مريـــدا)(113) .

وتتوزع هذه الأدعية على الشكل التالي :

الموضوع	حزب الاثنين	حزب الثلاثاء	حزب الاربعاء	حزب الخميس	حزب الجمعة	حزب السبت	حزب الاحد	مجموع
ادعية مأثورة			2					2
المنحى الذاتي	2	2		2	2	3	2	13
المنحى الاجتماعي	1	2		1			4	8
التوسل بالرسول	5			4	2	1	1	13
مجموع	8	4	2	7	4	4	7	36

الادعية التوسلية

وهكذا فان هذا المحور الأخير (الأدعية التوسلية) اكثر المحاور التصاقا بهموم المؤلف وواقعه المعيش على وجه العموم .

II - الخصائـــص العامـــة :

تناول الجزولي هذه المحاور بالأسلوب المعتمد في أدب الأذكار :

---

(111) من حزب يوم الثلاثاء .

(112) من حزب يوم الثلاثاء

(113) من حزب يوم الأحد .

- معجم خاص مستمد اساسا من لغة القرآن والحديث والصلوات المشهورة .

- جمل قصيرة يربط فيما بينها بروابط لفظية و معنوية .

- اعتماد المقابلة والتكرار والجناس ، وغير ذلك من الأساليب التي تغني الجملة دلاليا وصوتيا وتركيبيا*.

- الاهتمام بالكلمة من حيث تركيبها في الجملة ، وموقعها منها ، وتناسق حروفها وانسجامها .

أ - عملية التناص : تنهض الإحالة في ادب الأذكار بدور مهم إذ لايكاد يوجد ذكر لايلتقي مع نصوص أخرى ، سواء في ذلك النصوص الدينية او نصوص مؤلفين آخرين . ومن هنا لايجوز الحديث عن ابداع حقيقي إلا نادرا ، بل يقتصر إبداع المؤلف على مدى التصرف في النص المحال إليه من حيث تمثله ، وهضمه وإعادة انتاجه ، وذلك بعد هدمه وإعادة بنائه أو التعامل معه بشكل سلبي اجتراري ، والنص الأكثر حضورا عند الجزولي هو نص الحديث لأن الكتاب اساسا في الصلاة على النبي و فضائلها .

وأهم ما يلاحظ على مؤلفي الأذكار و الصوفية في هذا المجال ، اختلافهم مع الفقهاء حول وظيفة الحديث فهؤلاء يتشددون في قوانين الإسناد ، ويرفضون خرق أساليب التعديل و التجريح والتحديث والتمرد عليها . بينما يكون الصوفية أكثر تحررا في التعامل مع الحديث، إذ أن غايتهم منه هي الاعتبار والتأمل قصد التحول من مرتبة الى أخرى ، ومن مقام إلى آخر .وأحيانا ما يتعدى الأمر مجرد التقاء نصين واقتباس واحد من الآخر الى إثبات للنص بأسلوبه ، في حين يقتصر على الاستمداد منه في أغلب الأحيان :ومن امثلة الصنف الأول الصلاة الإبراهيمية والصلوات المقتبسة منها ، صلوات الأدعية النبوية ،. وصلوات الاستحقاق .ويتجلى الصنف الثاني على الخصوص في الأدعية التوسلية التي تحرر أكثر من قيود النصوص الأخرى .

وتتخذ الإحالة الى القرآن الكريم صيغا مختلفة لدى الجزولي

- الإشارة الى السورة دون ذكر النص (اللهم صل على محمد أكرم الأسلاف ، القائم

بالعدل والأنصاف ، المبعوث في سورة الأعراف) (114) .

- الاقتباس من آيات قصد بيان معنى التصلية و تأكيدها (اللهم فاطرالسماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة ، الرحمن الرحيم ، الحي القيوم ....(115))

- (اللهم صل على محمد في الليل إذا يغشى ، و صل على محمد في النهار اذا تجلى ، وصل على محمد في الآخرة و الأولى) (116) .

- إدراج آية أو أكثر في صلب الصلاة للتمثيل والإستشهاد ، كالآية الكثيرة التردد في الكتاب (ان الله وملائكته يصلون على النبي، ياأيها الذين آمنوا صلوا عليه و سلموا تسليما)(117) . وكقوله (اللهم اغفر للمؤمنين . . . واغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولاتجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا انك رؤوف رحيم) (118) .(اللهم اني أسألك بأني أشهد أنك انت الله الذي لا إله إلا أنت الواحد الأحد الصمد الذي لم يلد و لم يولد ولم يكن له كفؤا أحد) (119) .

تضاف الى هذا إحالات أقل أهمية الى صلوات و أذكار مشهورة كصلوات و أدعية الإمام الغزالي ، و الإمام الشاذلي و غيرهما مما يذكره المؤلف بلفظه او يستمد منه .هذه الإحالات تؤكد المضامين الدينية التوسلية التي تفيدها وتسهم في إرساء الاعتقاد بفعاليتها و تأثيرها . كما انها كانت من الأسباب التي حدت بطائفة من العلماء الى تقديم قراءتها على القرآن بالنسبة لبعض المريدين لأنها تتضمن مثله كلام الله ، و تزيد عليه بالحديث و كلام الاولياء والصوفية .

---

(114) من حزب يوم الخميس، سورة الاعراف هي السابعة في القرآن بدايتها: (النص كتاب . .)

(115) من حزب يوم الاحد ، من سورة الزمر ، آية 46 و الاخرى من سورة البقرة ، آية 2 .

(116) من حزب يوم الجمعة ، آية الليل إذا يغشى ، سورة الليل ، آية 1 و الاخرة و الاولى سورة النجم ، آية 25 .

(117) من حزب يومي الإثنين و الخميس (ان الله و ملائكته ...) سورة الأحزاب آية 56 .

(118) من حزب يوم الخميس ، سورة الحشر آية 10 .

(119) من حزب يوم الأحد ، سورة الإخلاص .

2 - المعجم اللغوي : من مميزات لغة الذكر أنها لم توضع لإفادة التواصل بين مرسل ومتلق، و انما ينعكس مفعولها على مرسلها نفسه ، لذلك لم تطرح مسألة الفهم او التأويل بنفس الحدة التي طرحت في غير اللغة ذات الهدف الديني . وقد نتج عن ذلك وجود اختلاف واضح في المعجم اللغوي للأذكار :

-.- منها ما يعتمد على لغة معقدة صعبة التأويل ، تكثر فيها الاشتقاقات من نفس الجذر ، وتتداخل الصور والتضمينات ، مما يوحي بوجود أسرار لاتدركها الا النخبة .

-.- إلا أن السائد هو العكس اي ميل لغة الذكر الى سهولة الألفاظ ووضوح المعنى وجزالته . ذلك لكي يدرك المريد معنى الذكر ويتأمله ، وتنفعل نفسه لأوامره ونواهيه ، خاصة وأن أغلب هؤلاء من الفئات التي لم تتوفر لها شروط التعليم الصحيح واللازم .

ولغة دلائل الخيرات من هذه النوع الأخير أي أنها مبنية على الوضوح في التعبير والبساطة في التركيب ، والإيجاز في الأداء. وقد راعى مؤلفه شروط الفئات التي يؤلف لها في اختياره للأحاديث ووضعه للصلوات التي تكون مفهومة لديهم بدون عناء كبير .

وتشجيعا على تداول الكتاب وقراءته ، رخص العلماء للعامة في قراءة دلائل الخيرات - على ما فيه من صلوات و أدعية مرفوعة ، مابين حديث عنه صلى الله عليه وسلم او أثر عن اصحابه وعن التابعين - ان يصحفوه ، ويلحنوا فيه .وقالوا الدعاء الملحون ان كان لايستطيع الإنسان غيره لايقدح في الدعاء ، والعامة يغتفر في حقهم ما لايغتفر في حق غيرهم (120)

وتتجلى طبيعة هذا المعجم من خلال الجدول المحدد للألفاظ الأكثر استعمالاو تداولا في دلائل الخيرات :

(120) السعادة الابدية 2/31 - 32 .

التدوال	الكلمة	ترددها	عدد المواد
اكثر من 400	صلى تصلية	559	3
	محمد	473	
	اللهم	406	
بين 200 و 100	آل	185	6
	عدد	168	
	سلم تسليما	147	
	اللـه	144	
	خلق خلق	127	
	سيدنا	108	
بين 100 و 50	نبي	86	10
	يوم	79	
	اسم اسماء	72	
	سال اسالك	69	
	علم	63	
	ابرهيم	60	
	بارك بركة	59	
	رسول	59	
	يوم القيامة	58	
	رحمة	51	
بين 50 و 30	عظم عظيم	48	17
	ولي اولياء	48	
	ارض	45	
	فضل فضائل	44	
	دنيا	42	
	رضى ترضية	41	
	حمد حميد	39	
	سماء	38	
	آمن مومن	36	
	جعل	36	
	دام دوام	36	
	نور	36	
	دعاء	35	
	رب	35	
	الف مرة	33	
	مجيد	33	
	كرم اكرام	31	
بين 30 و 10 (تابع)	عالمين	28	
	ذكر	27	
	جازى جزاء	25	

معجم الكلمات الاكثر ورودا في دلائل الخيرات (يتبع)

العدوال	الكلمة	ترددها	عـــدد المـــواد
بين 30 و 10	حب محبة	25	55
	شفاعة	25	
	ملائكة	23	
	خير	22	
	عطاء	22	
	رعاية	20	
	غفر	20	
	حق	19	
	درجة رفيعة	19	
	صحب صحابة	19	
	جمع جميع	18	
	مطر امطار	18	
	اول ، آخر	17	
	بقي بقاء	17	
	شهد شهيد	17	
	عبيد ، عباد	17	
	قرب مقربون	17	
	مـوت	17	
	صدق صديقين	16	
	مقام محمود	16	

العدوال	الكلمة	ترددها	عـــدد المـــواد
بين 30 و 10	بلغ بليغ	15	55
	اهل	14	
	حي احياء	14	
	الوسيلة والفضيلة	14	
	بحـر	14	
	ليل	14	
	نهار	14	
	امر	13	
	زنة عرشك	13	
	قدرة	13	
	ازواج	12	
	علا علو	12	
	مداد كلماتك	12	
	نزل منازال	12	
	طهر مطهر	12	
	سحاب	12	
	امين	11	
	احاط محيط	11	
	سنة	11	
	هدى اهتدى	11	

معجم الكلمات الاكثر ورودا في دلائل الخيرات (يتبع)

التداول	الكلمة	ترددها	عدد المواد
بين 30 و 10	جبال	11	55
	امة	10	
	بعث مبعوث	10	
	جنة	10	
	صلح صالحون	10	
	قوم قيام	10	
	كان كون	10	
	نعمة تنعم	10	
	وحدة توحيد	10	
	وعد ميعاد	10	
	اهل البيت	10	
	طيب مطيب	10	
اقل من 10	باقي المعجم	—	578

معجم الكلمات الاكثر ورودا في دلائل الخيرات (تتـمة)

وتسمح لنا معطيات هذا الجدول بإبداء الملاحظات التالية :

1) **الاهتمام بالكلمات** / المفاتيح اي أننا تركنا جانبا حروف الجر وماشابهها مما لا أثر له في المعنى على وجه العموم .

2) **مجموع الكلمات المتداولة في دلائل الخيرات** تسع وستون وستمائة كلمة ، واحد وتسعون منها هي الأكثر تداولا وردت اكثر من عشر مرات ، في حين ان ثمانا وسبعين وخمسمائة كلمة لاتتردد كثيرا .

3) **يترتب على هذا وجود صيغ نموذجية للصلوات هي الأصل** تتردد بعدما تلحق بها تغييرات طفيفة .ويتضح ذلك بالرجوع الى المعجم : فالكلمات الواردة اكثر من اربعمائة مرة اي بمعدل مرة في كل صلاة (توجد في الكتاب سبع وثلاثون واربعمائة صلاة) هي : صل أو صلى / محمد / اللهم . وتكون اساس التصلية الرئيسية (اللهم صل على محمد . . .) واساس الصلاة الابراهيمية .

ويمكن ان نتبين من باقي المعجم ملامح أهم محاور الصلوات :

– بقية معجم الصلاة الابراهيمية بصيغها : آل ، الله ، سلم تسليما ، سيدنا ، ابراهيم ، بارك ، حميد ، مجيد .

– الأدعية النبوية : علم ، عظم ، اجعل ، جازى، خير ، درجة رفيعة مقام محمود . . .

– ولانريد الاطالة بتتبع كل المحاور اذ سنجد المعجم عاكسا لصلوات الاستحقاق، التعداد، والاستمرارية . . . بمعنى ان المعجم المتداول هو اقرب الى معجم الحديث النبوي و أذكار وادعية الصحابة والأولياء منه الى معجم شخصي خاص الفه الجزولي لنفسه و لمريديه ، ومن هنا كان الحديث في كتب التراجم والطبقات عن جمعه لدلائل الخيرات لا عن تاليفه لها مع الإشارة الى كتب خزانة القرويين كمصادر لهذا الجمع .

4) **ويظهر لنا من الجدول** كذلك ان الالفاظ تتسم بالسهولة والوضوح وليس من بينها ما هو مستغلق او غريب .

<u>3 - بناء الجملة :</u> تتسم جملة الدلائل بالقصر والبساطة في الغالب ، لاتخرج عن التركيب التالي :

صيغة الدعاء + الفعل + المصلى عليه + نعوت و أوصاف .وحتى عندما تطول صيغة الصلاة فانها لاتعدو ان تكون تكرارا لهذه الجملة وإعادة لبنائها .

والملاحظ أن المخاطب هو المحور الاساسي المقصود بالكلام اي الخالق فإليه توجه الصلوات والادعية ، وهو القادر على الاستجابة ، لذلك نوع المؤلف اساليب مخاطبته والتضرع اليه : من فعل الامر الدال على الطلب والدعاء ، وكاف الخطاب وتاء الضمير او تاء المضارع المخاطب .

ولاتظهر صيغ المتكلم الا في بعض الأدعية التوسلية التي قلنا عنها بأنها تعكس الهموم الذاتية للمؤلف ، وهموم مجتمعه ، وفيها يتخلى عن الواسطة والدعاء له والصلاة عليه الى فتح حوار مباشر مع خالقه يبثه أحزانه ومشاكل مجتمعه ملتمسا الرحمة والعفو .

وتؤدي أساليب المبالغة والنداء والاستغاثة دور الموضح والمؤثر بإظهار فظاعة الذنب وجلال الموقف ، وتضاؤل الداعي المصلي وتشبثه بأسباب النجاة والفوز . وتميز بعض الطرق بين استعمال الحروف في الدعاء :

فالاكثار من " اللام " يتم في منزلة التوبة و الاستقامة و التقوى اي ما يسمى بحالة الفرق . في حين ان استعمال " الباء " يكون في منازل الطمأنينة والمراقبة اي في حالة الجمع .و في الأدعية التوسلية للجزولي نجد الباء أكثر ورودا . ومن امثلتها :(اللهم ببركة الصلاة عليه اجعلنا بالصلاة عليه من الفائزين . وبسنته وطاعته من العاملين) (121) .

- (اللهم بخشوع القلب عند السجود لك ياسيدي بغير جحود ، وبك يا الله يا جليل فلا شيء يدانيك . . . و بما كان تحت عرشك حقا قبل ان تخلق السماوات) (122) .

و المعروف ان الجمع ياتي بعد الفرق الذي هو السعي ، و هو أقرب الى المعرفة و المشاهدة ،

---

(121) من حزب يوم الثلاثاء .

(122) من حزب يوم الاربعاء .

و لعل تركيز الجزولي على هذا المقام في " الدلائل " راجع الى انها مرحلة متأخرة من مراحل الذكر كما اوضحنا ، فالبدء الذي يمثل مقام الفرق يكون بالإكثار من الاستغفار لتأتي بعده التصلية التي تمثلها الاحزاب كالدلائل ، فالتهليل الذي هو أسمى مراحل الذكر .

4 - المستوى الصوتي ، و التركيب البلاغي : هل يمكن القول ان الجزولي كان يختار الحروف المعتمدة في احزابه و صلواته ؟ ام ان المحاور التي تدور حولها هذه الاحزاب و التي بنى عليها التصليات هي المتحكمة في ذلك سيتبين لنا ذلك بعد ايراد جدول تفصيلي للحروف الاكثر ورودا في الدلائل مرتبة بحسب تداولها و تداول المواد على وجه العموم :

حروف	مـــواد	تـــردد
أ	62	579
ب	26	149
ت	10	24
ث	4	9
ج	22	153
ح	40	192
خ	20	188
د	17	152
ذ	8	51
ر	31	223
ز	13	68
س	40	600
ش	31	15
ص	52	663
ط	7	36
ظ	3	12
ض	3	9
ع	78	518

مرتب بحسب حروف المعجم(يتبع)

حروف	مـــواد	تـــردد
غ	11	49
ف	17	70
ق	22	93
ك	20	89
ل	10	581
م	40	646
ن	30	212
هـ	13	31
و	25	132
ي	14	161
مجمـوع	669	5682

مرتب بحسب حروف المعجم(تتمة)

حروف	مــواد	تــداول
ص	52	663
س	40	600
م	40	646
ل	10	581
أ	62	579
ع	78	518
ر	31	223
ن	30	212
ح	40	192
خ	20	188
ى	14	161
ج	22	153
د	17	152
ب	26	149
و	25	132
ش	31	105
ق	22	93
ك	20	89
ف	17	70
ز	13	68

مرتب بحسب تداول الحروف(يتبع)

حروف	مــواد	تــداول
ذ	8	51
غ	11	49
ط	7	36
هـ	13	31
ت	10	24
ظ	3	12
ث	4	9
ض	3	9
	669	5682

مرتب بحسب تداول الحروف(تتمة)

مواد	تداول	حروف
78	518	عـ
72	579	أ
52	663	ص
40	600	س
40	646	م
40	192	ح
31	223	ر
31	105	ش
30	212	ن
26	149	ب
25	132	و
22	153	ج
22	93	ق
20	188	خ
20	89	ك
17	152	د
17	70	ف
14	161	ي
13	68	ز

مرتب بحسب تداول المواد (يتبع)

مواد	تداول	حروف
13	31	هـ
11	49	غ
10	581	ل
10	24	ت
8	51	ذ
7	36	ط
4	9	ث
3	12	ظ
3	9	ض
669	5682	

مرتب بحسب تداول المواد (تتمة)

احصاء الحروف الاكثر تداولا في " دلائل الخيرات "

تسمح لنا قراءة الجدول بإبداء الملاحظات التالية :

1) الحروف الأكثر تداولا هي المكونة للكلمات الاكثر تداولا ، والتي صنفناها في جدول سابق : ص (صلاة تصلية) ، م (محمد)، ل (اللهم) ، ا (آل) ، ع (عدد) ، س (سلم، سيدنا . بمعنى انه لم يختر حروفه بقدر مااختار محاور للأحزاب فتحكمت هذه المحاور في المواد والحروف .

2) لا يوجد تناسب بين عدد المواد و الحروف المتداولة : فعدد المواد المبدوءة بالعين ثمانية وسبعون في حين ان ترددها هو ثمان عشرة و خمسمائة مرة بينما بلغت الصاد ترددا اكثر في مواد اقل اي اثنتين وخمسين مادة بلغت ثلاثة وستين وستمائة تردد . ويمكن إبداء نفس الملاحظة بالنسبة لحروف اخرى مثل الألف باثنتين وستين مادة ، بلغت تسعة وسبعين وخمسمائة تردد ، فالسين بموادها الاربعين فقط بلغت ستمائة تردد .وهذا راجع الى وجود كلمة محورية اساسية تتردد أكثر من غيرها في اغلب الصلوات هي : صلى ، سلم ، سيدنا . . . في حين أن مواد العين و الألف اكثر تنوعا مع تردد اقل . . . ويمكن ابداء نفس الملاحظة بالنسبة لمواد وحروف اخرى مما يسمح بالقول أن هناك بضع كلمات محورية يجدها قارئ دلائل الخيرات امامه في كل الأحزاب تفرض نفسها عليه ، بينما لا يصادف كلمات اخرى إلا مرة او مرات قليلة .ويمكن القول كذلك - و نحن نبحث في المستوى الصوتي - أن تردد هذه الكلمات في حد ذاته يحدث تنغيما موسيقيا يواكب قارئ الكتاب من أوله الى آخره .

3) وعلى العكس من ذلك توجد حروف قليلة المواد كثيرة التردد وأخرى كثيرة المواد قليلة التردد : فمواد حرف الشين بلغت إحدى وثلاثين في حين أن تردد ترددها لم يتعد مائة وخمس مرات بمعدل ثلاثة ترددات للحرف تقريبا . اما حرف اللام فمواده عشرة فقط ، إلا انها ترددت احدى ثمانين و خمسمائة مرة أي بمعدل ثمان و خمسين مرة لكل مادة . و هـذا راجع الى عدم وجود كلمة محورية تبدأ بالتاء ، بينما نجد كلمة محورية بالنسبة للام (اللهم) وهذا يزيدنا تأكيدا ان المؤلف لم يكن يختار حروف مواده ، و إنما تفرضها عليه المحاور المعتمدة في الكتاب .

4) و يجب ان نبحث عن التنغيم الموسيقي ليس في اختيار الحروف و انما في تنسيق الكلمات و ترتيبها داخل التصليات المنسوبة للمؤلف ، سواء منها ماكان من إنشائه ، او مااعتمد فيه

على صلوات غيره مع الاكتفاء بإجراء إضافات وتعديلات داخلها . ويرتكز في ذلك على جمل قصيرة متقابلة تتداخل حروفها وتتقارب مخارجها اما بواسطة السجع او الجناس او هما معا، ومن امثلة ذلك

- (اللهم صل على محمد . . . ما سجعت الحمائم ،و حمت الحوائم ، وسرحت البهائم ، ونفعت التمائم ، و شدت العمائم ، و نمت النوائم . . .)(123) فالجمل قصيرة مشتملة على فعل و فاعل ، ولكنها مربوطة فيما بينها برباط التاء بالنسبة للأفعال ، و الميم بالنسبة للأسماء بالإضافة الى الجناس بين الحمائم والحوائم والعمائم والنوائم ...و بين الأفعال والأسماء : حمت والحوائم ، نمت والنوائم ،مثال آخر :

- (اللهم صل على محمد . . . ما ابلج الاصباح ، وهبت الرياح ، ودبت الاشباح ، و تعاقب الغدو والرواح ، وتقلدت الصفاح ، واعتقلت الرماح ،. . . .(124) فهذا مثال كسابقه يدور حول حرفي التاء و الحاء ، و هما من الحروف المهموسة ، وجملة قصيرة منغومة و متقاربة في مخارج حروفها . وكرر في صلوات أخرى حروفا عديدة أضفت على الكلمات طابعا موسيقيا تنغيميا . لا نريد الاطالة والاتيان بنماذج أكثر .

و بالاضافة الى هذا ، يسخر أساليب بلاغية اخرى كالتكرار و المطابقة أو التقابل :

- (اللهم اني أسألك من خير ما تعلم ، و اعوذ بك من شر ما تعلم واستغفرك من كل ما تعلم ، انك تعلم ، و لا نعلم ، و انت علام الغيوب . . .) (125) فالتكرار أساس الذكر و لا يمكن ان يقوم بدونه ، سواء تعلق الامر بتكرار الالفاظ في تلك الصلاة او تكرار الصلاة نفسها ، لذا نجد أغلب صيغ الصلاة الإبراهيمية قائمة على التكرار . و هذا ما يجعل ألفاظها تتردد و تكون بمثابة لوازم موسيقية كما في هذه الصلاة :

- (اللهم صل على محمد في الأولين ، وصل على محمد في الآخرين ، وصل على محمد في

(123) من حزب يوم الاحد .

(124) من حزب يوم الاحد .

(125) من حزب يوم الثلاثاء .

النبيئين، وصل على محمد في المرسلين ،وصل على محمد في الملأ الأعلى الى يوم الدين)(126) فأضاف الى تكرار اللازمة الموسيقية " صل على محمد " السجع الذي تنتهي به كل جملة ، و المقابلة بين خواتمها . و قال كذلك : - (اللهم صل على محمد . . . الفاتح الخاتم عدد ما في علمك كائن أو قد كان ، كلما ذكرك و ذكره الذاكرون ، و كلما غفل عن ذكرك و ذكره الغافلون صلاة دائمة بدوامك ، باقية ببقائك) (127) فبنى هذه التصلية على اشتقاق مدلولات من جذور كان ، ذكر، دام، بقي . و كثيرا ما يتجاوز الكلمتين الى عدة كلمات مستمدة من جذر واحد وتكون نغمات متقاربة . وفي هذه التصلية كذلك اهتمام بالمقابلة المعجمية بين ذكر وغفل فاتح خاتم

وقد يجمع بين هذا الاهتمام البلاغي وتطور الدلالة وتتبعها، فقد جاء في احدى تصلياته :

- (اللهم صل على محمد نور الانوار ، و سر الاسرار، وسيد الأبرار، وزين المرسلين الاخيار . . . وأكرم من اظلم عليه الليل ، واشرق عليه النهار ، وعدد ما نزل من اول الدنيا الى آخرها من قطر الامطار، وعدد ما نبت من اول الدنيا الى آخرها من النبات والاشجار ، صلاة دائمة بدوام ملك الله الواحد القهار (128) .

فقد بنى التصلية كلها على الراء الذي لم يكتف بإنهاء الجمل به ، وانما يورده في صلبها ، و المجانسات بين الأنوار والاسرار والأبرار. ونوع بين الجمل القصيرة والطويلة و بناها على المقابلة المعجمية بين الأفعال والاسماء ودلالاتها : اظلم واشرق / الليل و النهار / اول الدنياو آخرها . . . وفيها كذلك تلك الألفاظ التي تقوم مقام اللوازم الموسيقية في ترددها : " عدد ما . . . من أول الدنيا الى آخرها . . . "واضاف الى هذا كله ما سميناه بتطور الدلالة : اختلاف الليل والنهار أو تعاقب الفصول-----> ينتهي الى نزول الامطار ، ثم بزوغ النباتات ...وهي عملية متكررة دائمة دوام ملك الله. هذه الفكرة تتردد على الخصوص في محور التعداد والاستمرارية ومن خصائص تصليات الجزولي ما يمكن تسميته بالتفريع والتكثيف :يسوق المعاني في تصليات قصيرة يفرعها

(126) من حزب يوم الاثنين .
(127) من حزب يوم الخميس
(128) من حزب يوم الخميس

تقريبا ، ويعود ليكثف هذه المعاني كلها أو أغلبها في تصلية واحدة مطولة من ذلك قوله :

- اللهم صل على محمد عدد من صلى عليه .

- اللهم صل على محمد عدد من يصلي عليه .

- اللهم صل على محمد و على آل محمد عدد من لم يصل عليه .

- اللهم صل على محمد عدد ما صلى عليه .

- اللهم صل على محمد عدد مالم يصل عليه .وتأتي صلاة واحدة لتجمع كل هذه الصلوات بنفس الصيغة تقريبا. والقصد من هذا التنغيم الموسيقي والتكرار . وهذا الاخير من مقومات الأذكار والادعية . والهدف منه التأكيد .

الخاتمــــــة : " دلائل الخيرات " اشهر كتب الصلاة علي النبي على الاطلاق ، اهتم به الصوفية والعلماء منذ تأليفه ، ومازالوا . وكان من نتيجة ذلك أن تعددت شروحه ، والكتب التي سارت على نهجه ومنواله (129) فكان صاحبه بحق رائد مدرسة كبيرة في ادب الأذكار والصلوات . ولعل هذه الاهمية كانت وراء اختلاف الاحكام حوله و حول ادب الأذكار عموما اذ وجد تيار مناهض لها و للتصوف عموما ، يحمله مسؤولية ما عرفه العالم الاسلامي من تأخر وضعف ، وما عرفه المسلمون من تواكل وخنوع و شعور بالعجز (130) .

و بقطع النظر عن سلبيات بعض المذاهب و الطرق الصوفية ، فإنه لايجب اغفال الادوار الاجتماعية والسياسية والعلمية التربوية لطرق صوفية اخرى، وقد قدمنا في الباب الاول امثلة معبرة عن بعض هذه الادوار.والظاهر ان دلائل الخيرات قد صادف هذه العناية والاهتمام المتجددين

---

(129) ستكون لنا عودة الى اثر الكتاب في اوساط الصوفية عموما و بمراكش خصوصا ، و كذا شروحه و الكتب التي صارت على نهجه

(130) بدات الحملة على الصوفية قبل وجود الجزولي ، و كان رواد السلفية من ابرز المناهضين له مؤخرا . انظر امثلة لهذه المناهضة في كتاب دراسات في العقلية العربية ، د. ابراهيم بدران ود. سلوى الخماش ط . دار الحقيقة 1979 .

على الدوام بسبب :- احالاته القرآنية و الحديثية خاصة ، اذ انه عبارة عن سلسلة متواصلة من الاحاديث ، وحتى الادعية التوسلية والصلوات الموضوعة من طرف المؤلف نفسه او غيره من الأولياء تتخذ الحديث اساسا لها . فكأن مرددها قارئ للقرآن والحديث .

- ان هذه الاحاديث من الادعية المأثورة التي بينت الكتب فضائل ترديدها و جزاء العمل بها ، لذلك يسارع المريدون الى قراءتها طلبا للثواب .

- بساطة الكتاب في ترتيبه و نظامه ، ووضوح عبارته ، ونبل مقصده .فصاحبه لم يذهب الى ما ذهب اليه بعض مؤلفي الأذكار من ايثار التعقيد والجري وراء الغموض والرموز واللعب بالألفاظ.

- هذا الاعتدال وتكريم النبوة بالصلاة على صاحبها ، كان من اسباب انتشارالكتاب وذيوع صيته . فوجدنا مثل هذه الجمل القصيرة المعبرة تتردد في كثير من كتب التراجم و الطبقات (يواظب بقراءته في المشارق و المغارب لاسيما في بلاد الروم) (131) .

وقد ذكر في مجال المقارنة بين قراءة القرآن ودلائل الخيرات : ان قراءة القرآن افضل بالنسبة للمسلمين ، وقراءة الدلائل افضل بالنسبة لغير المسلمين ، لان الكتاب المقدس طاهر لايمسه الا الطاهرون (132) ، لهذا تشير المصادر الى هذا التخصيص (بلاد الروم) .

وبالاضافة الى هذه الاسباب ، كانت لكتب الأذكار - ومنها دلائل الخيرات - ادوار تربوية نفسية كبيرة الاهمية : فهي وسيلة من وسائل تطهير النفس والترقي في معارج السلوك قصد الوصول الى مقام المعرفة الذي هو غاية كل سالك . و العلاج عن طريق اللغة معروف و متداول ، وقد اعاد اليه علم التحليل النفسي الاعتبار .

لذلك حدد الصوفية ماهية لغة الذكر والظروف التي يجب ان يتم فيها : وجعلوا لها شروطا وآدابا ، وذلك ليكون التأثير أعمق بنفوذ الفاظ الذكر و معانيه الى قلب الذاكر .

---

(131) كشف الظنون 1/495 .

(132) سورة الواقعة 79 .

وكانت الاذكارغالبا ما تتلى وتنشد حسب أوزان و نغمات موسيقية اما بواسطة الآلات او التوسيد . و معروف ان الموسيقى تؤثر في الوجدان ، ذلك لأن عبارات الذكر غالبا مالاتعبر عن أعماق ما يشعر به الصوفي المريد فيتم له ذلك بواسطة الإشارة والتجريد ، ويتحقق ذلك بالسماع حيث تتمتع الموسيقى بقدرة أكبر على التبليغ والتوصيل والتأثير . لهذا يتواجد الصوفية عند السماع وتطيب نفوسهم ، أكثر مما يتواجدون في الذكر لأن الإشارة تهيج أكثر من العبارة لمخاطبتها للعاطفة أكثر من العقل . وقد وضعوا لذلك قواعده واصوله بعدما أجاز كبار الأئمة والصوفية السماع ما لم يكن فيه اسقاط المروءة ، وعلى رأسهم الشافعي والجنيد وغيرهما وجعلوه أحد المواطن الثلاثة التي تنزل فيها الرحمة على الفقراء (133) .هذا العلاج النفسي عن طريق السماع ممكن الوقوع في كل مراحل التطهر الصوفي ، الا في مقام البقاء و التمكين حيث لا يحتاج السالك الى التواجد لأن الله حاضر لديه دائما و يكون ذاكرا له بقلبه دائما .

هذه بعض الأدوار الاساسية التي كان ادب الأذكار – و على رأسها الدلائل – ينهض بها فقد اضيفت اليها مع مرور الزمن ادوار اجتماعية و اقتصادية بحسب البيئات و المجتمعات الاسلامية جعلت العناية به تتزايد ، الشيء الذي جعله اشهر كتب الصلوات و الأذكار .و سيتضح لنا ذلك اكثر عندما نتتبع آثار هذا الكتاب في ادب الاذكار على وجه العموم (134).

---

(133) التصوف الاسلامي الخالص 76 –77

(134) في الباب الثالث من الاطروحة .

المطلب الثاني - أحزاب الجزولي

سبق ان تحدثنا عن التصنيف الخماسي للأذكار واهمية كل مرحلة في التهيىء للتي بعدها وهي الاستغفار ، التصلية ، التهليل ، وذكر التنزيه والذكر المفرد (منزلة الطمأنينة) وهو آخر مقامات الاحسان (135) .و مثلث للصنف الاول بحزب الشيخ ابي العباس السبتي ، و للصنف الثاني بدلائل الخيرات . وتجمع أحزاب الجزولي بين هذه الاصناف كلها.لاشتمالها على دلالات الاستغفار والتصليتوالتهليل .

وبما اننا قد سبق ان حللنا اهم نصوص الجزولي في الأذكار (دلائل الخيرات) فإننا سنكتفي في هذا المطلب بالتعريف بأحزاب الجزولي واهم مايميزها .نسبت للجزولي عدة احزاب وأوراد (136)، اهمها :

- الحزب الصغير او حزب الفلاح .
- الحزب الكبير او حزب الشيخ الجزولي المعروف " بسبحان الدايم " .
- حزب الفلاح (137) : ينقسم الي قسمين :

أ) قسم من تصنيف الشيخ الجزولي ، يحتوي على تصليات قصيرة من انشائه او مستمدة من القرآن الكريم :

- التعوذ بالله و البسملة .

---

(135) المبحث الاول من هذا الفصل

(136) بالاضافة الى الحزبين المشهورين للجزولي ، حزب اخر و هو " النصح التام " ، و دعاء " يارب الهمنا الى الخير " مجموع في الادعية و الاحزاب ، م . كلية الاداب بالرباط 115 ، ص 193 - 195 ، و ممتع الاسماع 33 و السعادة الابدية 39/2 ، و الاعلام 103/4 .

(137) هناك عدة نصوص، اعتمدنا نص م . تطوان رقم 447 ص 287 - 298 .

- آية : و قل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا (138) .

- آية : الحمد لله الذي هدانا لهذا (139) .

- تصلية الاستحقاق .

- آية : ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا (140) .

- تعوذ بالله .- دعاء باسم الله الذي لايضر مع اسمه شيء .

- التسبيح و الحمد (ذكر التنزيه) .

- الاستغفار و التهليل (و تتلى هذه التصليات ثلاث مرات)

2) المسبعات العشر المنسوبة للخضر عليه السلام رواها عنه حسب ما جاء في مقدمة هذا الحزب : الخليل ابراهيم التيمي احد كبار التابعين . وذكرابو طالب المكي في قوت القلوب (141) فضائلها و قصتها . قال الشعراني :ومازال الشيوخ يروونها ، ويامرون المريدين بها من ابي القاسم القشيري الى شيخنا الحريثي (142) .و لا يهمنا ان ندخل في تفاصيلها مادامت منسوبة للخضر ، ولايد للشيخ الجزولي فيها سوى تلاوتها ودعوة المريدين الى تقليده بجعلها جزءا من حزبه . وعلى العموم فانه اقتدى بها في القسم الأول من حزبه المذكور اذ انها لا تخرج عن :

- آيـات قرآنية وخاصة السـور القصيرة كـ"الاخلاص والفلق والكافرون . . ."

- الاستغفار ، التسبيح والحمد، والتهليل.

- ادعية توسلية في موضوع التماس العفو والحفظ واللطف والفضل والفوز .

---

(138) سورة الاسراء ، آية 111 .
(139) سورة الاعراف ، آية 43 .
(140) سورة آل عمران ، آية 8 .
(141) قوت القلوب في معاملة كل محبوب ، ط . بابي الحلبي 1961 ، ص 15 - 16 ج 1 .
(142) حزب الفلاح ص 291 ، وطبقات الشعراني 1 / 35 .

- وتختم بصلوات على الانبياء والمرسلين والملائكة .هذه التصليات والادعية تكرر سبع مرات (المسبعات) .

- **حزب الشيخ او الحزب الكبير** : يشتمل على ثلاثة اقسام

- الاول - في تعظيم الخالق ، وذلك عن طريق :

- ذكر اسمائه الحسنى مقرونة بالتهليل " العزيز والجلال - لااله الا الله " الحكيم ذو الجمال - لااله الا الله "

- ذكر اسمائه الحسنى مقرونة بالتسبيح " سبحان الدايم لايزول " سبحان الباقي لايفنى " .

- تنزيهه عن النظير و الشبيه والمثال ، عن الحدوث ، وعن الضد والندّ. . . ويقدم امثلة بالمقابلة بين حالي الخالق والمخلوق " الخالق واجب ، و المخلوق جائز " الخالق قديم والمخلوق حادث " الخالق غني و المخلوق فقير " .

ومن صفاته انه لايختص بالمكان ولابالزمان لأنهما محدثان مفتقران ، وهو القديم الغني .
- دعوة الى التوحيد و العلم به اذ لايعذر المكلف في جهله بالتوحيد " الجاهل بالتوحيد لايوصف بالايمان " .

- التوسل الى الله مع ذكر الاسم المفرد و الاسماء الحسنى (ونحن عبيدك طامعين في فضلك (كذا) ، يارحيم ، يا لطيف ، يا جواد ، ياحليم ، ياكريم الله ، الله ، مولانا انت الواحد الاحد . . .)

- ختم هذا القسم بالتسبيح .

- الثاني ، في الصلاة على الرسول و تكريمه ، و محور هذه الصلوات هو اسماء الرسول والقابه " الصلاة و السلام على زين المرسلين " الصلاة و السلام على صاحب المعراج " الصلاة والسلام على البشير النذير " ويذكر هذا القسم من الحزب بالمحور المشابه له في تصليات دلائل الخيرات وختمه بالترضية على الصحابة وعلى رأسهم ابو بكر وعمر وعثمان وعلي .

- **الثالث ، الزيادات** : تنص نسخ الحزب الكبير على وجوب قراءة الزيادات المكملة له :

-.- الاولى من وضع كبير تلامذة الشيخ وهو ابو عبد الله محمد الصغير السهلي ،

-.- الثانية ، من زيادة تلميذه احمد بن عمر الحارثي دفين خارج مكناسة . وقد اطلع الشيخ على الزيادتين واقرهما عليها ، وأذن للمريدين بقراءتهما مع الحزب (143) .

أ) زيادة الصغير السهلي : تكملة لحزب شيخه فقد وقف عند الترضية على الرسول وصحابته ، وأضاف الصغير فقرة في الترضية على الاولياء والصوفية " اهل المجد والتعظيم رضي الله عنهم " اهل الحب والشوق رضي الله عنهم " اهل النور والسر رضي الله عنهم " وختمها بالسلام على النبي لما للسلام عليه من اهمية وثمرات (144) .

ب) زيادة الحارثي ، التوسل باولياء المشرق والمغرب مع التركيز على اعلام الطريقة الجزولية المشاهير : كالجنيد ، معروف ،الشبلي ،ابن مشيش ، الشاذلي . . . وعباراته عامية مبسطة بركة السادات ياالهي ، معنا تحضر ياالهي ، يا اهل المشرق ياالهي واهل المغرب ياالهي . . . الجنيد ياالهي ، الثوري ياالهي ، سيدي اويس ياالهي . . . "وقد ترك التوسل مفتوحا اذ ختمه بقوله : "بركة سيدي . . . ." ياالهي ، معنا تحضر ياالهي "ليتمكن كل مريد في مكان و زمان ما ، من وضع اسم شيخه في الطريقة و الختم به .

- اهم مميزات الاحزاب : بالرغم من وجود نقط التقاء بين الاحزاب ودلائل الخيرات باعتبارها كلها من ادب الاذكار فان هنالك نقط اختلاف بينها :

1) في القصد : في ممتع الاسماع (145) عن ابي العباس احمد بن ابي المحاسن الفاسي، و ابي الطيب الحسن بن يوسف الزياتي ان الشيخ الف هذا الحزب لاهل داره و عياله يقرؤونه في الدار . بينما ألف دلائل الخيرات لهدف اهم وأعظم هو تكريم النبي بالصلاة والسلام عليه، ومايحصل للمصلي من فضائل وفوائد بسبب ذلك .وصارت الاحزاب خاصة بمريدي الطريقة الجزولية يقرؤونها بعد صلاة الصبح ولم تدرك ماادركته الدلائل من اهمية وانتشار :

---

(143) ممتع الاسماع 29 .

(144) ميزاب الرحمات 282 - 285 . انظر زيادة السهلي في حزب الفلاح .

(145) ممتع الاسماع 30 .

أ) وان كانت هي الاخرى قد ذكرت لها فضائل ، فعند ابي العباس احمد بن ابي المحاسن الفاسي السابق الذكر ان من واظب على قراءتها وجد لها بركة و نورا في قلبه (146) .وهذا هو الهدف من كل ذكر اي تصفية الفؤاد وطمأنة النفس بمعالجة عللها ليتهيأ المريد الى المقام اللاحق .

ب) وشرحها بعض العلماء اشهرهم ابو العباس احمد بن ابي القاسم التادلي (147) . ومحمد بن عبد الرحمن العياشي(148) وعبد الوارث اليالصوتي (149) وفي مجموع بالخزانة اليوسفية شرح للحزب الكبير لايعرف مؤلفه (150) .

<u>2 - في المحتوى :</u> بينما يمثل دلائل الخيرات مرحلة من مراحل الذكر خاصة ، و هي مرحلة الصلاة على النبي ، نجد الحزب يجمع بين كل المراحل وذلك لانه حزب يومي يصلح لكافة أصناف المريدين سواء في ذلك من كان في بداية السلوك (الاستغفار) او في نهايته (الاسم المفرد) فالحزب عام ، و الدلائل خاصة يلتقيان في الصلاة على النبي والاكثار من ترديد اسمائه والقابه . ويزيد عليه الحزب بالتركيز على التهليل و ترديد الاسم المفرد ، وقد سبقت الاشارة الى ان التهليل مفضل عند العلماء على الصلاة على النبي (151) . وفي الصحاح احاديث في اهميته وفضائله وفوائده (152). كما ان الذكر المفرد هو العنوان على الوصول الى الهدف وبلوغ القصد .

ونقط الالتقاء بين الدلائل والاحزاب اكثر من نقط الاختلاف :

1 - ليست كلها من انشاء المؤلف : ففيها ماهو مجرد جمع كالصلاة الابراهيمية بصيغها

---

(146) ممتع الاسماع 30 ، و نسب المؤلف لحزب الجزولي فضيلة اخرى في حادثة ترجع الى عهد السلطان ابي عبد الله محمد الشيخ ص 29

(147) شرح حزب الفلاح ، ممتع الاسماع 32 .

(148) شرح حزب الفلاح ، م.خ.ع.ر.1638د ، 163- 178

(149) شرح حزب الكبير ، ممتع الاسماع 32

(150) م . خ . ابن يوسف 377 . ضمن مجموع ، في 41 ص ، منسوب لمؤلف اسمه عبد الوارث ، يذيل النسخة السهيلية للدلائل ، لعله عبد الوارث اليالصوتي المذكور اعلاه .

(151) المبحث الاول من هذا الفصل .

(152) انظر صحيح البخاري 106/8 ، ط . الجيل ، و عمل اليوم و الليلة للنسائي احاديث 140 - 154 - و من 831 الى 839 .

وبعض الادعيـة النبوية ، وصلوات منسوبة لبعض الصحابة والائمة والاوليـاء في دلائل الخيرات والآيات القرآنية ، و المسبعات العشر المنسوبة للخضر في الاحزاب في حين ان صيغ صلوات اخرى وخاصة في الادعية التوسلية ومحور التعداد و الاستمرارية وغيره هي من انشاء الجزولي وكذلك هو الشأن في اغلب حزبه الكبير .

2 - **تشابه في الاسلوب** : صلوات الدلائل والاحزاب تتميز :

- بوضوح العبارة لمخاطبتها فئات مختلفة المستوى والثقافة وقاعدتها الكبرى امية . وقد لوحظ على الحزب - سواء القسم المنسوب للجزولي او اضافات الصغير والحارثي - استعمال عبارات عامية ، و اعطاء الوصل حكم الوقف ، ومد المقصور ، وقصر الممدود ، وتسكين المتحرك ، وتحريك الساكن .(153)

- قصر الجمل : فلا تتعدى اربع الى سبع كلمات على وجه العموم

- كثرة الاحالات القرآنية في الاحزاب ، والحديثية في الدلائل .

- التكرار ، وقفنا على انماطه واساليبه في الدلائل ، ويشبهها ما ورد في الاحزاب ، فمن تكرار التصليات المركزة على اسماء الرسول والقابه ، " اللهم صل على نبينا الممجد " اللهم صل على صاحب المعراج " اللهم صل على راكب البراق " .وفي تكرار التسبيح " سبحان الله العظيم " سبحان الله العلي العظيم " سبحان الله الجليل الجميل " صياغة جمل متشابهة لا تميزها الا كلمة واحدة : " فأوجد الموجودات ليعرف جل جلاله "" فأوجد الموجودات ليعبد جل جلاله "تكرار الاسم المفرد : الله ، الله ، الله . . . وغير خاف ان لهذا الاسلوب دوره في مساعدة المريد على تخطي ما تعانيه نفسه من علل . وينص المؤلف في الاحزاب على تكرار بعض هذه الصيغ عدة مرات . هذا بالاضافة الى التلاوة اليومية للحزب، و هذا في حد ذاته تكرار.- وفي الدلائل كما في الاحزاب اهتمام بالجانب الصوتي : عن طريق الاكثار من السجع والجناس ، ولاتحتاج الى اعطاء امثلة لترددها في الاحزاب بكثرة . والمقابلات المعجمية في مثل " المولى واجب والمخلوق جائز " المولى قديم والمخلوق حادث " المولى دائم

---

(153) انظر ملاحظات احمد بن ابي المحاسن الفاسي على الحزب في ممتع الاسماع 30 .

المبحث الثالث - أذكار الغزواني

تحدثت كتب التراجم و الطبقات عن صرامة ابي عبد الله الغزواني في حلقات الذكر ، وحرصه على جدية المريدين و التزامهم بشروط الاذكار واوقاتها (155) . وكان يربيهم كما تعرف برائية الشريشي " انوار السرائر وسرائر الانوار " . الا انهم كانوا يرددون اذكارا مختلفة بعضها من تاليف شيوخ الطريقة الجزولية كالجزولي و السهلي و الحارثي و التباع ، و بعضها من تاليف الشيخ الغزواني نفسه .فمن الاحزاب و الادعية التي الفها :

1 - الاحزاب : ورد اغلبها في كتاب النقطة ، و هي :

أ) الوظيفة الغزوانية : (156) تشتمل علي اربعة اقسام ، يبدأ كل واحد منها بآيات قرآنية مختصرة من سورتي البقرة و آل عمران في موضوع توحيد الله ، و اسمائه الحسنى ، او ببعض السور القصيرة كسورة " الكافرون " و سورة " النصر " و " الاخلاص " و " الفلق " و " الناس" . . . تاتي بعدها الادعية والتصليات :

- في التعوذ بالله من كل اشكال الكفر و الهم والكسل ، وطلب مغفرته و عونه .

- في تسبيحه و حمده و الاعتصام به و التوكل عليه

- في الاستغفار و التهليل .- في الصلاة و السلام على الرسول الكريم و الترضية على آله و اصحابه و اتباعه الى يوم الدين .

ب) ورد الصباح (157) : يردد فيه الغزواني بعض صيغ التسبيح الماثورة عن الجزولي :

---

(155) روى ابو محمد عبد الله الهبطي قصته مع شيخه الغزواني عندما ضربه في حلقة من حلقات الذكر بعصاه فوق حاجبه . فكان يقول " كل ما فتح علي به انما هو من بركة سيدي ابي محمد الغزواني " دوحة الناشر 99

(156) م . خ . بمراكش .

(157) النقطة 11 .

" سبحان الدايم ، سبحان الدايم "

" سبحان المجود ربي ، سبحان المقصود ربي "و الاسم المفرد : الله ، الله ، الله ، دايم ربي "وجاءت الاشارة الى هذا الوِردْ في معرض الرد على رسالة اللقاني و قد ذيله الشيخ بدعاء اعتبره من الادعيـة التي يفتح بهـا الله تعـالى للناس " يارب الهـمنا بوحي الالهـام ، و افض علينا من العلم القديم، فانت مقصود يامولى الموالي ، و أجذبنا لكل اوصاف الكمال ".و الملاحظ ان هذا الورد خال من الاحالات القرآنية على غير عادة الغزواني .

ج) حزب المرنحين و امان الصـادقين (158) : مركز في موضوع اسماءالله الحسنى فضائلها ، يسير فيه على وتيرة واحدة ، فهو لا يذكر الاسم بالصيغةالتي جاء بها في الكتاب المبين ، وانما يبدل هذه الصيغة :" الجواد هو ذو الجود . . . " ويختمها بالالتزام الواجب نحوه تعالى :" الحمد لله الذي لابد لنا من لقائه ،العلي المستتر الذي لا بد لنا من شهوده ، ذو الجود و الاكرام لابد لنا من الوقوف بين يديه الواحد الاحد الصمد لابد لنا من تحقيق ذاته "و ينهي الحزب بالصلاة على النبي آله و اصحابه وازواجه و ذريته .

د) حزب الواصلين عند سدرة المتخلقين من رؤية آيـــــات رب العـالمين (159) : يشتمل على ستة عشر توسلا في صيغة السؤال " المتداولة في ادب الأذكار " نسألك اللهم ". ويدور موضوعها حول طلب العفو و الحفظ والـرزق واالسكينة وتنوير القلب ، والتغلب على تآمر النفس ورغائبها . . . الى غير ذلك من موضوعات التوسل والاستغفار .و يختم ببعض الصيغ التوسلية بآيات قرآنية بنصها ، او يحيل الى بعضها .

هـ .دلائل التحقيق (160) : يشتمل على قسمين متكاملين :

- الأول : في تعظيم الخالق و توحيده عز و جل و إبراز قوته و عزته وجلاله و قدرته على الخلق و احتياج مخلوقاته اليه . و في ملكه وسلطانه وعلمه وعدله و حلمه . . . يستهله بقوله "

---

(158) النقطة 133 – 134 .

(159) النقطة 134 – 138 .

(160) النقطة 138 – 139 .

الله ياالله ، ياقوي ياعزيز ، ياعلي توتي الحكمة من تشاء ، و تنزع الملك ممن تشاء ، و تعز من يشاء و تذل من تشاء . . . سبحانك لااله الا انت ما أعظمك ، و لااله غيرك ، انت الله الواحد الكبير ، العلي الخبير . . . "و يختم هذا القسم بآيات قرآنية عديدة تؤكد هذه المعاني .

- الثاني : في الصلاة على النبي الكريم ركزها في محوري : الاسماء والاستمرارية المترددي في تصليات الجزولي " وصلى الله على سيدنا محمد المختار صلاة منا عليه نقية صافية . .. مقدسة من كل غير ، و دائمة بدوام الله . . ." وخص فيها آله و ذريته وأصحابه بالصلاة و التسليم . وختم هذا القسم كسابقه بآيات قرآنية .

2 - ادعية توسلية (161) : تناول فيها - كما في موضوعات التوسل عموما - طلب العفو و المغفرة و العلم و اللطف و التوبة و السكينة والطمأنينة مع الاعتراف بقضاء الله و قدره وعظمته و عدله وحلمه و الخضوع لمشيئته . و يصلي اثناء الدعاء او بعده على النبي الكريم مبديا نوعية هذه الصلاة و تعميمها لتشمل الآل و الاهل و الذرية و الاصحاب ، كما انها لا تخلو من اشارات الى بعض آيات الذكر الحكيم تعظيما و احتراما لقدره و جلاله .

تنهض الاحزاب والاوراد بادوار نفسية و تربوية مهمة اذ يعتبرها المريدون بمثابة عهود ومواثيق ياخذها الله على عباده بواسطة المشايخ لهذا كانوا يحرصون على الالتزام بها وتطبيق مقتضياتها .

وكان الشيوخ يجتهدون في صياغتها حريصين على مضامينها ومستواها الشكلي كل بحسب طريقته واتجاهه وآرائه في التربية والتلقين . وحياة الطريقة تكون متوقفة في الغالب على مدى فعالية اورادها وغناها وتنوعها واستقطابها للمريدين واجتذابهم .فلدلائل الخيرات واحزاب الجزولي دور في انتشار الطريقة الجزولية واشعاعها داخل المغرب وخارجه في حين ان الفرع التباعي منها لم يصادف نجاحا لعدم وجود احزاب وادعية توثق الصلة بين المريدين و الطريقة . لعل حظ تلميذه الغزواني كان أوفر لوجود هذه الاوراد و الادعية الصادرة عنه والتي كان المريدون يرددونها سواء في

---

(161) ورد بعضها في كتاب النقطة 88 - 89 - 140 .

زاويته بفاس او بالهبط او بمراكش و بالزوايا التابعة للفرع الغزواني من الطريقة الجزولية .وسنحاول ـ بعد تعرفنا الى هذه الأحزاب و الادعية - رصد اهم مميزاتها باعتبارها ممثلة لاتجاه تربوي داخل الطريقة الجزولية الأم .

1 - الاحزاب و مقامات السلوك : لم يحدد الغزواني اوقات تلاوة هذه الاحزاب بدقة عكس ما كان عليه الجزولي من تحديد يوم قراءة كل حزب او مجموعة الاحزاب . باستثناءما سميناه ورد الصباح الذي أشار الشيخ في رسالته الى اللقاني الى ترديد المريدين له كل صباح (162) . وذلك بعدما يستفتحون الاذكار بعبارات " باسم الله ، باسم الله يا الفضايل باسم الله . . . " عدة مرات . و ورد الصباح المذكور مستمد في اغلبه من " سبحان الدايم " حزب الجزولي .

وحسب شيوخ الطريقة الغزوانية ان الوظيفة الغزوانيــة كــانت تقرأ - ومازالت - يوم الجمعة بعد صلاة العصر . و اختيار هذا التوقيت راجع الى الأحاديث التي تنص على فضائل ذكر الله بعد صلاة عصر كل جمعة (163) . واذا اخذنا بعين الاعتبار حجم الوظيفة ، ومعامل القراءة (اي عدد مرات الترديد) تبين بالفعل انها تستغرق وقتا غير قصير .

و يبدو من عناوين الاحزاب ان الغزواني كان يضع في اعتباره مقام المريد فيخصص حزب المرنحين للمبتدئين ، و حزب دلائل التحقيق للمتوسطين ، وحزب الواصلين للواصلين .و هذه اهم مراحل السلوك اذ من المعروف عند الصوفية ان أول الوِرد تطهير، و وسطه تنوير ، و آخره تعمير . لهذا السبب اختلفت مضامين الاحزاب بعض الاختلاف .اما الادعية التوسلية فتردد في ظروف خاصة من طرف كل المريدين بدون مقامهم في السلوك .

2 - تنوع المضامين : يفرضه تنوع المقاصد و الغايات فمن الاذكار ما يبدأبه كالاستغفار، و ما يأتي بعد التعود على الذكر كالتصليات ، وما يختم به عند قطع مراحل من السلوك كالاسم المفرد .

---

(162) النقطة 11

(163) احاديث في افضل الصلوات 24 - 16 وفي مقدمة كتب الاذكار عموما.

وقد لاحظنا ان الغزواني وان لم يوضح ذلك صراحة في بداية احزابه : قد ركز " حزب ...حين " في ذكر اسماء الله الحسنى و فضائلها ، في حين جمع " حزب دلائل التحقيق " بين تعظيم ...الق والصلاة على الرسول و التسبيح والتهليل ، وهي اذكار صالحة لعدة مراحل من السلوك .اما ...ب الواصلين " فقد اهتم فيه بالادعية التوسلية التي تردد عادة بعد الانتهاء من الاذكار بأصنافها ، ...ختار لها صيغة السؤال من اولها الي آخرها تأكيدا لحاجته و احتياجه ورغبة في معالجة علل نفسه ...يويهـا ، واعتبارا لأهمية وظيفته و دورها التربوي في الطريقة، وجدناها جامعة لاصناف ...ذكر من الاستغفار الى التهليل مرورا بالصلاة علي النبي والتسبيح والحمد والتنزيه لتكون بذلك ...الحة لكل فئات المريدين والذاكرين . كما يمكن لكل واحدة ان تكتفي بترديد ما يهمها منها ، ...ون باقي الفقرات ، خاصة وانه قد فصل بينها بآيات قرآنية او سور بكاملها .

3 - حضور النص القرآني: يحضر النص القراني في هذه الاحزاب بإلحاح اكثر من ...ضوره في دلائل الخيرات مثلا . فالطريقة الجزولية طريقة سنية تلتزم بالكتاب و السنة و لا تبتعد ...ن نوعياتهما و مقاصدهما . وكانت مرحلة الخلوة من مبادئها و تعليماتها ، و فيها ينقطع المريد عن ...ناس ليخلو الى نفسه ويحاسبها قبل ان يدخل مرحلة جديدة في حياته و هي مرحلة العهد و الارادة . ...في الخلوة يكون القرآن الكريم اهم أذكار المريد (164) .

لهذا يحضر النص القرآني في احزاب الطريقة الغزوانية الجزولية ، ويبدو ان هذا الحضور ...كثف في وظيفة الشيخ ، فقد عرض عدة آيات من سور، او سورا بكاملها لتكون فاصلة بين فقرات ...لتصلية و الادعية .

وبديهي ان المؤلف كان يراعي مطابقة الآية او السورة لمعاني الفقرة الواردة فيها ، فآيات ...لوظيفة مثلا تتناول الموضوعات التالية :

توحيد الخالق وتعظيمه ، اسماء الله الحسنى ، الدعوة الى عبادته الحمد و الاستغفار .

(164) كان الجزولي يقرأ في خلوته كل ليلة – مدة اربع عشرة سنة – سلكة وربع السلكة من ...القرآن بالاضافة الى سلكتين من دلائل الخيرات وعدد كبير من " باسم الله الرحمن الرحيم " ...ظهار الكمال 270 ، و الاعلام 84/5 .

واهتـم " حزب دلائل التحقيق " برموز القرآن و حروفه للإحالة الي موضوعات القوة و العزة و الحكمة والملك الالهي التي يتناولها الحزب .

<u>4- المعجم اللغوي</u> : تتحدد طبيعة المعجم اللغوي من خلال مضمون الحزب : فالاحزاب الجامعة لموضوعات الذكر عموما يتنوع معجمها بين الفاظ الاستغفار و التصلية و التسبيح والتهليل، في حين ان الادعية التوسلية يتردد فيها معجم ذو شقين :

– الاول : كلمات تعبرعما هو كائن : ظلم النفس، الكفر بالنعمة ، البخل ، الكسل . . .

– الثاني : كلمات تعبر عما يؤمل ان يكون : العفو ، الغفران ، الستر ، الشكر يواكبهما شق ثالث يعبر فيه عن تعظيم الخالق و اجلاله و تقديسه واللهج بأسمائه الحسنى .و قد عودنا الغزواني في كتاباته الصوفية على الغموض وتداخل المعاني و الاسترسال فيما سماه " مناجاة الالهام " التي يعبر فيها عن معاناته وخواطره بلغة و رموز يصعب الكشف عن دلالاتها . الا انه في هذه الاحزاب يلتزم البساطة في القول ، و وضوح العبارة و جزالة المعنى :

أ – فالاستغفار او التصلية او التسبيح لا تستدعى ماسبقت الاشارة اليه في المناجاة .

ب – هذه الاحزاب موجهة الى عموم المريدين ، وهم يختلفون ثقافة وعلما وفهما وإدراكا ، لذلك لن تجد الاقبال اللازم و الفهم المقصود الا اذا توافرت لها عناصر الوضوح و الفهم المؤدية الى التواصل .

ج – ما تتوفر عليه بعض التصليات من اساليب بلاغية تلقائية او مقصودة تزيد المعنى وضوحا و تؤلف بين الكلمات كما سنرى .

<u>5 – بناء الجملة</u> : جملة الذكر عند الغزواني قصيرة لا تخرج عن الاداء المباشر لمعنى التصلية او الدعاء . ولايبعد بناؤها عن التركيب التالي :

صيغة الدعاء + الضمير المنفصل + الفعل و فاعله + المفعول به او شبه الجملة (165) . و يقوم التكرار مقام التطويل ، اذ انه بدل ان يستمر في نفس الجملة يعمد الى تكرار

(165) مثل (اللهم اني اعوذ بك من الهم) انظر وظيفة الغزواني

بأنها مثل :" اللهم اني اعوذ بك من الهم / و اعوذ بك من الفخر و الـ ل / واعوذ بك من البخل . . " و قد يتقدم فعل السؤال علي صيغة الدعاء مع بقاء البناء على حاله تقريبا :" نسألك اللهم ان تعلمنا من علومك . . ." (166) .

و كما وجدنا في دلائل الخيرات و في اغلب الاذكار نلاحظ غالبا صيغة المخاطب على باقي الصيغ ، فالمخاطب هو المحور الاساسي المقصود بالكلام ، و هو الخالق عز وجل . ينوع الشيخ اسلوب مخاطبته بين كاف الخطاب ، وتاء الضمير ، و تاء المضارع ، و فعل الامر الذي يفيد الطلب والالتماس .

و لصيغة المتكلم حضور مشابه لان احزاب الغزواني يغلب عليها الطابع التوسلي خلافا لتصليات الجزولي التي يقصد بها تكريم النبوة و اظهار فضائلها بالدرجة الاولى . و يستعمل الضمائر المنفصلة و المتصلة " اني اعوذ ، عافني في بدني ، و سمعي ، انت خلقتني و انا عبدك " و يحدث التقابل بين هذه الضمائر احيانا – للدلالة على الالحاح في التوسل ، و ابراز التناقض الذي يعيشه المتوسل او يشعر به :

- من ضعفه امام خالقه ، مع اخلاله باوامره وعدم اجتنابه لنواهيه .

- وعظمة الخالق و عدله . . . و هي نفس المواجهة التي نلاحظها دائما في ادب التوسل سواء عند الشعراء (عياض و السهيلي) او عند كتاب الاذكار (السبتي، الجزولي) . و من خلالها يبدي الذاكر الندم و يطلب العفو والمغفرة :" انت خلقتني و انـا عبـدك / اعوذ بـك من شـر مـاصنعت / ابـوء الـيـك بـنعمتك علـي / ابوء بذنبي فاغفر لي " /يستعمل المؤلف ضمائر الغياب من باب التنويع ، اذ ان الغائب دائم الحضور في ذهن الذاكر ، وهو المقصود بالخطاب . . . وخاصة في ذكر الاستغفار و التسبيح و الحمد ، اما في الادعية التوسلية فان التقابل المذكور بين صيغ المتكلم والمخاطب هي الاكثر ورودا .و يستعين بأساليب الاستغاثة والنداء والدعاء لاظهار مدى فداحة ذنوبه وأخطائه و سعيه الى تجاوزها عن طريق التوسل وطلب العفو و الشعور بالذنب و الندم على مافات .

---

(166) حزب الواصلين ، النقطة 134 – 138 .

6 - التركيب البلاغي : لم يبلغ الغزواني ما بلغه شيخ الطريقة الجزولية من عناية بالاسلوب في تصلياته و احزابه :باعتماد المقابلات و التكرار واهتمام بالكلمة و مخارج حروفها ومجانساتها وكان اهتمامه مركزا على اهم خاصيات ادب الاذكار: التكرار . و لا يكتفي فيه بالترديد الكمي للتصلية (ثلاث مرات او اكثر) وإنما تتردد صيغ التصلية نفسها ان بنصها او بشكل قريب منه:"اللهم عافني في بدني/اللهم عافني في سمعي/ اللهم عافني في بصري"ويتم تقسيم جوقة الذاكرين احيانا الى فئتين :

تردد الاولى نصف الصيغة ، و تردد الثانية النصف الآخر .وبواسطة هذين التكرارين الكمي و النوعي ، يتحقق الهدف المنشود من الذكر .

وقد كتب الغزواني احد احزابه في صيغة واحدة متكررة من الاول الى الاخير :

- " ذو الجلال و الاكرام لابد لنا من الوقوف بين يديه ،

ذو الحلم و الحنانة لابد لنا من انعامه ،

ذو الفضل و الاحسان لابد لنا من كرامته " (167) .والقصد منه ابراز ما يجب على الانسان نحو خالقه من آيات التعظيم و الاجلال والشكر .

اما المقابلات المعجمية الواردة في هذه الاحزاب فقد جاءت بشكل عرضي و لم تكن مقصودة لذاتها اي لتحقيق غرض اسلوبي ما . كما كان الشأن عند الجزولي " تعز من تشاء ، و تذل من تشاء ../ تعطي من تشاء وترضي من تشاء، وتفضل من تشاء، وتحيي من تشاء..." (168)

و لا نجد عند الغزواني ذلك الاهتمام بالكلمة و الجملة في التقريب بين مخارجها عن طريق الجناس بانواعه او التعادل و التاليف بين الحروف وكانت عنايته مركزة في بعض الاحزاب على السجع الذي ينهي به جمله ، ويغير حرفه كل ثلاث او اربع جمل :

- " الله معنا ، الله حاضرنا ، الله شاهدنا ، ومحمد إمامنا ،

(167) حزب المرنحين ، النقطة 133 - 134 .

(168) حزب الواصلين ز ، النقطة 134 .

- نجمنا يضيء في كل ليل و نهار ، و قمرنا لا يغيب على جميع الليالي و القفار ، وشمسنا تزهر مادامت الامطار و البحار . . . "(169) .

و انعكس هذا على المستوى الصوتي للاحزاب ، اذ لم تبلغ في موسيقيتها ما بلغته احزاب الجزولي التي كانت تنشد بمصاحبة الآلات او بالتوسيد . و حتى عندما يرددها المريدون وحدهم ، فان تآلف حروفها و انسجامها يساعد على ذلك ، فالغزواني بالرغم مما بلغه في مجال التنظير لطريقته الصوفية بواسطة مراسلاته و مناظراته و اشعاره بقيت احزابه في عمومها قريبة في مضامينها مما سماه " مناجاة الالهام " مع تبسيط للغة و توخ للوضوح في العبارة لتكون في مستوى عامة المريدين دون الوصول من الناحية الاسلوبية البلاغية الى مستوى شيخ الطريقة الجزولية صاحب " دلائل الخيرات " .

---

(169) حزب المرنحين ، النقطة 134 .

خـــاتمـــة الكـــتاب :

نهضت الطرق و الحركات الصوفية بمراكش بادوار سياسية و اجتماعية و تربوية انعكست على الآثار الفكرية و الادبية لرجالاتها وادبائها . فقد كان بعضها بمثابة موقف سياسي او فكري من قضايا طرحت علي هذه الطرق والحركـــــات :

- قصائد عياض و كتاباته في تكريم النبوة ورد الاعتبار اليها لما مسها من تطاول المذاهب القائلة بعصمة غير الانبياء . . .

- شعر السهيلي في نبذ الفتن والحروب و محاورة اهواء النفس واطماعها و التوجه الي الخالق قصد طلب عفوه ورحمته ومغفرته .

في حين كان بعضها الآخر بمثابة منهج علمي تربوي ، يقصد به تكوين مريدي هذه الطرق ورجالاتها و اطرها التي يمكن ان تتحمل مسؤوليات في المستقبل ، تكوينا يضمن التوازن النفسي والحماس اللازمين لذلك .لهذه الغايات : الفت الرسائل و المؤلفات الصوفية التي تعرف بالطريقة واهدافها وتعاليمها ومواقفها باسلوب تعليمي متفاوت بين البساطة واليسر و النقاش الفكري العالي المستوى ، يضمن لها ان تفهم من طرف العامة و صغار المريدين و الحرفيين ، و ان تناقش علماء الطريقة او علماء طرق اخرى تابعة او مناهضة :

- رسائل الجزولي : في التوحيد، عقيدته، اجوبته في مسائل الدنيا والدين . . .

- مراسلات الغزواني و مناظراته و كتابه النقطة الازلية . . .

و لا تكتفي هذه الطرق بالتكوين النظري للمريدين ، و انما تهتم بتكوينهم العملي التطبيقي الذي يضمن لها تبعية المريد و امتثاله للاوامر والنواهي ، و مساندته للطريقة في كل الظروف و الاحوال تطبيقا للعهد (المصافحة) الذي اخذه على نفسه . و العقدة التي ابرمها مع الشيخ للطاعة والخضوع .

لهذا اهتمت هذه الطرق بجوانب تطبيقية في آدابها : كتهذيب المريد وتنشئته على الطاعة و الايمان بالشيخ و الالتزام بتوجيهاته بدقة و دون مناقشة : التلقين وطرقه ، علاقة المريد بالشيخ ، انواع

المشيخة ، آداب المجالسة ، الصدق ، المداومة علي الذكر ، التوبة الزهد في الدنيا ، المجاهدة ، الاخلاص . . . اي كل ما يبعد المريد عن الشك و يدفعه الى اليقين و الاطمئنان و الايمان بالشيخ .وقد وضعوا برنامجا محددا للاذكار و التصليات المساعدة على حصول هذا الاطمئنان و التوازن عن طرق قطع الصلة بمشاغل الدنيا ، و الاستمرارفي تلاوة الاذكار حسب يومية محددة دقيقة من الاستغفار . . . الى الاسم المفرد . في ايام معلومة واوقات محدودة ، ولكل يوم و وقت ذكره .

و لم يمنع هذا كله من وجود ادب يتميز ببعض الخصوصيات و هو ما يسمى " بمناجاة الالهام " . ذلك الادب الذي يصدر عن الشيوخ في حالات نفسية خاصة ، يصفون فيها تجاربهم ومعاناتهم الصوفية فيتسم وصفهم ببعض الغموض ، ومرد ذلك الى سببين :- غموض التجربة ذاتها وصعوبة نقلها بدقة و وضوح .- عجز اللغة نفسها ، فرموزها لا تستطيع نقل التجربة بعمقها وابعادها لذلك استعان الصوفية بالسماع و الرموز و غير ذلك من الوسائل ، محاولة منهم توضيح طبيعة هذه المعاناة ، و نجد هذا النوع من الادب عند الغزواني على الخصوص .

وقد اتسمت الطرق والحركات الصوفية بمراكش بالاعتدال ، فقد حرص اصحابها على التوفيق بين الشريعة و الحقيقة و الحفاظ على وحدة الامة من التفرقة وذلك قصد تحقيق هدفين :

- مواجهة ما كانت تعتبره فرقا ضالة = اصحاب البدع ، الحركات الصوفية الفلسفية . . .

- ضمان مساندة اكبر قدر ممكن من الفئات و الهيئات المكونة للمجتمع او على الاقل ضمان حيادها وسكوتها ازاء المواقف السياسية و الاجتماعية المحتملة : كالفقهاء ، و العلماء ، وائمة المذاهب . . . و هذه السمة هي التي تفسر :

- حرص الشيوخ و المؤلفين على الحديث عن الاسلام واركانه ، والايمان وشعبه ، قبل تناول موضوعات الطريقة .

- اعتمادهم على الاحالات القرآنية والحديثية في الاحزاب والتصليات و الكتابات الصوفية على وجه العموم ، والرجوع الى اقوال السلف الصالح وآرائهم من كبار الصحابة و التابعين وائمة المذاهب ومشايخ الطرق السنية والعلماء ذوي المكانة في التراث الاسلامي .

وبناء على هذا اعتبرت هذه الطرق في اسانيدها و اقوالها و مواقفها سنية و نصت على هذه السنية في كل الكتابات قولا ، و في كل الاذكار تطبيقا وعملا .

وطبيعي ان يشمل هذا الاعتدال اللغة ، لانها وسيلة التعبير و وسيلة العلاج كذلك . فليس الغرض منها احداث التواصل بالمفهوم المتعارف عليه ، لان لغة الذكر تصدر عن المتكلم لتعود اليه و تنعكس عليه لهذا جعلوا لادب الاذكار شروطا ، و قيدوه بقيود . واهتموا بتركيب الجملة وبنائها ، وبالتآلف بين الفاظها و حروفها من حيث المخارج و الموقع حتى تكون متدفقة سيالة متى اعتمدت دون موسيقى ، و ملائمة طيعة في الإنشاد متى صاحبتهاالآلات .كما اهتموا بتركيبها البلاغي من حيث اعتماد المقابلة بين الكلمات ، و المعادلة بين الجمل و حسن تنظيمها و رصفها لتكون معبرة مؤثرة آسرة بمعانيها و أساليبها. فمتى داوم المريد علي تلاوة كلام بهذا التنظيم و التاليف ، وجد له في نفسه وقعا ، وفي قلبه حلاوة تهدىء من روعه ، و تطهر نفسه ، و تزيده تأثرا و تعلقا بالطريقة و صاحبها ، وتحمسا لتنفيذ توجيهاته و ارشاداته و العمل بها تلقائيا ، و لو اتسمت بالغموض و الابهام لنفرته منها و لسعى الى البحث عن البديل .و ياتي كتاب " دلائل الخيرات " على راس ادب الاذكار في هذا الشان ، مع الاشارة الى اهميــة احزاب ابي العباس السبتي وتأثيرها في فئات من مجتمع المدينة وكذا احزاب الجزولي والغزواني .

بهذه الاساليب تمكنت الطرق و الحركات الصوفية بمراكش من التاثير في مجتمعها في كل المجالات ، و توفير الدعم البشري و المعنوي للمساهمة بفعالية في الاحداث التي عرفتها البلاد (الصراعات السياسية ، حركات الجهاد ، تأمين الطرق ، نشر الامن) فتجاوز صيتها حدود المغرب لتشتهر في كافة اقطار العالم الاسلامي عبر العصور و الاحقاب .

لهــــذا كله يجب الا نفصل بين اهداف الطرق و الحركات الصوفية وكيانها ، وبين الكتابات الصوفية لشيوخها و أذكارهم و أحزابهم واشعارهم والخصائص العامة المميزة لهذه الآثار ، فلم توضع بمضامينها و اشكالها - كما قد يبدو - بطريقة اعتباطية .

فهرس المصادر المراجـــع

أ - المخطوطـــات

- ابن البناء / احمد بن محمد التجيبي السرقسطي .

1 المباحث الاصلية عن جملة الطريقة الصوفية .
م . خ . ع . ر . رقم 984 د في مجموع .

- التادلي / الطاهر بن محمد المساوي البجعدي

2 تعليق على دلائل الخيرات
م . خ . ع . ر . 6657 .

- ابـن تجيلات / ابو عبد الله محمد بن محمد المراكشي

3 اثمد العينـين ونزهة الناظرين في مناقب الاخوين .
م . خ . ع . ر . رقم 935 د .

- الجزولي / محمد بن سليمان

4 دلائل الخيرات
النسخة السهلية بخزانة ابن يوسف رقم 377 .

5 حزب الشيخ (او الحزب الكبير)
م . خ . تطوان 447 .

6 حزب الفلاح (الحزب الصغير)
م . خ . تطوان 447 .

7 اجوبة في الدنيا والدين

يوجد بعضه في خ . ع . ر . 31/ ق .

8 رسالة التوحيد

توجد اوائله في خزانة ابن يوسف بمراكش رقم / 58 .

9 كتاب في الزهد

توجد اوائله في خزانة ابن يوسف رقم 587 .

10 عقدة الجزولي

م . خ . ح . رقم 7245 .

- الجزولي / محمد بن العباس السوسي

11 المواهب القدسية في اسانيد بعض المشايخ الصوفية .

م . خ . ع . ر 97 ج

- الحلفاوي / ابو محمد قاسم بن احمد بن محمد،

12 شمس المعرفة في سيرة غوث المتصوفة

م . خ . بمراكش، و م . خزانة ابن يوسف رقم 171 .

- الدكالي / محمد بن علي السلاوي،

13 كناشـــة

م . خ . ع . ر . رقم 158 د

- الزروالي / محمد الحسني،

14 شمس القلوب لكل محبوب

م . خ . ع . ر . 3694 د .

- الزمـوري / محـمد بن عبد العظيم،

15 بهجة الناظرين وانس الحاضرين ووسيلة رب العالمين، في مناقب لمغار الصالحين .

م . خ . بمراكش .

- الساحلي / محمد بن محمد الانصاري،

16 بغية السالك في اشرف المسالك

م . خ . ع . ر . 2224 د .

- السبتي / ابو العباس احمد بن جعفر،

17 حزب ابي العباس

ضمن مجموع خاص بمراكش .

- الشريسي / احمد بن محـمد،

18 انوار السرائر وسرائر الانوار

م . خ . ع . ر . 984 د ضمن مجموع .

- الصحراوي/محـمد الامين بن عبد الله الحجاجي الجعفري،

19 الارتجال في مناقب ومشاهد سبعة رجال

م . خ . ع . رقم 194 .

- الصحراوي/محـمد الامين بن عبد الله الحجاجي الجعفري،

20 المجد الطارف والتالد على اسئلة الناصري احمد بن خالد

م . خ . ع . ر . رقم 588 ك ،

- الصومعي/عبد الرحمن بن اسماعيل التادلي الزمراني،

21 التشوف الى رجال التصوف

م . خ . ع . ر . رقم 1103 د .

22 المعزى في مناقب ابي يعزى

م . خ . ع . ر . 625 د .

- عباس بن ابراهيم المراكشي،

23 اظهار الكمال في تتميم مناقب اولياء مراكش سبعة رجال

م . خ . ح . 232، هي النسخة المعتمدة لانه لم يطبع الا جزء منه .

- ابن عزوز / عبد الله المراكشي

24 اثمد البصائر في علم حكمة المظاهر

م . خ . ح . 7586 .

- ابن عطية / احمد بن محمد السلاوي،

25 سلسلة الانوار في طريقة السادات الصوفية الاخيار

م . خ . ع . ر . 2458 ك .

- عمر بن البخاري،

26 جواب الاخوان في مدد قطب الاعيان

م . خ . بمراكش .

- الغزواني / ابو محمد عبد الله بن احمد،

27 كتاب النقطة الازلية في الذات المحمدية

النسخة المعتمدة م . خ . بمراكش، قوبلت مع نسخ خ . ع . ر . 2002 د 1660 د 2617 ك .

28 الوظيفة الغزوانية

م . خ . بمراكش .

29 مراسلة بين الغزواني وابي محمد الهبطي

م . خ . ح . 9467 .

- الفاسي / محمد المهدي

30 تحفة اهل الصديقية، باسانيد الطائفة الجزولية الزروقية

م . خ . ع . ر . 76 ج

31 تحفة الاخيار، ومعونة الابرار، العاكفين على دلائل وشوارق الانوار

م . خ . ح . 11093 ز .

- القادري / عبد السلام بن الطيب

32 الاشراف على نسب الاقطاب الاربعة الاشراف

م . خ . ع . ر . 310 د .

33 - مجموع، تلاخيص من كتاب الشفا

م . خ . ابن يوسف 26 .

34 - مجموع، فيه شعر لعياض

م . خ. ابن يوسف بمراكش 351.

35 - مجموع، فيه شعر لعياض

م . خ. ابن يوسف بمراكش 359.

36 - مجموع، فيه شعر لعياض

م . خ . ع . ر . 1654 د

- محمد الغالي بن المكي الاندلسي

37 بادرة الاستعجال في مناقب السبعة رجال

م . خ . بالرباط .

- المؤقت/ محمد بن محمد المراكشي

38 ميزاب الرحمات في فضل الصلاة على سيد السادات
م . خ . بمراكش، بخط المؤلف .

- الناصري/محمد المكي بن موسى الدرعي

39 - الرياحين الوردية في الرحلة المراكشية
م . خ . بمراكش .

ب) الكتب المطبوعة

40 القرآن الكريم .

- احمد بن ابراهيم بن احمد بن ابي محمد صالح

41 المنهاج الواضح في تحقيق كرامات ابي محمد صالح ط . مصر 1933 .

- انيس / ابراهيم

42 موسيقى الشعر
دار القلم، ط . 1972/4 .

- البخاري/ ابو عبد الله محمد بن اسماعيل الجعفي

43 صحيح البخاري
ط . دار الجيل، د . ت .

- بدران ابراهيم، وسلوى الخماش

44 دراسات في العقلية العربية
دار الحقيقة 1979 .

- التهانوي/محمد بن علي الفاروقي،

45 كشاف اصطلاحات الفنون
تحقيق لطفي عبد البديع، وعبد المنعم محمد حسنين ج 1/ط . مصر 1963

- ابن تيـمية / تقي الديـن احمد

46 قاعدة جليلة في التوسل الوسيلة
طـ . بيروت، د . ت .

- الجراري / عباس

47 الامير الشاعر ابو الربيع سليمان الموحدي
طـ .دار الثقافة، الدار البيضاء 1974 .

48 وحدة المغرب المذهبية خلال التاريخ
طـ . الدار البيضاء 1976 .

-الجرجاني:ابو الحسن علي بن محمد المعروف بالسيد الشريف،

49 كتاب التعريفات
طـ . تونس 1971 .

- الجزولي/ محمد بن سليمان

50 مجموع احزاب الجزولي واوراده.
المطبعة الرسمية، تونس 1306 .

- جلاب / حسن

5 الدولة الموحدية (اثر العقيدة في الادب)
طـ 1 الدار البيضاء 1983، طـ 2/ الدار البيضاء 1985 .

- ابن جني/ ابو الفتح عثمان

5 الخصائص
تحقيق محمد علي النجار . طـ دار الكتب المصرية 1952-1952 .

- حاجي خليفــة

5 كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون
اسطنبول 1941 .

- حازم القرطاجني

54 منهاج البلغاء وسراج الادباء
تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة . طـ دار الغرب الاسلامي، 1981

- الخريصي / احمد

55 المتصوفة، وبدعة الاحتفال بمولد النبي
مطبعة الاندلس، الدار البيضاء 1983 .

- الزركلي /خير الدين

56 الاعلام لاشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين
طـ كوستاسوماس 1956 . وطـ 1980/5 .

- السايح محمد العربي الشرقي

57 بغية المستفيد بشرح منية المريد
طـ . بيروت 1973 .

- ابو طالب المكي

58 قوت القلوب في معاملة كل محبوب
طـ . بابي الحلبي 1961 .

- الطريسي /احمد اعراب

59 الرؤية والفن في الشعر المغربي
مرقون بخزانة كلية الآداب بالرباط . طبع مؤخرا

- عاطف جودة نصر

60 الرمز الشعري عند الصوفية
طـ . دار الاندلس، ودار الكندي، بيروت 1978 .

- عباس بن ابراهيم المراكشي

61 الاعلام بمن حل مراكش واغمات من الاعلام
نشر عبد الوهاب بنمنصور، طـ ملكية 1974 – 1983 .

- عبد الواحد المراكشي

المعجب في تلخيص اخبار المغرب

تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي . طـ . القاهرة 1949 .

- ابن العريف / احمد بن محمد بن موسى الصنهاجي

محاسن المجالس

نشره اسين بلاسيوس، باريس 1933 .

- الغزالي / ابو حامد محمد بن محمد حجة الإسلام

احياء علوم الدين

طـ . ازهرية 1316 و طـ . عثملنية 1933 .

- الفاسي / محمد المهدي

65 ممتع الاسماع في ذكر الجزولي والتباع، وما لهما من الاتباع والاماع

طـ . حجرية بفاس 1305 و 1313 هـ .

- الفشتالي / عبد العزيز بن محمد

66 مناهل الصفا في اخبار الملوك الشرفا

طـ . وزارة الاوقاف د.ت، ونشرة عبد الله كنون تطوان1964 .

- قدامة بن جعفر البغدادي

67 نقد الشعر

تحقيق، كمال مصطفى، مكتبة المثنى، بغداد 1963.

- الكتاني / محمد بن جعفر الحسني

68 سلوة الانفاس ومحادثة الاكياس بمن اقبر من العلماء والصلحاء بفاس

طـ . حجرية بفاس 1318 هـ .

- الكلاباذي / ابو بكر محمد

69 التعرف لمذهب اهل التصوف

دار الكتب العلمية بيروت 1980 .

- ابن ماجة / محمد بن يزيد

70 سنن ابن ماجة
تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، طـ . البابي الحلبي 1952 .

- ماهر مهدي هلال

71 جرس الالفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب
بغـــــداد 1980 .

72 - مجموع : الاذكار الطيبية
طـ . البارونية، مصر 1324 هـ

- مجموعة من المستشرقين

73 المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوي الشريف
مصور عن طبعة ليدن 1936 .

- محمد فؤاد عبد الباقي

74 المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم
طـ . دار الفكر 1971 .

- محمد مجيد السعيد

75 الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالاندلس
طـ . الكويت 1980 .

- المسدي / عبد السلام

76 الاسلوب والاسلوبية
الدار العربية للكتاب، طـ . 2 - 1982 .

- مسلم بن الحجاج النيسابوري

77 صحيح الامام مسلم
طـ . صبيح، ومحمد فؤاد عبد الباقي

- مفتاح / محمد

77 التيار الصوفي والمجتمع في المغرب والاندلس خلال القرن الثامن الهجري
مرقون بخزانة كلية الآداب ، بالرباط . 1981 .

78 في سيمياء الشعر القديم (دراسة نظرية وتطبيقية)
طـ . دار الثقافة 1982 .

80 تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)
طـ . بيروت 1985 .

- المقري / احمد بن محمد التلمساني

81 ازهار الرياض في اخبار عياض
الاجزاء 1/2/3 طـ . القاهرة 1939 ، وج 4/5 طـ . الرباط 1978 - 1980

- ابن منظور / جمال الدين محمد بن مكرم المصري

82 لسان العرب
دار صادر - بيروت

- المنوفي / ابو الفيض محمود

83 التصوف الاسلامي الخالص
طـ . القاهرة - 1969 .

- المنوني محمد

84 ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين
طـ . الرباط 1979 .

- المؤقت / محمد بن محمد المراكشي

85 السعادة الابدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية
طـ . حجرية 1335 هـ .

86 تعطير الانفاس في التعريف بالشيخ ابي العباس
طـ حجرية بفاس 1336 هـ

- الناصري / احمد بن خالد السلوي
87 الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى
طـ. دار الكتاب 1954 - 1956 .

- النبهاني / يوسف بن اسماعيل
88 افضل الصلوات على سيد السادات
طـ. دار الفكر - بيروت، د.ت.

- النسائي / احمد بن شعيب
89 عمل اليوم والليلة
تحقيق. فاروق حمادة، طـ. دار المعارف 1981 .

- النووي /يحي بن شرف الدمشقي
90 الاذكار النووية
د. ت .

ج - المقـــالات

التدميري / محمد غازي
91 من اشكالات الشعر العربي : التكرار
الفصول الاربعة، عدد 20، دجنبر 1982 .

- صبحي / احمد محمود
92 التصوف ايجابياته وسلبياته
عالم الفكر، مج 6 - عدد 1975/2 .

- عبد الكريم حسن
93 الموضوعية البنيوية
الفكر العربي المعاصر - العدد المزدوج 18 - 19 . سنة 1982 .

- عفيف دمشقية

94 الابلاغية فرع من الالسنية

الفكر العربي - العدد المزدوج 8 - 9، مارس 1979 .

- الفاسي / علال

95 التصوف الاسلامي في المغرب

المحاضرات الثقافية لوزارة الثقافة ج 1 - الرباط 1969 .

- فاطمة محجوب

96 علم اللغة ودراسة الادب

الثقافة المصرية / السنة 3 - العدد 36 - مايو 1976

- الكتاني / محمد

97 مقدمة معاصرة لكتاب الشفا

مجلة المناهل 19 / 1980 .

- محمد عبد المطلب

98 التكرار النمطي في قصيدة المديح عند حافظ (دراسة اسلوبية)

مجلة فصول - مجلد 3، عدد 2 - مارس 1983 .

- المنوني / محمد

99 مؤلفات مغربية في الصلاة والتسليم على خير البرية

دعوة الحق - ماي 1977 .

100 طابع الحضارة المغربية في العصر الوسيط

مجلة كلية الآداب بالرباط عدد مزدوج 3 - 4 /1978 .

101 كتاب الشفا للقاضي عياض من خلال رواته ورواياته

مجلة المناهل عدد 22/ يناير 1982 .

- نهــاد خياطة

102 التعريف بابن العريف
مجلة المعرفة السورية عدد 217 - مارس 1980 .

- نويا / بول اليسوعي

103 اضواء على التصوف المغربي من خلال آثار عبد الله الغزواني.
دراسات عربية واسلامية مهداة الى احسان عباس بمناسبة بلوغه الستين .
نشرته الجامعة الامريكية ببيروت .
ط. بيروت 1981 .

مصــادر ومراجـع بغيــر العـــربية

أ) الكتــب :

BEL ALFRED.

104 - Abou médiam et son maître Eddakak à Fès
Mélanges R. Basset T.I. Paris 1923.

BELLAIRES MICHAUX.

105 - Les confréries religieuses au Maroc
Archives marocaines Vol. XXVII, 1927.

BENCHEICK Jamal eddine.

106 - Poétique arabe
Ed. Anthropos. paris 1975.

- COHEN Jean.

107 - Structure du langage poétique
Flammarion paris 1966

DERMENGHEN E.

108 - Le cultes des saints dans l'islam maghrébin, paris 1954 .

DEVERDUN .GASTON.

109 - Marrakech dès orgines à 1912
Ed. Techniques nord africaine : Rabat 1959.

JACKOBSON R .

110 - Huit questions de poétique
paris point 1977.

فهرس الموضوعات

الآثار الادبية لصوفية مراكش

(الحركة الصوفية بمراكش وأثرها في الادب)

منشورات المؤلف

- الدولة الموحدية (أثر العقيدة في الادب)
الطبعة 1 - الدار البيضاء 1983.

- الدولة الموحدية (أثر العقيدة في الادب)
الطبعة 2- الدار البيضاء 1985.

- محمد بن سليمان الجزولي : مقاربة تحليلية لكتابته الصوفية
مراكش 1992.

- احمد بابا السوداني وكتابه الدر النضير
مراكش 1993.

- الحركة الصوفية بمراكش
مراكش 1994

- الآثار الادبية لصوفية مراكش
مراكش 1994

- مظاهر تأثير صوفية مراكش في التصوف المغربي.
مراكش 1994

تحت الطبع

- بحوث في التصوف المغربي
- في ببليوغرافيا التراث المغربي المخطوط
- الدولة الموحدية (أثر العقيدة في الادب) ط . 3.
- فصول في الادب المرابطي .
- الزاوية البوعمرية بمراكش ودورها السياسي الاجتماعي والديني
- ابو عبدالله محمد المرابط حياته وآثاره.



المطبعة والوراقة الوطنية
IMPRIMERIE PAPETERIE EL WATANYA
زنقة أبو عبيدة الحي المحمدي - مراكش
☎ 30-37-74 فاكس: 23-49-30

ثمن النسخة 40 درهما